تاريخ
أفريقيا الحديث

إعداد

الأستاذ الدكتور

محمود حسن صالح منسي

الفصل الأول

أفريقيا قبل الاستعمار الحديث

- لمحة جغرافية
- الحالة الاجتماعية
- معرفة قدماء المصريين بأفريقيا
- دور العرب في انتشار الإسلام بأفريقيا

لمحة جغرافية:

تؤثـر البيـئة التـي ينشـأ فيها الإنسان في سلوكه وتصرفاته وحضـارته، ولهذا فإنه من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على جغرافية القارة الأفريقية حتى يسهل علينا التعرف على النشاط البشري لشعوب هذه القارة.

ومن أهم المظاهر الجغرافية التي تحظى بها القارة الأفريقية ما يلي:

١ـ الأنهار الكبرى:

الظاهـرة العامـة في الأنهار الأفريقية الكبرى أنها غير صالحة للملاحة إلا في مناطق متقطعة، ذلك لأن الشلالات تقف في سبيلها كما هـو الحـال فـي نهـر الزمبيزي، أو الجنادل كما في نهر النيل، أو المسـتنقعات كمـا هـو موجـود في نهر النيجر، أو التيارات المائية الجارفـة كمـا في نهر الكونغو ونهر النيجر في بعض أجزائه، وهذه الأنهار الكبرى تنبع من أربع مناطق فقط:

أ- **مـنطقة الفوتاجـالون فـي الغرب:** وينبع منها جميع الأنهار المتجهة إلى الشرق (مثل نهر النيجر) وإلى الجنوب (مثل نهر الفولتا) وإلى الغرب (مثل نهر السنغال).

ب- **مـنطقة الهضـبة الحبشـية:** وتنبع منها روافد النيل الكبرى والنيل الأزرق ـ السوباط ـ نهر عطبرة).

ج- **مـنطقـة هضبـة البحيرات:** في قلب القارة وينبع منها نهر النيل ونهر الكونجو.

د- **مـنطقـة الهضـبـة الجنوبيـة الغربية:** وتشمل أجزاء من أنجولا وروديسيا وينبع منها نهر الزمبيزي ونهر اللمبوبو، والمعروف

أن أحواض هذه الأنهار كانت مهداً للحضارات الإفريقية القديمة سواء مـا اكتشف منها بشكل واضح (كالحضارة الفرعونية) أو ما اكتشفت جوانبه الفنية التشكيلية (كحضارة بينين في الغرب) أو ما اكتشفت منه لمحـات متـناثرة فـي الكهـوف (كحضـارة زمبابوي) في حوض الزمبيزي).

والملاحظة الأخيرة على هذه الأنهار الكبرى أن أكثرها استغلالاً فـي نواحـي الـري وتوليد القوى الكهربائية هو نهر النيل، وأكثرها اسـتخداماً فـي النقل والمواصلات هو نهر الكونغو، أما نهر النيجر فـبحكم طبيعته وطبيعة المناطق التي يجتازها والمناخ الممطر السائد بالقرب من منابعه ومصباته فهو قليل الجدوى في نواحي الري والنقل ولا تبدو إمكانيات ذات بال لإمكان توليد الطاقة الكهربية من مجاريه، وأمـا نهـر الزمبيزي فتكاد تنحصر أهميته الكبرى فيما يولد منه من كهرباء وعلى الأخص من خزان كاريبا المشهور.

٢ـ الصحارى:

الظاهرة العامة في أرض أفريقيا أن أكثرها ـ حوالي ثلثيها تقريباً ـ يمكـن أن يوصـف أما بأنه صحراء أو أراض قاحلة ويشمل ذلك الصـحراء الكـبرى وصحارى كلاهاري في الجنوب والقرن الشرقي وأكـثر الأراضـي السـاحلية في كينيا وتنجانيقا وموزامبيق وأنجولا وجـنوب غـرب أفريقيا وأجزاء واسعة من هضاب الحبشة وبعض الروديسيات.

(أ) الصحراء الكبرى:

وتمـثل أهـم مساحة صحراوية في أفريقيا بل وفي العالم أجمع حيـث تمـتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ومن

المتوسط شمالاً حتى وسط أفريقيا جنوباً. وتشمل النسبة الكبرى من أراضي الدول والأقطار الآتية: مراكش ــ الصحراء الأسبانية ــ موريتانيا ــ مالي ــ السنغال ــ النيجر ــ فولتا العليا ــ تشاد والسودان الغربي ــ جمهورية أفريقيا الوسطى ــ جمهورية مصر العربية ــ ليبيا ــ تونس ــ والجزائر.

(ب) صحراء العطمور:

وتشمل المنطقة الممتدة من حلفا إلى بور سودان شرقاً وإلى أبو حمد جنوباً وإلى كردفان إلى الجنوب الغربي.

(جـ) صحراء الصومال:

وتشمل معظم أراضي جمهورية الصومال والجزء الشمالي والشرقي من كينيا.

(د) صحراء كلاهاري:

وتشمل محمية "بتشوانالاند القديمة" (بتسوانا حالياً) والأجزاء الشمالية من جمهورية جنوب أفريقيا والأجزاء الشرقية من إقليم جنوب غرب أفريقيا.

وعلى أطراف الصحراء الكبرى المترامية وكذلك صحاري العطمور والصومال وكلاهاري ــ مناطق واسعة شبه صحراوية وهى مناطق تتساقط عليها كميات قليلة من الأمطار في فترات متباعدة تنتج عنها مراع مؤقتة.

وقد فرضت الطبيعة الصحراوية على المناطق التي أشرنا إليها أنواعاً متقاربة من الحياة المادية والاجتماعية والفنية، كما أحدثت آثاراً متشابهة من ناحية الأنظمة السياسية التي تقوم أسسها على مجتمعات

غـير مستقرة يسودها التقشف والبساطة ويتحكم فيها العرف والتقاليد الموروثة.

٣ــ الهضاب :

تعتـبر أرض أفريقـيا على وجه العموم أرضاً منبسطة، وتتركز المـرتفعات ــ التي هي عبارة عن هضاب واسعة تتخللها أحياناً جبال عالية ــ في المناطق الآتية:

(أ) منطقة الجبل الأخضر في برقة وتوجد في شمال القارة:

وهي عبارة عن قوس كبير يبدأ محوره عند مدينة درنا ــ تقريباً ــ وينتهـي قـرب مديـنة المرج، وهي منطقة دائمة الخضرة كثيرة الوديـان، صـالحة للاستغلال الزراعي وغنية بالثروة الخشبية، ومن أكثر مناطق أفريقيا جاذبية وصلاحية للسياحة.

(ب) منطقة جبال الأطلسي:

وتمتد من تونس إلى المناطق الداخلية في جنوب مراكش وتشمل جبال القبائل التي اشتهرت أيام الثور الجزائرية وإقليم الريف الذي كان مهـداً لـثورة الأمـير عبد الكريم الخطابي، وهذه المنطقة تماثل في طبيعـتها منطقة الجبل الأخضر وتزيد فيها نسبة الأمطار، وهي تعتبر ــ مـن الناحـية الجيولوجـية ــ امتداداً للمناطق الجبلية في جنوب أوروبـا، وقد كان هذا ــ بالإضافة إلى أن السكان الأصليين للمنطقة وهـم قـبائل البربر التي تعتبر من الناحية الأنثروبولوجية أقرب إلى الجنس الآري ــ قد كان هذا كله من الأسباب التي استند عليها بعض الساسـة الشعوبيين المناهضين لفكرة العروبة والوحدة الإفريقية، لكي

يقـــرروا أن الشـــمال الإفريقـــي أجدر بالارتباط بأوروبا منه بأفريقيا وبباقي البلاد العربية.

(جــ) منطقة الـــ " فوتا جالون " في غرب أفريقيا:

تمـــتد هـــذه المـــنطقة من مناطق غينيا الداخلية في الشمال عبر سيراليون وليبريا إلى قرب حدود ساحل العاج.

وإذا كانـــت المنطقـــتان السابقتان، الجبل الأخضر ومنطقة جبال الأطلســـي، هما من المناطق التي يسودها جو البحر الأبيض المتوسط المعـــتدل ونـــباته وحـــيوانه، فإن منطقة الـــ "فوتا جالون" هي منطقة مداريـــة، جوهـــا حار مشبع بالرطوبة ونباتاتها أكثر غزارة وضخامة وحـــيواناتها مداريـــة كذلك (حيث يعيش الجاموس البرى وغيره من الحيوانات).

على أن أكبر وأظهر فارق بين الـــ "فوتا جالون" ومناطق الشمال هـــو أن مـــناطق الشمال تخلو تماماً من الأنهار الهامة وليس بها إلا نهـــيرات وينابـــيع وأخاديد تفيض بالماء في فصل الأمطار وتجف في باقـــي أيام السنة. أما الـــ "فوتا جالون" فينبع منها ثلاثة أنهار أحدهما يـــتجه إلى الغرب وهو نهر "السنغال" والثاني ــ وهو من أعظم أنهار أفريقـــية ــ يتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق ثم إلى الجنوب وهو نهر "النيجر"، والثالث يتجه إلى الجنوب مباشرة ويخترق غانا من أولها إلى آخـــرها وهو نهر الفولتا، هذا إلى جانب أنهار كثيرة أقل أهمية كتلك التي تخترق جامبيا وليبيريا، وإلى جانب الروافد الكبرى لنهر "النيجر".

(د) والمنطقة الرابعة هي منطقة هضاب الكميرون:

وهي هضاب مدارية أيضاً، تنحدر منها أنهار كثيرة بعضها يتجه إلـــى الغـــرب ويصب في "النيجر" وبعضها يتجه إلى الجنوب الغربي

ويصب في المحيط الأطلسي، لدى الساحل المسمى تاريخياً بساحل غينيا، وهو في الواقع يمتد من سواحل الكميرون إلى قرب "السنغال" وبعض هذه الأنهار يتجه إلى الشمال ويصب في بحيرة تشاد، ومنها نهر يجري جنوباً ليتلقى بنهر الكونغو.

(هـ) المنطقة الخامسة هي الهضبة الحبشية:

وتشمل أثيوبيا والمناطق الداخلية من أريتريا والصومال، وعلى الرغم من أن هذه المنطقة على نفس خطوط العرض تقريباً التي تقع عليها هضاب أفريقيا الغربية والكميرون وعلى الرغم من وفرة الأمطار الساقطة عليها، فإنها أقل خضرة وتشجيراً من مثيلاتها في الغرب، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة جبالها التي تنحدر منها شرايين مائية لا حصر لها وتتجمع في النهاية أما في بحيرة " تانا " حيث ينبع النيل الأزرق، أو في وديان ضخمة إلى الشمال من بحيرة " تانا " حيث يتدفق نهر "عطبرة" وإلى الجنوب منها حيث يبدأ نهر "السوباط".

(و) الهضبة الوسطى:

وتسمى أحياناً هضبة البحيرات، ويسميها بعض الرحالة سقف أفريقيا The roof of Africa وبها أكبر بحيرة للماء العذب في العالم القديم، وهي بحيرة "فكتوريا" التي تعتبر من بعض الوجوه بحراً داخلياً تحيط بشواطئه دول كثيرة هي: أوغندا، كينيا، تنجانيقا، وبها من حركة الصيد والنقل والملاحة ما يضيف إلى أهميتها كأكبر خزان دائم يزود نهر النيل بالماء على مدار السنة، بالإضافة إلى قيمتها كمصدر للطاقة الكهربية التي بدئ في استغلالها من مساقط مياه " جنجا " التي أنشئ سد عليها بالمشاركة بين مصر وأوغندا على أن تستفيد أوغندا بإنتاج الكهرباء وتستفيد مصر بالمخزون من المياه.

وهذه الهضبة الكبرى التي تمتد من جنوب السودان إلى أن تتصل بالهضبة الأخيرة ــ وهي هضبة "الروديسيات" ــ لدى منطقة "كاتنجا" تشمل بحيرات أخرى كثيرة إلى جانب بحيرة "فكتوريا" أهمها بحيرات "رودولــف" و "ادوارد" و "تنجانــيقا"، وبها شبكة واسعة من المجاري المائــية والنهــيرات التــي تربط تلك البحيرات بعضها ببعض أحياناً وتتجمع لتكون روافد لأنهار أخرى.

من هذه الهضبة ينبع نهر "النيل"، ومن جانبها الغربي ينبع الفرع الرئيســي لــنهر "الكونغو" وهذا يدل على تشابك المصالح في حوض النــيل وحــوض الكونغــو، ولذلــك فإنها إلى جانب أهميتها الطبيعية والاقتصادية فإن لها قيمة حضارية، وقد نشأت في كثير من أنحائها ــ وخاصــة فــي مناطق بوجندا ورواندا وأوروندي ــ حضارات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحضارة الفرعونية وبحضارات الجنوب العربي.

والذي ينظر إلى الخريطة لا يفوته أن يلاحظ القيمة الاستراتيجية السياســية لهــذه الهضــبة، التي تقع على منابع النيل والكونغو وعلى مشــارف سواحل أفريقيا الشرقية المواجهة للهند وجنوب شبه الجزيرة العربية وأندونيسيا.

(ز) هضبة الروديسيات:

وتــبدأ مشــارفها مــن "أنجــولا" الداخلية ثم تنحدر إلى أواسط "روديســيا الجنوبية" وترتفع مرة أخرى لتغطي ما يسمى "بالمرتفعات البيضــاء" ثــم "نياســلاند" (مــلاوى) و " موزمبيق الداخلية" . ومن "مساطبها" في الجنوب مناطق المناجم حول "كمبرلي" و "جوهانسبرج" كمــا يعتبر من أجنحتها المترامية سلسلة جبال "دراكنبرج" التي تتاخم الساحل الشرقي لجمهورية جنوب أفريقيا.

ويخترق هذه الهضبة من الغرب إلى الشرق نهران كبيران هما: "الزمبيزي والليمبوبو"، وقد اشتهر الزمبيزي تاريخياً بشلالات فكتوريا واشتهر في السنوات الأخيرة بالسد الذي أقيم عليه لتوليد الكهرباء وهو سد "كاريبا".

وهـذه الهضبة تشمل من الأقاليم السياسية ما تزيد مساحته على مسـاحة أوروبا الغربية، وقد كانت تعتبر من الناحية السياسية حاجزاً كثـيفاً يحمـي المسـتوطنين البيض في جنوب أفريقيا من الحركات الـتحررية أو الغزوات التي قد تأتي من الشمال، ولكن هذا الحاجز قد ضـعفت فعاليته باستقلال الكنغو وتنجانيقا وبتفكك اتحاد وسط أفريقيا المكون من الروديسيات ونياسلاند.

سبق القول أن أكثر أراضي أفريقيا أما صحراء أو شبه صحراء، أمـا نصيب القارة من الغابات الاستوائية فضئيل جداً، ولا يكاد يوجد هـذا النوع الاستوائي إلا في المثلث الواقع في جنوب السودان وشمال الكونغو وغرب أوغنداً، وتأتي بعد ذلك أقاليم الغابة المدارية التي توجد نماذج منها في المناطق الداخلية من غينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العـاج وغانـا وتوجو والداهومي والكاميرون والكنغو وأقاليم الهضبة الوسطى وهضبة الروديسيات.

٥ـ المدن الكبرى:

مـن الممكـن تقسـيم أنواع المدن الأفريقية الكبرى من الناحية التاريخـية إلى مدن قديمة ومدن حديثة، فالنوع الأول الذي مرت عليه مـئات السـنين وأحـياناً آلاف السـنين مثل الإسكندرية وأديس أبابا وتمبكـتو، وتتمـيز بالتـنوع فـي أساليب المعمار وفي ألوان التقاليد

والعادات والملابس والمأكل والمشرب وانعكاسات هذا كله على الحياة الاجتماعية والأنظمة السياسية والاقتصادية.

والـنوع الثانـي من المدن الحديثة ــ التي نشأت منذ أن استقر الأمـر للـدول الأوروبية في أفريقيا، وهي تتشابه في تكوينها وأنماط الحياة فيها إلى حد بعيد وتنقسم عادة إلى حي أوروبي يعيش فيه السادة الحكام على نفس النظام الذي ألفوه في بلادهم، وحي أفريقي يعيش فيه أهـل الـبلاد علـى الصورة البدائية التي عاشوا عليها منذ العصور الوسطى.

وإذا تجاوزنـا عن مدن الساحل الأفريقي الشمالي المألوفة لدينا، ففـي الوسـع أن نقسم باقي المدن الأفريقية من الناحية الطبيعية إلى قسمين رئيسيين هما:

(أ) مدن السواحل:

الطابع العام الذي يميز مدن السواحل الغربية والشرقية (فيما عدا بعض مدن جنوب أفريقيا) هو أنها شديدة الحرارة والرطوبة على مدار العام. وليس هناك فصول بالمعنى المألوف في المناطق المعتدلة، وإنما هناك " فصل أمطار " و " فصل جفاف " وقد يكون فصل الأمطار أقل انخفاضـاً في درجة الحرارة ولكنه لا يقل في الغالب من وطأة الحر لسبب ازدياد نسبة الرطوبة.

وهـذه الرطوبة هي التي تجعل وطأة الحرارة وأثرها على نشاط الإنسان واضحاً ملحوظاً وخاصة في الجانب الغربي من أفريقيا.

(ب) مدن الداخل:

أمـــا عـــن مدن الداخل ـــ ومن أمثلتها باماكو، نيامي، فور لامي، ياندوي، الخرطوم، كامبلا، ليوبولد فيل، وسالزبرج ـــ فهي تتشابه مع مـــدن الساحل إلى حد كبير في نظم المعيشة، ولكنها تختلف عنها في المناخ، وسهولة المواصلات.

فالمـــناخ يخضـــع فيها لعوامل مختلفة منها: الارتفاع عن سطح البحر، والقرب والبعد عن الشواطئ.

ويمكـــن القول ـــ على وجه العموم ـــ أن أفضل المدن مناخاً هي التـــي تقع على الهضاب والمرتفعات، ومن أمثلة ذلك: كمبالا وياوندي وسالزبرج، ونيروبي.

ويليها في الاعتدال المدن البعيدة عن الشواطئ التي تنال حظاً من الأمطـــار مـــثل: ليوبولد فيل والخرطوم (في فترة قصيرة من العام) ونيامي.

أمـــا المدن الداخلية التي لا تنال نصيباً معقولاً من فصل الأمطار فإن مزيتها المناخية الوحيدة هي الجفاف، الذي يسمح باستخدام الأماكن المكشوفة والخلوية للاسترواح وللنوم في بعض الأحيان.

وتشـــترك المـــدن الأفريقـــية على وجه العموم في صفة تشملها جميعها وهي صعوبة المواصلات بين بعضها والبعض الآخر، فهناك عدد قليل جداً من العواصم الأفريقية التي يصل بينها وبين غيرها خط حديـــدي أو طريق ممهد، بل أنه لم يكن هناك إلى عهد قريب خطوط جويـــة محلـــية تـــربط العواصم المختلفة في تبعيتها السياسية، وكان المألوف أن ترتبط العاصمة بالدولة " الأم " في أوروبا على بعد آلاف الأميال أحياناً.

وكذلـــك الأمـــر فيما يتصل بالمواصلات التليفونية والبرقية. وما تزال وسائل المواصلات الرئيسية بين العواصم الأفريقية (أي الوسائل

التـــي يستخدمها الأهالي) هي سيارات النقل (اللوري) والسفن النهرية التـــي تقطع بضع مئات من الأميال في عشرات الأيام" كما هو الحال في أحواض الأنهار الكبرى: النيل، النيجر الكونغو".

والعواصم الأفريقية على وجه العموم تتوفر فيها وسائل المعيشة الحديـــثة مـــن المساكن الصحية، والمخازن التجارية ووسائل التسلية والترفـــيه على الطرازين الأوروبي والأفريقي، ولكنها تتفاوت حسب حجم العاصمة والمصالح المالية والشركات التي قد تتخذ المدينة مقراً لها، وكذلك حسب نوع النظام الاقتصادي الذي تتخذ الدولة.

الحالة الاجتماعية

وكمـــا تؤثـــر البيـــئة في الإنسان يؤثر المجتمع أيضاً، فالأصول العرقـــية واللغات والديانات والعادات والتعليم ... الخ لها أيضاً دورها المؤثـــر فـــي تاريخ شعوب القارة الأفريقية، ولذلك فسوف نلقى نظرة عامة على أهم مكونات المجتمع الأفريقي:

أولاً: الأجناس والقبائل

يمكن تقسيم سكان أفريقيا إلى مجموعات كبيرة ترجع إلى أصول معـــروفة لـــدى علماء التاريخ وعلماء الأجناس، وهذه المجموعات لا توجـــد بيـــنها حـــدود فاصـــلة واضحة فإن عوامل الهجرة والانتقال الموســـمي والـــتزاوج والغزو قد فعلت في المزج والتطعيم بين جنس وآخر.

ولهـــذا فـــإن التمييز بين جنس وآخر يخضع لكثير من التسامح العلمي والتجاوز في التعريف.

وعلى أي حال، فالأجناس الواضحة المعالم في القارة الأفريقية يمكن تحديدها فيما يلي:

١ــ الشعوب السامية:

وتتكون من الجنس العربي السامي الذي يقطن الجانب الشمالي من القارة ويمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى تخوم السنغال ومالي والنيجر وتشاد ويهبط في السودان إلى منطقة "الجبلين".

وقد دخل هذا الجنس إلى أفريقيا منذ آلاف السنين (أي قبل الإسلام) ولكنه لم ينتشر في أنحائها بصورة واسعة إلا بعد الفتح الإسلامي، ومن ذلك الحين تداخلت في هذا الجنس أجناس أخرى متنوعة، بعضها يعتبر أجناسا "حامية" مثل المصريين القدماء والأثيوبيين وبعضها يعتبر أجناساً "أرية" مثل "الطوارق" و"البربر" وبعضها يعتبر أجناساً زنجية مثل السكان القدماء لأعالي النيجر وحوض نهر السنغال.

٢ــ الشعوب الحامية:

وينسب إليها الآن سكان الهضبة الأثيوبية وشرق السودان (قبائل البجة) كما ينسب إليها أكثر سكان أوغندا وروانداا أورندي.

ومن المؤرخين من يذكر أنه في قديم الزمان حدثت هجرات ضخمة من وادي النيل الأدنى (مصر) إلي بلاد الحبشة والصومال وأن إحدى تلك الهجرات لم تقف عند هذا الحد بل اتجهت إلي الجنوب الغربي وسكنت الهضبة الاستوائية إلي الشمال والغرب من بحيرة فيكتوريا وهم يؤيدون أقوالهم بأدلة كثيرة منها أن التكوين البشرى لسكان أوغندا ورواندا يختلف تماماً عن تكوين جيرانه ــ من جهة ــ

ويـــتفق مع تكوين المصريين القدماء والأثيوبيين من جهة أخري ولهم كذلك أدلة من الآثار القديمة وتماثل الحضارات لا مجال لذكرها الآن.

٣ــ شعوب البانتو:

يطلق اسم البانتو علي مجموعة الشعوب التي كانت ــ وما تزال تمـــتد من حدود ليبيريا الجنوبية شرقاً إلي الكاميرون الجنوبي ثم إلي الكونغـــو (برازافـــيل) وجمهوريـــة "وسط أفريقيا" وينحدر جنوبا عند أوغـــندا فيشـــمل الكونغـــو (البلجيكـــي سابقا) والروديسيات وأنجولا وموزامبـــيق واتحـــاد جـــنوب أفريقيا والمحميات البريطانية السابقة (بتشوانالاند، باسوتولاند، سوازيلاند)

وتنقســـم البانتو إلي قبائل وفروع في كل منظمة من تلك المناطق الواســـعة وأهمها قبائل الـــ "يوروبا" في غرب نيجيريا والـــ "ايبو" في شرقها وقبائل "المونج" والـــ "لولوا" والـــ "بالوبا" في المناطق الكنجولية وشـــعب "الـــزولو" الـــذي ينقسم إلي أقسام عديدة جداً في الروديسيات وجنوب أفريقيا.

٤ــ الأقزام: Pygmies

هى قبائل متناثرة صغيرة العدد في طريقها إلى الانقراض وتوجد مـــنها مجموعات الآن في أقصى الجنوب الغربي للسودان وفي شمال الكونجو وفي بعض مناطق رواندا وأورندي.

٥ــ البوشمين : Bushmen

هـــو جنس أشرف على الانقراض ويتقارب في الشبه من الأقزام وكان يسكن بعض مناطق الروديسيات واتحاد جنوب أفريقيا ومنه الآن مجموعات قليلة في الغابات.

ثانياً: اللغات والثقافة

١ــ اللغة العربية:

تشغل أفريقيا العربية أوسع مساحة متكاملة من القارة الأفريقية إذ تمــتد مــن الــبحر الأبيض المتوسط في الشمال إلى حدود النيجر في الجــنوب، ومــن الــبحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غربا ــ ويــتحدث أهلهــا أوسع اللغات العريقة في القارة الأفريقية وهي اللغة العربية، فقد مر عليها في أفريقيا أكثر من ألف سنة ولا يمكن اعتبارها مــع ذلــك لغة أجنبية، فقد تفرعت عنها لغات كثيرة خلال ألف عام، يتحدثها الملايين في الغرب والشرق، ومن هذه اللغات لغة الهوسا ولغة السواحيلي.

٢ــ الهوسا:

نشأت هذه اللغة في الشريط البشري الممتد من السنغال غرباً إلى كــردفان شرقاً، وأكثر من ٣٠% من كلماتها من اللغة العربية والباقي من اللغات المحلية في تلك المناطق، وقد كانت تكتب منذ مئات السنين بالحــروف العربــية ولكنها في الفترة الأخيرة كتبت أيضاً بالحروف اللاتينــية وهــى لغة التفاهم المحلية الرئيسية في شمال نيجيريا وفولتا العليا الداهومي وتوجو وغانا، وتصدر بها صحف محلية كثيرة وكتب مدرسية ويقدر عدد المتكلمين بها بحوالي ٦٠ مليون.

٣ــ اللغة الأمهرية:

تعتبر هذه اللغة ــ وهي سائدة في المناطق الوسطى من الهضبة الحبشــية ــ لغة سامية قديمة وهي قريبة جداً من اللغة الحميرية التي كانت سائدة في اليمن قبل الإسلام، وقد ظلت هذه اللغة "شبه ميتة" في

هضاب الحبشة حتى اليوم وهي أقرب إلى لغة الحديث والحياة اليومية منها إلى لغة الأدب والكتابة.

٤ـ اللغة السواحيلي:

كـان مـن أثر اختلاط العرب وتزاوجهم بالأفريقيين في زنجبار وسـواحل أفريقيا الشرقية أن تولدت من اللغة العربية لغة السواحيلي التـي مـا لبثت أن انتشرت إلى الداخل في الوسط والجنوب وأصبح يتحدث بها الآن أربعون مليوناً تقريباً ينتشرون في المنطقة من حدود الصـومال إلـى وسـط الكونغـو ومن هضاب نياسلاند إلى جنوب موزامبيق.

ويقـدر عـدد المصطلحات والكلمات العربية في لغة السواحيلي أكثر من ٧٠% وهي الآن اللغة القومية لزنجبار وكينيا وتنجانيقا.

٥ـ اللغات البنتوية:

تنتشـر فـي وسط أفريقيا وجنوبها مجموعة من اللغات اصطلح علـى تسـميتها باسـم اللغـات البنـتوية نسبة إلى شعب البانتو ذي الخصـائص البشـرية التشـريحية المعـروفة (هيئة الجسم والجبهة والملامح والجمجمة).

وهـذه اللغات بدائية جداً ليست بها آداب رفيعة ولا مؤلفات وأن كـان يصدر بها بعض الصحف المحلية الضيقة الانتشار في الكونغو والروديسـيات والمحمـيات البريطانـية في جنوب أفريقيا، وأهم تلك اللغات النيانجا والسوتو.

٦ـ لغة الأفريكانرز:

كــان من آثار امتزاج العناصر الهولندية والجرمانية في جنوب أفريقــيا أن تولــدت هــناك لغــة الأفريكانرز وهي مزيج من اللغات الهولــندية والألمانية ولكنها لها تركيبها الخاص، وقد كانت هذه اللغة إلــى وقــت تشارك الإنجليزية في كونها اللغتين الرسميتين في جنوب أفريقــيا ولكــنها ما لبثت أن انفردت بكونها اللغة الرسمية في جنوب أفريقيا.

٧ــ اللغات الرسمية الأجنبية:

مــن المعروف أن كل مستعمرة كانت تتخذ لغة الدولة الأم كلغة رسمية لها في المدارس ودواوين الحكومة والمعاملات التجارية. لذلك وجدنا عدة لغات أجنبية كثيرة استخدمت كلغات رسمية في بعض البلاد الأفريقية، هذه اللغات هي الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والأسبانية والإيطالية .

ثالثاً: الأديان:

١ــ الإسلام:

ســري تيار الدعوة للإسلام إلى أفريقيا في اتجاهين، أحدهما من شبه الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا والآخر ــ وهو الأقوى ــ جاء على أثر الفتح العربي للشمال الأفريقي وقد اندفع بعد ذلك إلى الجنوب حتى التقى بالأول في وسط شرق أفريقيا وبذلك أصبحت مراكز الثقل الإسلامي في القارة في:

أ) الشمال الأفريقي.

ب) الشــمال الغربي من القارة ويشمل السنغال ومالي وموريتانيا وغينيا.

ج) وسط القارة ويشمل كلاً من نيجيريا والنيجر وتشاد والكاميرون.

د) شرق القارة وخاصة في الصومال وزنجبار.

وعلى الرغم من أن الإحصائيات "الرسمية" تؤكد أن غالبية سكان أثيوبيا من المسيحيين فإن الخبراء والمؤرخين يؤكدون العكس وكذلك الأمر فيما يتعلق بالأقطار الأفريقية الشرقية (أوغندا وكينيا وتنجانيقا) فإن الإحصائيات الرسمية تنحرف أيضاً عن الحقائق التي يلمسها الزائر لتلك البلاد من غلبة الطابع الإسلامي العام الذي يتجاوز العقيدة إلى الملبس واللغة والتقاليد والعادات.

ولقد يضاف إلى هذه المناطق ذات الطابع الإسلامي المقاطعة الشرقية في الكونغو وإقليم نياسالاند والجزء الشمالي من إقليم موزامبيق على الرغم من أن المسلمين هناك لا يعرفون من الإسلام إلا قشوره وبعض الطقوس الصوفية كالموالد والأذكار.

٢ـ المسيحية:

ويغلب الطابع المسيحي على الكونغو وأنجولا والروديسيات واتحاد جنوب أفريقيا ومناطق متفرقة من أوغندا وروواندا وتنجانيقا، وهذه الأقاليم كانت منذ عشرات السنين مجالاً لنشاط البعثات المسيحية التبشيرية بمذاهبها المختلفة ولكن أكثرها تنظيماً وأشدها تعصباً هي الإرسالية الكاثوليكية.

وقد كانت الإرساليات تعمل في تفاهم تام وبخطط مشتركة مع السلطات الاستعمارية التي تترك شئون التعليم كله في يد المبشرين، وعلى الرغم من نمو الحركات الوطنية وانتشار الوعي القومي فما تزال أغلب مدارس التعليم الابتدائي في تلك المناطق في أيدي

الجمعيات التبشيرية، وفي ليبيريا ــ وهى بلد مستقل ــ لا يسيطر المبشرون على التعليم فحسب وإنما يسيطرون على محطة الإذاعة، وهكذا الأمر في ساحل العاجل وداهومي والتوجو والمقاطعتين الشرقية والغربية في نيجيريا وفي الكونغو (بقسميه الفرنسي والبلجيكي سابقاً) وفي أنجولا والروديسيات.

ولقد كان من نتيجة التعاون بين التبشير والاستعمار أن تخرج من المدارس التبشيرية جميع من يتولون الحكم الآن في بلادهم تقريباً حتى البلاد ذات الأغلبية الإسلامية الواضحة مثل تشاد والنيجر، وكان من نتيجة ذلك أيضاً أن ترى رؤساء الجمهوريات في كثير من تلك الأقطار أما من خريجي مدارس الإرساليات أو من القساوسة.

٣ــ الوثنية:

وتتركز الوثنية في مناطق الأدغال في الغرب والوسط والجنوب ويغلب عليها الطابع الوثني.

والمقصود بالطابع الوثني هو الإيمان " بكائنا علوية تملك اجتلاب الخير وإلحاق الضرر، والشقاء والمرض والقحط والمطر و"رسل" هذه الديانات جماعة من " السحرة" الذين يزعمون إمكانيات توجيه تلك "الكائنات العلوية" بالطقوس والهدايا والقرابين واتباع تلك الديانات هم طبقة التأخر الأفريقي الذين يدينون بالقبلية ولا يعرفون الأمة أو الدولة ويخضعون للقوة الغاشمة أياً كان مصدرها ولكنهم ــ إذا تغيرت الأحوال ــ يعتبرون سلاحاً ذا حدين، قد يخدم المستعمر وقد ينقلب عليه بنفس التعصب والاندفاع كما حدث في الحركة المسماة "ماو ماو".

وإذا كان من العسير أن نبين بالأرقام عدد أتباع الديانات السماوية أو الوثنية في أفريقيا، فإن هناك فكرة تقريبية نستدل منها على أن الترتيب العددي هو كما يأتي:

١- الإسلام.

٢- المسيحية.

٣- الديانات الوثنية.

رابعا: المجتمع الأفريقي:

يتكون سكان أفريقيا ــ كما قدمنا ــ من مجموعات بشرية مختلفة الأصول والألوان، ولكن عوامل الاختلاط والامتزاج وتفاعل الأفكار والعادات كانت تقوم بدور فعال منذ أقدم العصور إلى أواخر القرن التاسع عشر حينما قسمت أفريقيا بصورة حاسمة ــ إلى مستعمرات، وأقيمت بين كل مستعمرة ــ أو كل مجموعة ــ وأخرى فواصل إدارية وسياسية وثقافية واقتصادية، وخيمت على تلك المستعمرات عزلة مصطنعة لم تأخذ في الزوال إلا بعد عهد الاستقلال الحديث.

لقد كانت " حرية الحركة " متوفرة في أفريقيا منذ أقدم العصور وكانت الهجرات الجماعية والفردية ميسورة على الدوام، والأمثلة على ذلك كثيرة وخاصة في أحواض الأنهار الأفريقية الكبرى، النيل والكونغو والنيجر والزمبيري، ولقد شاع ــ فترة من الوقت ــ اصطلاح خاطئ يقسم أفريقيا إلى "شمال الصحراء" و "جنوب الصحراء" باعتبار الصحراء الكبرى حاجزاً طبيعياً، ومن ثم ــ حاجزاً بشرياً واجتماعياً بين الأقاليم الشمالية وأقاليم الغرب والشرق والجنوب ولكن النظرة التاريخية والواقعة تثبت أن ذلك الإصلاح لا يقوم على أساس سليم.

بل أن تلك النظرة تؤيد العكس، وهو أن الصحراء كانت "رباطاً" أكثر مما كانت " فاصلاً" بين الشمال والجنوب.

والدليل على ذلك هو التفاعل البشري والعقلي والديني واللغوي بين أقطار "الشمال الأفريقي" والأقطار المحيطة بـ "خليج غينيا" من السنغال إلى الكاميرون، وأن الزائر اليوم للبرلمان الاتحادي في "لاجوس" ليرى ملامح كثيرة بشرية ولغوية وثقافية ــ من برلمان أفريقي آخر يقع على بعد آلاف الأميال من مدينة "طرابلس" عصمة ليبيا في أقصى الشمال.

وعلى الرغم من انتشار وسائل النقل الميكانيكية الحديثة في أقطار أفريقيا، فإن "طرق القوافل" التي كانت العامل الأكبر ــ فيما مضى ــ في ربط البلاد والشعوب الأفريقية بعضها ببعض، ما تزال تؤدي دوراً حيوياً كبيراً، ويكفي أن أشير الآن إلى أحد تلك الطرق التاريخية العريقة المسمى "درب الأربعين".

أن هذا الطريق ما يزال يربط إحدى ضواحي القاهرة "إمبابة" بمدينة "الأبيض" في السودان الغربي، ومدينة "أبشر" في دولة "تشاد" وما تزال قوافل الإبل تعبره ذهاباً وإياباً، وعلى ظهورها البضائع من جنود ومنسوجات وتوابل، وكذلك المسافرون والحجاج.

وإذا كانت المجتمعات الأفريقية لم تتميز بالعزلة بعضها عن بعض ــ قبل العهد الاستعماري ــ فإنها أيضاً لم تتميز في مجموعها ــ بالجهل والتأخر.

وتكفي نظرة واقعية أخرى، إلى ما تبقى من الحضارات الأفريقية العريضة في غرب القارة وشمالها وشرقها ووسطها وهضابها الجنوبية لنؤكد أن المجتمعات الأفريقية القديمة وصلت إلى ذروة التقدم العالمي

والفني بالنسبة للعصور التي عاشت فيها، وأن الكثير من مظاهر التقدم العقلي والتطبيقي قد انعكست آثاره الحضارية على السواحل الأوربية المواجهة لأفريقيا.

بـل أن الأفريقيين الذين ألقت بهم تجارة الرقيق إلى جزر البحر الكاريبـي والسـواحل الأمريكية قد أصبحوا، فيما بعد، مصدر إشعاع فني واضح الأثر ـ في العالم الجديد.

وفـي الوسـع تقسـيم المجتمعات الأفريقية ـ بوجه عام ـ إلى قسمين:

- المجتمع الحضاري المستقر.
- المجتمع البدائي المرتحل.

وكـل قسـم يمكن تصنيفه على درجات كثيرة، ولكننا نكتفي هنا بذكر الطابع العام لكل منهما وكذلك الطابع المشترك بينهما.

١ـ فالمجـتمع الأفريقـي الـذي اسـتقر على هيئة شعوب في الأراضي الخصبة في أحواض الأنهار الأفريقية الكبرى، والذي يرجح أنه نشأت على يديه "حرفة الزراعة" كان يتميز بتقديس الروح واحترام العلم وإبداع الفن.

ولقـد شـغلت الحـياة الروحـية جانباً هاماً من كيان الجماعات الأفريقـية المتحضرة، وكان من شأنها أن تضفي البهجة والتفاؤل وأن تفـتح الطريق للإنجازات المادية الضخمة في "ممفيس" و "جوندار" ، "تمبكتو"، وغيرها من العواصم الأفريقية التاريخية الكبرى.

وفـي أحد المجتمعات الأفريقية القديمة، نشأت أول ديانة ـ غير سماوية ـ عليها طابع "التوحيد"، وكان ذلك على يدي "اخناتون"، حاكم مصر، قبل الميلاد بنحو عشرة قرون.

وكانــت نقطــة الضــعف في ذلك النشاط الروحي أنه كلما بلغ ذروتـــه، كان قابلاً للتجمد، وكثيراً ما أفسح الطريق للكهانة وما ترتب علــيها مــن تســلط مغرض على مقدرات المجتمع، ومن تهيئة الجو لــبعض المذاهب الصوفية التي تستهلك الطاقة البشرية وتدور بها في حلقات غيبية عقيمة.

ويتــبدى احترام العلم ـ النظري والتجريبي ـ من المكانة التي كان يحتلها المشروعون (رجال الفقه) واللغويون والمؤرخون والأطباء والمهندســون وعلمــاء الفلــك في كثير من المجتمعات الأفريقية في العصــور القديمــة وفي العصر الوسيط، ومنها المجتمعات التي كانت تقطن مناطق "جبال الأطلس" وما يليها إلى الجنوب الغربي في شنقيط "موريتانــيا الحالية"، وإلى الجنوب في حدود "مالي" و "غانا القديمة" و "برنو" و "سنجاي".

وكــان في وسع "العالم" أن يبلغ ـ بعلمه وحده، ودون استناد إلى العوامــل السياسية أو المادية أو العنصرية أو الدينية ـ أن يبلغ أرفع مناصب الدولة، وأن يكون له في المجتمع مركز الصدارة.

وقد اجتذب "المناخ العلمي" في بعض المجتمعات الأفريقية القديمة كثيراً من العلماء والمفكرين الشبان من خارج أفريقيا وخاصة من أثينا وروما ـ فنالوا حظاً من التمرس ونضجت أفكارهم في الإسكندرية وأســيوط حيث ازدهرت مداس فلسفية متعددة في القرن السابق على مولد المسيح.

وكــان أشــهرهم أفلاطون الذي قضى فترة خصبة من شبابه في حلقات الدراسة الحرة في مصر العليا.

أما عن الفنون الجميلة، سواء في ذلك الفنون التشكيلية، والعمارة، والـرقص والموسـيقى، فقـد كانت، ولا تزال، عناصر أساسية في المجتمعات الأفريقية.

وكـان توفـر المواد الأولية الضرورية لفن من الفنون هو الذي يحـدد انتشار هذا الفن واتخاذه أداة للتعبير عن الأفكار والمشاعر في المجتمعات الأفريقية المختلفة.

وهكـذا أدى توافـر الأحجار وتنوعها في الشمال الأفريقي وفي الهضاب الأثيوبية الوسطى والجنوبية إلى ازدهار فن العمارة منذ أقدم العصـور، وأدى توفر العاج والأخشاب الملائمة للتشكيل، إلى الإبداع فـي فـن النحـت لدى المجتمعات المقيمة في مناطق الغابات الغربية والوسطى.

أمـا الرقص والموسيقى فهما غذاء للروح الأفريقية وأداة للتعبير عن تأثراتها العاطفية والاجتماعية والسياسية والدينية.

والموسيقى في المجتمع الأفريقي، هي المنشط على العمل الشاق والمحرض على مواجهة الأعداء، والدواء الشافي لشتى الأمراض.

ولقـد كـان الـرقص والموسيقى من أهم العناصر التي بلورت الشخصـية الأفريقـية وحافظـت على حيويتها خلال عصور الكبت والاضـطهاد والحـرمان، ولما جاء وقت النضال الوطني برزت تلك الشخصية واستطاعت أن تثبت وجودها وأن تسترد حقوقها في التحرر والاستقلال.

٢ــ أما ا ـجتمع البدائي المرتحل فهو الذي يوجد على هيئة قبائل تجـوب الصحراء الكبرى في الشمال، وصحراء كاهاري في الجنوب ومناطق الأمـ ـ الخفيفة البعيدة عن مجاري الأنهار.

وهذا المجتمع تنقصه عناصر الاستقرار ولا تتاح له فرص للعلم والثقافة والنمو الحضاري، ويكاد ينحصر طموحه فيما يملكه من قطعان الماشية وما يسيطر عليه من أرض المراعي وهو مجتمع يتجمد فيه "العرف" و "العادة" ويسود فيه السحر ويعمره الخيال والخرافة، ويفلت عيار الذكاء الفطري حتى ينغمس في الدجل والكهانة.

وأكبر شخصيات هذا المجتمع رئيس القبيلة القوي العضل البعيد النظر، وساحرها وطبيبها، صاحب الخوارق "صانع المطر".

وللمجتمعات الأفريقية المتقدمة والبدائية خصائص مشتركة: فمن ناحية التركيب الاجتماعي، كلاهما يقدس "الأسرة" ويتمسك بـ "القرابة" ويحترم "السن" و "الخبرة" ومن ناحية النظرة المادية، كلاهما يتشبث بالأرض وما عليها من نبات وحيوان، ويعتبرها مصدر الخير والنعمة، حتى القبائل الرحالة تعتبر الصحراء أو مجال الرعي منطقة مقدسة تغار عليها من الدخلاء والغرباء.

ومن ناحية النظرية المعنوية، كلاهما لا يقنع بوجوده المادي وإنما يتطلع إلى "حياة أخرى" يختلف تصورها باختلاف الأديان والمعتقدات والثقافات.

ومن ناحية النظرة السياسية، كلاهما يتميز بالنظرة الواقعية وحب المناقشات المفتوحة والنزول على رأي الأغلبية.

ومن ناحية النظرة الأخلاقية العامة، كلاهما لا يميل إلى السلوك المنعزل الأناني وإنما يغلب عليه طابع الروح الجماعية، تلك الروح التي تجعل الفرد متجاوباً مع غيره من أبناء قبيلته أو أبناء قريته أو أبناء وطنه.

خامسا: التعليم :

في أفريقيا الآن معاهدة علمية يرجع تاريخها إلى ألف سنة.

وقد زالت قبل ذلك من الوجود معاهد أخرى كانت تؤدي رسالتها قبل التاريخ الميلادي بعشرات القرون.

وقبـيل "عصر النهضة" في أوربا كان في غرب أفريقيا جامعات كثيرة ومكتبات خاصة وعامة وحياة أدبية زاهرة.

وعـند بـدء العهد الاستعماري لأفريقيا، كانت "زوايا" الصحراء الكـبرى و " كتاتيـب" شـنقيط "موريتانيا" ، والسنغال واقاليم الهوسا والفولاتـي وجبال الكاميرون وشواطئ بحيرة فيكتوريا وسواحل كينيا وتنجانيقا عامرة بطلاب العلم.

وكـان التعليم داخلاً في نطاق مسئولية المجتمع أكثر مما هو في مسئولية الحكومات.

كـان القـادرون يتبرعون لإنشاء المدارس، ولكن أكثر المدارس كانت تستمد وجودها مما يقدمه أهالي الطلبة من العطايا والهبات.

وكـان القائمون بالتعليم ــ في مجموعهم ــ من الأفريقيين الذين يعلمون تلاميذهم باللغات الأفريقية الكبرى، العربية والهوسا والأمهري والسواحيلي.

ولمـا جاء العهد الاستعماري وتم تقسيم أفريقيا إلى مناطق نفوذ دخلت إلى ميدان التعليم في أفريقيا عوامل كثيرة جديدة.

فمـن ناحـية المسـئولية دخلـت الجمعيات التبشيرية بعقائدها ومناهجها وأهدافها المختلفة.

ومـن ناحية القائمين بالتعليم ظهر أعضاء الإرساليات وأصبحوا سادة الموقف.

ومن ناحية لغة التعليم، أخذت اللغات الأفريقية تتراجع شيئاً فشيئاً أمام لغات الدول الأوروبية المسيطرة على الأقاليم الأفريقية.

ومـــن ناحية المثل العليا للتعليم تغير الأمر فلم يعد التعليم ــ في مجموعـــه ــ يهدف إلى الثقافة في ذاتها أو إلى سد حاجة الجماعة إلى الوظـــائف العامـــة، وإنمـــا اتجه أساساً إلى غاية لاهوتية تكاد تحجب الاحتياجات الدنيوية.

ومضت أجيال قبل أن تعرف المستعمرات "المدرسة الوسطى" ثم "المدرســـة الـــثانوية"، ثـــم "المدرســـة العليا" ، ثم "الكلية الجامعية" ثم "الجامعة" بمعناها الحديث.

ولقـــد كانـــت معـــاهد العلم في أفريقيا، وما تزال، أقل جداً من احتـــياجات المجـــتمع وخاصة في مجال الدراسة الثانوية والدراسات الجامعـــية وما يزال المجتمع الأفريقي يعاني الآلام النفسية في بدء كل عام دراسي وهو يرى النسبة المئوية العالية التي تضيق عنها المدارس الابتدائية والنسبة العليا التي ترفضها المدارس الوسطى والنسبة الكبرى مـــن خريجـــي المدارس الوسطى الذين يعجزون عن دخول المدارس الـــثانوية، ثم بالنسبة الضئيلة من خريجي المدارس الثانوية الذي يتيح لهم الحظ دخول الجامعات أو المعاهد العليا.

ولقـــد يوضـــح أمامنا هذا الموقف أن ننظر إلى التعليم العالي في المناطق التي كانت تحكم الحكم الاستعماري المباشر في أفريقيا، فنرى مثلاً كلية جامعية واحدة في أوغندا، كانت تؤدي خدماتها ــ إلى وقت قريـــب ــ لأقالـــيم شـــرق أفريقيا ووسطها، وكان يتخرج منها بضع عشرات من المدرسين والمهندسين والأطباء والأخصائيين الزراعيين لسد حاجة أكثر من خمسة وعشرين مليوناً من السكان.

وكـــان دافـــع الضرائب الأفريقي ــ وما يزال ــ مثقلاً بالنفقات الـــباهظة التي يتكلفها استيراد الأساتذة من الخارج وما يتطلبه ذلك من الرواتـــب وعـــلاوات السفر ومنشآت السكن، فضلاً عن فرض نظام "الداخلية" على جميع الطلاب.

وقـــد كان من أثر فرض هذا النظام قلة عدد من تستطيع الكليات قـــبولهم وتهيئة أماكن الدرس والإقامة لهم من الطلاب، كما أن ارتفاع المصروفات فوق إمكانيات أكثر الأهالي الأفريقيين أعجز الكثيرين من الطلبة النابهين عن مواصلة تعليمهم الجامعي.

أمـــا المناهج فقد كان يلاحظ عليها عدم مراعاتها لظروف البلاد الأفريقـــية، ونقلها ــ بأمانة ــ عن مناهج "الجامعات الأم" في أوروبا وتجاهل اللغات الأفريقية، تجاهلاً يكاد يكون تماماً.

ولقد حاولت كثير من الدول الأفريقية التي حصلت على استقلالها مؤخـــراً أن تحقـــق مصلحة شعوبها في حقل التعليم باتباع الخطوات التالية:

١- نقل مسئولية التعليم ــ بالتدريج ــ من أيدي الجهات الأجنبية الأهلية إلى الحكومة الوطنية.

٢- تعديل المناهج بما يلائم احتياجات الوطن.

٣- العـــناية باللغات الوطنية وجعلها لغة التدريس في المراحل ــ الابتدائية والوسطى.

٤- الإكثار من معاهد المعلمين تمهيداً لـــ "أفرقة" هيئات التدريس تدريجياً.

٥- التوســـع فـــي إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات لاستيعاب أكبر عدد ممكن من الطلاب.

٦- افتتاح الفصول المسائية للعمل على محو الأمية بين الكبار.

وقــد سارت تلك الدول خطوات واسعة في هذا المجال ويكفي أن نذكــر بعض تلك الخطوات في قطاع واحد هو قطاع التعليم الجامعي وهــي دولــة واحــدة هي نيجيريا، فقد كان فيها عند استقلالها جامعة واحــدة فأصبح فيها الآن ثلاث جامعات، وهناك خطة لإنشاء جامعتين جديدتين.

ولما كان التعليم هو أهم العوامل في تقديم المجتمع وتحيق سعادته وحرأيته ورخائه، فقد اهتمت به منظمة الوحدة الأفريقية، وخصصت له إحدى لجانها الوزارية التي عقدت منذ إنشاء المنظمة أكثر من اجتماع ورســمت خطــة من شأنها التوسع في خدمات التعليم إلى أقصى حد مســتطاع، وتعــاون الدول الأفريقية بتبادل الخبرات وإعارة الأساتذة والتقريب بين المناهج وإنشاء جامعة أفريقية شاملة.

ومن شأن هذا كله أن يدفع أفريقيا إلى مرحلة انطلاق تعوض فيها ما فاتها من فرص النمو الاجتماعي والثقافي وتسهم من جديد في أداء رسالة الحضارة ودعم أسس الرخاء والسلام.

معرفة قدماء المصريين بأفريقيا:

ســبق المصريون القدماء الأوربيين في معرفتهم لما في داخل القارة الأفريقية، وتدل بعض النقوش والآثار على أنه كانت بين مصر وبــلاد الــنوبة الواقعة جنوباً علاقات منذ فجر التاريخ، ومنذ عصر الدولــة القديمــة في مصر (٣٠٠٠ ق.م) بدأنا نجد اسم (بلاد النوبة) بكثرة على الآثار المصرية وتستدل من هذه الآثار على تعدد رحلات المصريين القدماء نحو الجنوب في عهد الدولة القديمة، وأن المصريين

القدمـــاء أسهموا في هذا الوقت المبكر في تنظيم طرق الاتصال ببلاد النوبة سواءً عن طريق البر في الدروب الصحراوية مارين بالواحات، أو عن طريق النيل، فقد حفروا القنوات للتغلب على العقبات الطبيعية في منطقة الجنادل الواقعة جنوبي أسوان.

ومـــن أهـــم مظاهر هذه الصلات بين مصر وبلاد النوبة انتشار المعابد والمعتقدات المصرية في هذه البلاد.

وحيـــن أدى الانقســـام والخلافات على العرش في أواخر الأسرة العشرين لتدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في مصر هاجـــر عدد كبير من المصريين للجنوب واستقر عدد كبير منهم قرب الشلال الرابع، وساهموا في إقامة مملكة (نباتا النوبية)، وقد نجح أحد ملوكهـــا (بعنجـــي) في غزو مصر، وخلفتها بعد ذلك في بلاد النوبة مملكة أخرى هي مملكة (مروى).

وكذلـــك ثبت من النقوش أنه في عصر الدولة القديمة في مصر كانت هناك علاقات تجارية بين المصريين وبين سكان الأقاليم المطلة علـــى الـــبحر الأحمـــر، وقد ازدهرت هذه العلاقات في عصر الدولة الحديثة.

ويذكـــر في هذا المجال بعثة الملكة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامـــنة عشـــر لبلاد بنت (أرتيريا والصومال) والتي سجلت صورها على معبد الدير البحري بالأقصر.

وقد ذكر المؤرخ هيرودوت الذي زار مصر عام (٤٥٧ ق.م) أن أحـــد الفراعـــنة المصريين نيخاو الثاني أرسل في القرن السادس قبل الميـــلاد جماعة من الفينيقيين اتجهوا في البحر الأحمر جنوباً وبعد أن غـــابوا حوالي ثلاث سنوات عادوا لمصر عن طريق البحر المتوسط

فــإذا صحت روايته فإن هذا يعني أن هذه الرحلة البحرية دارت حول القــارة الأفريقــية الأمر الذي لم يتحقق للأوربيين إلا في نهاية القرن الخـامس عشــر الميلادي بعد اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح.

كمــا اهــتم الجغرافــيون بأمــر النيل وتتبع مجراه فبطليموس الجغرافي وهو رجل مصري يوناني رسم خريطته للعالم ووصف النيل ومجــراه حــتى مديــنة مروى (بين الدامر وشندي) كما وصف نهر العطــبره، والنيليــن الأزرق والأبيض وغير ذلك من المعلومات التي ذكر أنه استقاها من مؤلف آخر ضاعت كتاباته.

ويعــتقد بعــض الباحثيــن أن هــناك تشابهاً واضحاً بين بعض المعــتقدات وبعض الآلات والأدوات التي ما زالت موجودة لدى قبائل غرب أفريقيا اليوم وبين المعتقدات والآلات التي كانت لدى المصري القديم.

دور العرب في انتشار الإسلام بقارة أفريقيا:

إن الأمر الذي لاشك فيه هو أن العرب عرفوا طريقهم إلى القارة الأفريقــية. ووصلوا إلى سواحلها الشمالية والشرقية، بل ووصلوا إلى أقصــى جنوب القارة قبل أن يصل إليها البرتغاليون بعدة قرون، ولم يقتصر العرب على السواحل، بل استطاعوا ـ وهم البدو ذوو المقدرة علــى عــبور الفيافي والقفار ـ أن يتوغلوا في الداخل، فوصلوا إلى أقالــيم السودان بمعناه الجغرافي الواسع، حيث نشروا الإسلام، وترتب علــى ذلــك قــيام إمبراطوريات إسلامية عظيمة داخل أفريقيا. وقد اســتمرت بعــض هــذه الــدول الإســلامية حتى بداية عهد أفريقيا بالأوربيين.

وهـذا الانتشار العربي يعتبر طوراً من أطوار الانفساح العربي الإسـلامي، ولكـنه يخـتلف من ناحية أخرى عن الفتوح الإسلامية المعـروفة، إذ لم يكن هذا الانتشار من عمل دولة إسلامية بذاتها، أو خلافة إسلامية معينة، بل كان أحياناً نتيجة جهود إمارات عربية على سـاحل حضـرموت، وأحياناً أخرى لم يكن لهذه الإمارات شأن بهذا التوسع بالمرة، بل كان يرجع إلى جماعات تسهم فيها بقصد الاستقرار والتجارة، وما قد يستتبع ذلك من اندماج.

وبمضـي الزمـن زاد عـدد القادميـن للاستقرار على الساحل الأفريقـي الشـرقي، وتوثقـت العلاقـات مع داخل القارة، وتشعبت المصـالح، وأصـبحت الإمارات العربية على هذه السواحل الأفريقية علـى صـلة بـتجار شبه الجزيرة العربية من ناحية، وبتجار القارة الأفريقـية مـن ناحـية أخرى، وقد تم استقرار العرب على الساحل الأفريقي المواجه لشبه الجزيرة العربية في هدوء، ودون استخدام القوة والعنف، إذ لا يذكر التاريخ حروباً بين المهاجرين والسكان الأصليين.

وكان الغرض التجاري هو الهدف الوحيد لهذه الجماعات العربية الوافدة على أفريقيا، فلم تكن لديهم أية فكرة استعمارية. ولذلك استقروا على الساحل فقط، وفي نقاط مناسبة لهذا الغرض التجاري، كثغر من الـثغور سهل الاتصال بداخل القارة، ولم يهتموا بامتلاك الأرض إلا بالقدر الضروري اللازم لحماية هذا الثغر التجاري. ولذلك كانت رقعة الإمارات العربية على الساحل الأفريقي ضيقة. وبسبب وجود عوائق طبيعية تعوق التوغل، مثل التضاريس والمناخ والنبات. إلا أن النشاط التجاري استلزم في بعض الأحيان التوغل داخل القارة لحماية القوافل، ولعقد اتفاقات تجارية مع الأمراء الأفريقيين في داخل القارة، مما أدى

إلـــى إلمـــام العرب بكثير من المعلومات عن بعض الجهات في داخل أفريقيا.

ويلاحـــظ أن المهاجريـــن العـــرب لم يلبثوا أن اندمجوا بالسكان الأصليين وحدث بين الفريقين تزاوج، وبمرور الزمن ظهر جنس تبدو فـــيه الصـــفات العربـــية مـــع الصفات الأفريقية، وحتى اللغة السائدة أصبحت لغة أفريقية عربية "اللغة السواحيلية".

دخل الإسلام إلى القارة الأفريقية خلال ثلاثة طرق رئيسية:

١ــ طريق بلاد اليمن وحضر موت والبحرين والإحساء:

إلـــى الساحل الشرقي لأفريقيا، إذ أخذت هجرات المسلمين تتدفق عـــبر خلـــيج عدن. لتنزل على الساحل الشرقي لأفريقيا. وتمتد جنوباً حتى مدار الجدي على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب يطلقون علـــيها اسم "بر الزنج". وقد بنى المسلمون مدينة مقديشو على ساحل المحـــيط الهندي في بلاد الصومال، وذهبت جماعة منهم إلى زنجبار حيـــث نشـــروا الإسلام بين أهلها، كما أسسوا مدينة كلوة في تنجانيقا حالياً. بل ونفذوا إلى كينيا وأوغندا، ووصل الإسلام إلى أقصى جنوب القـــارة "مســـتعمرة الـــرأس" عـــن طـــريق أهل الملايو، الذين نقلهم الهولـــنديون في القرن السابع عشر أو الثامن عشر. كما شق الإسلام طـــريقه إلى بلاد الحبشة، ومن الأمور التي سهلت الاتصال بين عرب جـــنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي. وبين الساحل الشرقي لأفريقيا، طبيعة الرياح التي تهب في المنطقة في مختلف فصول السنة، ففـــي شهر ديسمبر وحتى فبراير تهب الرياح متجهة الشمال الشرقي، ومـــن أبـــريل وحـــتى سبتمبر تهب الرياح في اتجاه مضاد. أي نحو الجـــنوب الغربـــي، وبذلك كانت هذه الرياح تحمل أهالي جنوب شبه

الجزيـرة العربـية إلى شرق أفريقيا، حيث يقضون بضعة أشهر في التجارة، ثم تحملهم الرياح المضادة إلى أوطانهم مرة أخرى.

وكانـت هذه العلاقات قائمة حتى قبل ظهور الإسلام، ثم تدعمت بعـد ظهوره، فإنه من المعروف أنه لما اشتد إيذاء قريش للرسول ﷺ فـي مكة وتنكيلهم بالمسلمين. هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، لما نقـوه من حسن استقبال النجاشي، وامتناعه عن تسليمهم لقريش، وبعد ذلـك اسـتمرت هجرات المسلمين تتدفق على شرق القارة الأفريقية، فرحلـت جماعة من البحرين وأسسوا مدينة مقديشو، وهاجرت جماعة أخرى من الخليج إلى زنجبار وأسسوا مدينة كلوة في تنجانيقا الحالية. كما بلغ أهل عمان ــ وقد عرفوا بمهارتهم في الملاحة وبناء السفن ــ فوصلوا ساحل زنجبار. وقد استقر العرب في مقديشو ومالندي وممبسا وبمـبا وزنجبار وكلوة وموزمبيق وسوفالا ــ عند نهر الزمبيري ــ وبعـض هـذه الأماكن عبارة عن جزر ساحلية، ولكل منها مسجدها الجامع، ومرت على الساحل الشرقي في أفريقيا فترات استطاع العرب توحـيده فـي إمارة واحدة. وكانت آخرها إمارة كلوة التي بقيت حتى مجيء البرتغاليين في القرن الخامس عشر، حين وجدوا أمير موزمبيق يدين بالطاعة لسلطان كلوة، ويجمع الضرائب باسمه.

وقد ساد نوع من التفاهم والتعاون بين العرب وأهل البلاد. وأخذ العـرب يتزوجون من هؤلاء الأهالي، حتى تكون العنصر السواحيلي الذي يدين بالإسلام.

أما العبيد الذين كان العرب يجلبونهم، فقد استبقى العرب بعضهم للعمل في مدنهم ومزارعهم وجيشهم، ونقلوا البعض الآخر إلى أسواق الرقـيق فـي أوربا وآسيا. مع ملاحظة أن هؤلاء الرقيق لم يشعروا بشـيء مـن الاضـطهاد، لأن الإسلام كان يحث على حسن معاملة

الرقـيق، وقـد أعجب الرحالة العربي ابن بطوطة بتلك الحياة المترفه التـي رآها في شرق أفريقيا. فتحدث عن كلوة وذكر أنها أجمل بقاع العالم، وأن ممبسا مدينة عظيمة، وأشاد بجمال مقديشو التي زارها عام ١٣٣٢. وقـال إنها أعظم مدن الساحل الشرقي، وأعجب ابن بطوطة بما عرف به أهل هذه البلاد من الورع والتقوى. وفي عام ١٤٣٠ زار الأسـطول الصـيني مقديشو. وعندما جاء الأوربيون إلى هذه البلاد وجـدوا بهـا حضـارة لا تقل عما كانوا يرونه في أوربا. وقد لاحظ فاسـكو داجامـا أن مقديشو مدينة عظيمة بها القصور الشامخة، كما وصف كلوة بأنها مدينة إسلامية عظيمة، بيتها من الحجر، وشوارعها نظـيفة، وأبـواب دورها من الخشب المحفور حفراً بديعاً، تحيط بها الحدائق والبساتين، وأن ممبسا ميناء عظيمة ترسو فيها السفن الكبيرة.

ولـم تقتصـر جهـود العرب على الساحل، بل أوغلوا في داخل القارة الأفريقية فيما وراء الساحل، حيث صادف الإسلام نجاحاً كبيراً بيـن قبائل الجالا في الحبشة، لا عن طريق الغزو، ولكن عن طريق الـتجارة، حيـث أخـذ التجار المسلمون يتوافدون على بلاد الحبشة والصومال، ويدخلون الكثيرين في الدين الإسلامي.

كمـا شق الإسلام طريقه إلى أوغندا في النصف الأول من القرن التاسـع عشر، وإلى نياسلاند في أوائل القرن العشرين، وإلى جزيرة مدغشقر وكينيا وتنجانيقا، بل وإلى مستعمرة الرأس، حيث نجد مسلمي هـذه البلاد من سلالة أهل الملابو الذين جاء بهم الهولنديون في القرن السابع عشر أو الثامن عشر.

هذا عن انتشار الإسلام في شرق أفريقيا من جنوب شبه الجزيرة العربـية والخليج العربي. ولم يكن هذا هو الطريق الوحيد الذي سلكه الإسلام إلى أفريقيا، بل كانت هناك طرق أخرى.

٢ــ الطريق الشمالي ــ طريق النوبة ودنقلة:

وذلــك بعــد الفــتح الإسلامي لمصر، ولم يكن السودان مجهولاً للعــرب، حيــث كان نهر النيل طريقاً تجارياً لهم، رغم وقوف مملكة النوبة المسيحية في وجه انتقال هؤلاء المهاجرين، من أجل التجارة، أو من أجل الرعي.

وفي عهد عمر بن الخطاب حاول العرب بقيادة عقبة بن نافع فتح بــلاد النوبة. ولكنه لم يستطع، فعقد مع أهلها صلحاً كان أشبه بمعاهدة اقتصــادية، فزاد هذا من معرفة العرب ببلاد النوبة، كما عرفوا أرض البجاة في شرق السودان بين النيل النوبي والبحر الأحمر وبين أسوان ودنقلــة. وفــي عــام ١٣١٩ زالت النوبة وأصبح ملوكها تحت تأثير القبائل العربية. ومنذ ذلك الوقت تدفقت موجات من العرب ــ وخاصة جهينة ــ إلى السودان ودارفور. كما حاول التجار المسلمون من النوبة تحويل جماعات الفونج ــ أصحاب السيادة على سنار ــ إلى الإسلام.

٣ــ طريق أفريقيا الشمالية الغربية:

فــإن العــرب المســلمين ــ بعد أن تم لهم فتح مصر ــ امتدوا بفتوحهم إلى بلاد المغرب. فتأسست مدينة القيروان في تونس على يد عقبة بن نافع عام ٥٠هــ. اتخذ منها المسلمون قاعدة لنشر الإسلام في شــمال القارة الأفريقية وغربها. وقد انتشر الإسلام بين البربر ــ أهل شــمال أفريقــيا ــ الذين صاروا عماد الجيش الإسلامي في محاربة أوروبــا. وفتح الأندلس. وقد حرص الخلفاء ــ وخاصة عمر بن عبد العزيــز ــ على إعلاء شأن الإسلام في تلك الأقطار، فكانون يرسلون مــع الولاة طائفة من الفقهاء، ليعلموا البربر فرائض الدين الإسلامي وتفسير القرآن الكريم، حتى أنه بعد أن أخذ بعض زعماء المغرب في

الخـروج على الدولة العباسية. والاستقلال ببلادهم، وتأسيس ولايات مغربـية مستقلة. مثل ولاية تاهرت وسجلماسة وتلسمان، حتى أخذوا على عاتقهم نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في شمال وغرب أفريقيا.

وتعـبر الدولـة المرابطية "المرابطين" أول دولة وحدت المغرب الأقصـى والأوسـط، وقامت بدور هام في نشر الإسلام على السلحل الأفريقـي الغربي وبلاد السودان. وكانت للمرابطين نزعة دينية وحب للجهـاد. ويقال إن اسم المرابطين مأخوذ من الرباط. أي الخلوة التي أتخذهـا زعيمهم عبد الله بن ياسين في جزيرته بنهر السنغال. ولذلك سـمى أتـباعه بالمرابطين، وعبد الله بن ياسين يرجع إليه الفضل في انتشار الإسلام في الصحراء وفي حوض السنغال.

ويعـتقد الـبعض الآخر أن اسم المرابطين مأخوذ من اسم واقعة حربـية. استبسـل فيها أتباع عبد الله بن ياسين. ورأي ثالث بأن نفظ المرابطيـن مـأخوذ مـن الرباط، وهو حراسة الحدود. وقد ورد في القـرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى { **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومـن ربـاط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** } [سورة الأنفال، الآية ٦٠]

وقـد نشـر المرابطون الدين الإسلامي بين الفولاني على ساحل غينـيا، كمـا انتشـر على أيدي التجار بين قبائل الأشانتي في ساحل الذهب.

ثـم جـاء الموحدون، وكان لهم أيضاً أثر طيب في نشر الدعوة الإسلامية إلى قلب القارة الأفريقية.

وقـد كـان لـتحول الـزنوج إلـى الإسلام أثر بعيد في حيتهم الاجتماعـية، لأن الإسلام ــ كما هو معروف ــ لا يقيم وزناً للون أو

الجـنس، وإنما يسود المجتمع الإسلامي الإخاء والمساواة. وقد جعلت الحضـارة الإسلامية الزنوج يتخلون عن كثير من عاداتهم وطباعهم الهمجـية. ويشهد بذلك الكاتب الإنجليزي بودورث سميث، فيقول إن أقـبح الـرذائل مـثل أكـل لحوم البشر. وتقديم الإنسان قرباناً، ووأد الأطفـال أحياء، قد اختفت فجأة، وتحول الناس من العرى إلى ارتداء الملابس، بل والتأنق فيها، والأهالي الذين لم يغتسلوا قط من قبل بدءوا يغتسـلون، بل ويكثرون من الاغتسال، لأن الشريعة الإسلامية تحض علـى الطهـارة، كمـا أخـذت القبائل في الاندماج، وبازدياد النشاط والمعـرفة تصير الأمم إمبراطوريات، وأنشئت المدارس الأولية. ولو اقتصـرت علـى تلاوة القرآن الكريم لكانت ذات قيمة في ذاتها، وقد تكـون خطـوة فـي سبيل ما هو أعظم، وأصبح المسجد الجيد البناء النظـيف، بما فيه من آذان للصلاة خمس مرات في اليوم، وقبلة تتجه إلـى مكـة، وإمـام وصلاة جمعة، مركزاً للقرية بدلاً من دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع.

وهكـذا استطاع الإسلام أن يقيم في أفريقيا في العصور الوسطى حضارة.

ويقودنـا الحديـث عـن انتشار العرب والإسلام في أفريقيا إلى مناقشة ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين. من أن الدولة الإسلامية التي تكونـت عقـب ظهور الإسلام، وصارت تنمو حتى أصبحت تمتد من حدود الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً، يدعون أن هذه الإمبراطورية كانت "إمبراطورية استعمارية"، تكونت بالغزو وإخضاع الغير للتبعية العربية الإسلامية.

ولكن المتأمل المنصف يجد أن الأمر يختلف عن ذلك تماماً، حتى ليمكـن القول بأنها إمبراطورية تحريرية، لأنها حررت الشعوب التي

دخلت في نطاقها من ربقة الاستعماريين الروماني والفارسي: وما كان يصـــحبهما مـــن اضطهاد ديني ، واستغلال اقتصادي واجتماعي. ولم تكن الدولة العربية الإسلامية تعرف التفرقة العنصرية، بل كان البب مفتوحاً أمام كل رعاياها للاختلاط والتزاوج. مما أدى إلى قيام مجتمع حضـــاري متجانس. الناس فيه سواسية كأسنان المشط، ولا تسلط ولا اســتغلال. ولذلــك فإنه يمكن القول بأنه إذا كانت أفريقيا تسمى القارة المظلمــة التــي ظلت مجهولة، وكانت آخر القارات تعرضاً لتجارب الأوربييــن التي امتدت من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين. فإنــه لــم يكــن معنى هذا أنها أكثر القارات تخلفاً في بداية العصور الحديــثة، فالأستراليون عندما حل بهم الاستعمار، كانوا يعيشون على الجمــع والالتقاط، ويستخدمون الآلات الحجرية، وهو ما يشبه الدور الذي تمر به الشعوب في العصور الحجرية التي خلفتها أوربا ومعظم الأفريقييــن قــبل بضــعة آلاف من السنين. وكذلك كان معظم الهنود الحمر الأمريكيين في القرن السادس عشر يستخدمون الآلات الحجرية المصــقولة، ولــم تكن هناك إلا فئة قليلة منهم تستخدم المعادن، وكان معظمهم لا يزال يعيش على الجمع والالتقاط.

الفصل الثاني
الاستعمار الأوربي لأفريقيا

- الاستعمار ومراحله
- تأخر كشف القارة
- الدوافع الأوربية لاستعمار أفريقيا
- الكشف الجغرافي لأنهار أفريقيا

مقدمة:

ابتليت قارة أفريقيا في بداية التاريخ الأوروبي الحديث بزحف استعماري استحوذ علي مناطق واسع من أراضيها، وأستغل جيرانها، وأستعبد شعوبها، وظلت ترزخ تحت ألوان الاستعمار للدول الأوروبية المختلفة منذ بزوغ فجر التاريخ الأوروبي الحديث وحتى النصف الثاني من القرن العشرين. ولقد كانت ظروف أوروبا ذاتها، وما وصلت إليه من تقدم ونهضة في المجالات المادية والمعنوية عاملاً أساسياً في اتجاه أطماعها نحو أقرب مكان لها (قارة أفريقيا) لما تحتويه من خيرات عديدة حبتها الطبيعة إلي جانب ما وصلت إليه شعوب القارة من ضعف وتفكك وانقسام وتخلف بعد أن كانت مهد الحضارات عريقة في العصور القديمة والوسطي.

ولقد روج لهذه الهجمة الاستعمارية بعض الفلاسفة والكتاب الذين حاولوا الدفاع عن الاستعمار وتبرير أفعاله وتغطية أهدافه الحقيقية بدعوى حمل نور المدينة والحضارة الغربية إلي البلاد المختلفة للسمو بها، ولا شك أن الواقع الذي نلمسه في أفريقيا بالذات رغم طول فترة الحقبة الاستعمارية ــ يكذب هذا الإدعاء ويهدمه من أساسه فالخراب والدمار والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والحضاري أكبر دليل على ذلك. ولقد تطور أمر الاستعمار الأوروبي لأفريقيا حيث جاء في بداية نخاساً يخطف النساء والأطفال والشبان لبيعهم في أسواق العالم الجديد عبر الأطلنطي، ثم مكتشفاً يحمل الكتاب المقدس ويبشر بالمسيحية ثم تاجراً يجمع العاج أو الذهب الأبيض أو الرقيق أو العاج الأسود، ثم جندياً فاتحاً غازياً وحاكماً استعمارياً، حتى لقد ذهب بعض الكتاب إلي القول بأن الرجل الأبيض عندما جاء إلي أفريقيا كان يحمل الكتاب

المقدس، وكان الأفريقي يمتلك الأرض، وما لبث أن أنقلب الحال، فقد أعطي الكتاب المقدس للأفريقي وأخذ منه الأرض.

الاستعمار و مراحله:

والاستعمار ظاهرة قديمة، وقد شهد العالم القديم قيام إمبراطوريات استعمارية ضخمة كالإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الإسكندر المقدوني، ولكن الاستعمار الأوروبي الحديث تطور في أساليبه ووسائله وأهدافه والنتائج التي ترتبت عليه، مما يدعونا للبحث عن تعريف للاستعمار الحديث ولعل أكثر التعريفات شمولاً ما ذكره الدكتور محمد عوض محمد بأنه "العمل أو مجموعة الأعمال التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمة من الناس على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم، أو علي سكان تلك الأرض أو علي الأرض والسكان في أن واحد" فالأعمال قد تكون باستخدام دولة لقوتها الحربية أو استخدام جماعة منظمة لشركات استعمارية، أو غيرها من الأساليب التي تتخذ من المشروعات الثقافية والاقتصادية ذريعة لبسط سلطان دولة قوية علي أخرى ضعيفة.

وقد مر الاستعمار الأوربي في أفريقيا **بمرحلتين أساسيتين،** المرحلة الأولي: وهي التي يطلق عليها المرحلة الساحلية، وقد حدثت في بداية العصور الحديثة، واقتصر الاستعمار فيها علي الارتكاز علي بعض النقط الساحلية مع عدم التوغل في الداخل، وفي هذه المرحلة ظل قلب أفريقيا مجهولاً بالنسبة لأوربا ولذلك نعتوها بالقارة المظلمة حتى القرن التاسع عشر. والمرحلة الثانية، مرحلة التوغل، وهي أكثر أهمية وخطورة، وفيها توغل الاستعمار في داخل القارة، وتأتي هذه

المرحلة في القرن التاسع عشر بالذات نتيجة التطور الاقتصادي الذي مـرت بـه أوربـا، بعد أن سبقها كشف جغرافي للمناطق المجهولة بـالداخل وأهمهـا بالطـبع مـنابع الأنهار وروافدها ومساراتها حتى مصـباتها. ولقـد ظل الأوربيون حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشـر يسيطرون فقط على أجزاء بسيطة من أفريقيا لا تعدو السواحل وبعـض الجزر البسيطة، وفي أوائل القرن التاسع عشر لا نكاد نحس بأقدام الأوربيين إلا في أماكن محدودة في السواحل الأفريقية أو الجزر المقابلـة لهـا، واسـتمر الوضـع على هذا المنوال رغم تعدد الدول الاسـتعمارية (الـبرتغال، أسبانيا، هولندا، فرنسا، بريطانيا) حتى عام ١٨٨٥م، كـان الجـزء المستقل من القارة حوالي ٩٥%من مساحتها، ولكـن بعد مؤتمر برلين ١٨٨٥/٨٤م، تغيرت الصورة ووصل الجزء المستقل من القارة إلى ٨% من مساحتها في عام ١٩١٠م.

تأخر كشف القارة:

ولقـد تأخرت كشف القارة الأفريقية حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر لعدة أسباب لعل أهمها ما يلي:ـ

أولاً: أن السـواحل الأفريقـية قليلة بالنسبة لمساحة القارة. ومن بعـض مـناطق القارة نجد أن الهضبة الداخلية تقرب من الساحل ولا تعطي فرصة لتكوين ساحل واسع يمكن من الاستقرار و التحرك منه إلي أجزاء أخري من القارة. ويلاحظ أنه كلما ازداد طول الساحل كلما سـاعد علي التوغل في الداخل، وبالطبع كان قصر السواحل الأفريقية عاملاً من عوامل تأخر كشف المناطق الداخلية بها.

ثانيا: قلة الخلجان والجزر قرب الساحل، فقارة أفريقيا فقيرة في جزرها بعكس القارات الأخرى، فهي قارة واسعة كتلة واحدة ليس لها

طـرف أو رؤوس خارجية. وقد أدي هذا إلي عدم وجود خلجان كافية تسـهل مــن عملـية إنشــاء الموانئ التي تعد نافذة القارة علي العالم الخارجي. وحتى الجزر القريبة من القارة مثل مدغشقر وزنجبار وبمبا في الشرق أو حتى جزر كناري وساوتومي في الغرب لم تلعب دوراً هامــاً فــي حــياة القــارة، ولذا ظل داخل القارة فترة طويلة مجهولاً للأوروبيين.

ثالــثاً: أنهار القارة عديمة القيمة للتوغل داخلها لأن هذه الأنهار رغم ضخامتها وطولها (النيل والكونغو مثلاً) فإنها أنهار تنتهي عند الــبحر بفــروع كثــيرة متشعبة، ومناطق سدود نباتية أو مساقط مياه صعبة الاجتياز، وبالتالي لم تساعد أنهار القارة علي التوغل داخلها بل وقفــت حجر عثرة أمام توغل الأوروبيين إلي الداخل، ولم يتم كشف هذه الأنهار إلا بالطرق البرية المجاورة لهذه الأنهار.

رابعاً: العوامل المناخية في القارة الأفريقية كانت سبباً رئيسياً في تأخــر كشف القارة الأفريقية ذلك لأن أفريقيا ظلت حتى فترة قصيرة تعــرف باسم مقبرة الرجل الأبيض(White man`s tomb). فالمناخ الأفريقــي قــاس حار ورطب، والأمراض في كثير من جهات القارة متعددة وفتاكة، ولم يستطع الأوروبي الاستقرار حتى علي سواحلها إلا باكتشــاف المضــادات الحـيوية والأدوية التي تقضي علي أمراض الملاريا ومرض النوم وغيرها من الأمراض التي لا تحصي ولا تعد. ولقــد كانت هذه العوامل المناخية القاسية سبباً في هلاك عدد كبير من الأوروبيــن الذين تطوعوا لارتياد أجزاء القارة المجهولة، وزاد من ســواء الأحوال المناخية وقوف الأفارقة بعنف أمام الأوروبيين الذين

كانت أول محاولات احتكاكهم بالأفارقة العمل علي استرقاقهم، والقبض عليهم للبيع في أسواق الرقيق.

خامساً: سياسة الأوروبيين نحو القارة في القرن السادس عشر لم تكن موجهة إلى كشف باطن القارة أو داخلها، بل اعتبرها الأوروبيون مجـــرد محطة في الطريق المؤدي إلى الشرق، ولذا كانت استراتيجية الدول الأوربية إقامة المحطات فقط على السواحل دون التطلع لارتياد المناطق الداخلية، وظلت الأحوال على هذه الوتيرة حتى القرن التاسع عشر وبداية المحاولات الأوروبية لاكتشاف ثروات القارة وداخلها بعد أن صارت تجارة الرقيق سلعة يندى لها جبين الجنس البشري. فبدأت عمليات الكشف للداخل وإعادة توطين الأفارقة في القارة تمهيداً لعملية السيطرة على القارة ومواردها البشرية والطبيعية.

سادساً: سواحل القارة الأفريقية عرقلت محاولات التوغل للداخل لأنه بالإضافة إلى قلتها ووعورة بعض مناطقها بسبب ارتفاع الهضاب والجبال فإن كل ساحل من القارة كانت له طبيعة خاصة عرقلت توغل الأوروبيـــن مـــنه، فمـــثلاً إذا نظرنا إلى الساحل الشمالي وهو أقرب الســـواحل إلـــى أوروبـــا نجـــد أن هذا الساحل كان مهداً لسلسلة من الحضارات البابلية والأشورية والفينيقية، والحضارة المصرية القديمة، وحضـــارة قـــرطاجة والحضارة الإسلامية التي امتدت على طول هذا الساحل. وإذا كانت هذه الحضارة لم تستطع التعمق في أفريقيا جنوب الصـــحراء بســـبب العوامل الطبيعية إلا أنها وقفت سداً أمام محاولات الأوروبيين للتوغل داخل القارة.

وإذا نظرنا إلى الساحل الغربي نجد أن هذا الساحل لم يسهل من مهمـــة الأوروبيين للتوغل إلى داخل القارة بسبب قلة موانيه الطبيعية،

وعـــدم جدوى الجزر فيه وانحدار الأنهار بشدة نحو الساحل، وانتشار الأمراض الفتاكة بسبب الرطوبة الشديدة، كما أن الساحل الأفريقي في هذه الجزر ينتهي إما بمناطق صحراوية أو شبه صحراوية أو غابات كثيفة صعبة الاجتياز والاختراق.

ولا يختلف الساحل الشرقي كثيراً عن الساحل الغربي، بل إن هذا الساحل يزداد بعداً عن أوروبا، وأنهاره أيضاً عديمة الفائدة في التوغل للداخل بسبب الشلالات التي تعترض مجرى نهر الزمبيزي. ورغم أن هـــذا الســـاحل أقل أمراضاً عن الساحل الغربي ويتمتع ببعض الجزر والموانئ الطبيعية إلا أنه لم يلعب الدور الهام في كشف أعماق القارة. وزاد مـــن صعوبة اجتياز هذا الساحل الشرقي أن دولة المماليك كانت تـــتحكم فـــي البحر الأحمر وفي طريق الملاحة بين الشرق وأوروبا ومنعت السفن الأوربية من اجتياز البحر الأحمر.

الدوافع الأوربية لاستعمار أفريقيا:

وبما أن استعمار الدول الأوربية للقارة الأفريقية قد مّر بمرحلتين، فلقـــد كـــان لكل مرحلة دوافعها الخاصة، فبينما كانت دوافع المرحلة الأولـــي وثيقة الصلة بالكشوف الجغرافية، كانت دوافع المرحلة الثانية وثـــيقة الصلة بالتطور الاقتصادي الذي حدث لأوربا في القرن التاسع عشر، ولعل أهم الدوافع في المرحلتين هو ما يلي:

١ــ الدافع الديني:

انـــتهى الصراع بين العرب والإمارات المسيحية في شبه جزيرة إيبيريا بخروج العرب نهائياً في عام ١٤٩٢ فأصبحت الأندلس بحق ــ كمـــا عبر عنها بعض الكتاب العرب (فردوس العرب المفقود) ــ لكن

البرتغال استطاعت أن تتخلص من الوجود العربي وأن تقيم مملكة مستقلة قبل الأسبان بما يقرب من قرنين .

وحمل البرتغال لواء حركة دينية جديدة يعتبرها بعض المؤرخين امتداداً للحركة الصليبية وذلك بهدف تعقب القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحي ـ الذي ذاع صيته في أوربا، وإن كانت بلاده لم تكن معروفة على وجه الدقة للاشتراك في معركة تطويق الدول الإسلامية ودولة المماليك بالذات والقضاء على مصر وقوتها التي تتمثل في احتكار تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة.

ولاشك في أن الحملات التي قام بها الأمير هنري الذي اشتهر باسم هنري الملاح (Henry the Navigator) ورحلات غيره من الرحالة البرتغال كانت كلها تهدف إلى توجيه ضربة قوية للقوى العربية بالقضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق، وبذا تستنزف هذه الثروة التي كانت تتدفق عليهم وتضعف قدرتهم العسكرية بالتالي.

والدليل على الدافع الديني وراء الحركات الاستعمارية في ذلك الوقت أن البابوية باركت هذه الحركة وبادرت بالتدخل لفض النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال وأسبانيا.

وقد أدركت القوي الإسلامية الهدف من وراء هذا النشاط الاستعماري ولذا تصدت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغال ونشاطهم في البحار الشرقية ـ لكن هزمت الأساطيل المصرية في موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ واستأنف العثمانيون الذين ورثوا السلطة في مصر والشام والحجاز من المماليك ـ القتال.

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف اشتراك المدن الإيطالية المسيحية إلي جانب المماليك في حربهم ضد البرتغال فقد كانت أساطيل هذه المدن هي التي تقوم بنقل بضائع الشرق من مواني الشام ومصر إلي أوربا فمصلحتها الاقتصادية هي التي حتمت عليها هذا الاتجاه.

ويرتبط بالعامل الديني ـ الحركات الدينية التي شاهدتها أوربا أثر النهضة الأوربية فقد أدت حركة الإصلاح الديني والدعوة لتخليص المسيحية من الشوائب التي ارتبطت بالكنيسة ورجال الدين في العصور السالفة ـ إلي تحطيم الوحدة الدينية لأوربا، وظهرت مذاهب دينية كالبروتستانتيه، وقامت نتيجة لذلك مذابح دينية وحروب في أوربا أدت لهجرة الكثيرين من بلادهم ـ لكن لم تلبث موجه الصراع والنشاط الديني أن اتجهت إلي ناحية التبشير بالمسيحية بين القبائل في المناطق التي كانت تسود فيها الوثنية في المستعمرات الجديدة.

واتجه نشاط الجمعيات التبشيرية بصفة خاصة إلي أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية التي بدأت تلقي الأضواء علي داخل القارة فكان المبشرون يسيرون عادة في ركاب المستكشفين، وإن كانت بعض البعثات التبشيرية قد سبقت أحياناً في كشف النقاب عن مناطق لم تكن معروفة للأوربيين.

ونذكر في هذا المجال جهود لفنجستون (Livingstone) فقد انضم في عام ١٨٣٨إلي جمعية لندن التبشيرية، وقد دفعت رحلات لفنجستون ببعثات دينية أخرى من بريطانيا وإسكتلندا.

وفي شرق أفريقيا كان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية نشاطها الملحوظ، ونذكر بالذات في هذا المجال جهود الأب سابيتو (Sapeto) وهو من أشهر رجال التبشير الإيطاليين، وقد دخل فيما بعد في خدمة

شركة روباتينو الإيطالية للملاحة وهي الشركة التي لعبت الدور الأول في الاستعمار الإيطالي في شرق القارة.

علي أن الجمعيات التبشيرية التي بدأت نشاطها بالعمل علي نشر المسـيحية والحضـارة بين الأفارقة انغمست في ميدان الاستعمار فقد أصـبح الهدف الديني يتخذ وسيلة لتبرير الاستعمار فكان كثيرون من رجـال الديـن دعاة الاستعمار، واشتهرت منهم أسماء متعددة في هذا المجال نذكر منهم علي سبيل المثال الكاردينال الفرنسـي لافيجيري (Lavigerie).

وقـد كـثر فـي كتابات هؤلاء وأقوالهم الحديث عن النظريات الإنسانية والأبوية ودور الرجل الأبيض الذي عبر عنه بالأب الأبيض (White Father) أو الأخ الأكـبر (Elder Brother) ــ لكن أثبتت الأيـام أن الأمر لا يخرج عن كونه قناعاً يغطي به الاستعمار وجهه القبـيح. وفـي كثر من الأحيان حدث أن انعكست النظرية المعروفة فكانت البعثات التبشيرية ممهدة للاستعمار وليس العكس.

لكن من الإنصاف أيضاً أن نذكر لهذه البعثات التبشيرية جهودها في مجال التعليم ومجال العلاج بالذات.

٣ــ الرق:

كـان الهـدف مـن حركة الكشوف الأولي الوصول إلي الشرق بغرض الحصول علي بضائع الشرق المطلوبة في أوربا، ولذا اهتمت الـبرتغال التـي بدأت صفحة الاستعمار الأوربي في العصر الحديث بإنشـاء مراكـز تجاريـة أو حصون عسكرية علي الساحل الغربي لأفريقـيا أو بالقرب منه حتى أطلق علي الاستعمار البرتغالي في ذلك الوقـت تعبير (استعمار البهار) إشارة للهدف منه ــ لكن الأمر تحول

بســرعة فأصبحت السلعة المتداولة هي (العاج الأسود) بالإضافة إلي بضائع أفريقية أخري كالذهب والصمغ والعاج.

ورغــم أن الــبداية التــي افتتحت بها البرتغال صفحة الرق في العصــر الحديــث تبدو في مظهرها إنسانية متصلة بالدافع الديني إذ ادعــت الــبرتغال أن هدفهــا هو إبعاد الأفارقة الوثنيين عن أجوائهم لتلقينهم مبادئ المسيحية ليعودوا إلي بلادهم ليكونوا رسلاً لنشرها ــ فلا شــك فــي أن هذا لا ينفي أن البرتغال هم مؤسسو مدرسة الرق بكل مســاوئه فــي العصــر الحديث فقد تطور الأمر حتى أصبح الساحل الغربي لأفريقيا مورداً هاماً للأيدي العاملة التي احتاجها الغرب لتعمير العالم الجديد.

وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال هي التي تحتكر تجــارة الرقــيق وتقــوم بتمويل أملاكها والأملاك الأسبانية وغيرها بحاجتها من الرقيق الأفريقي وكانت في لشبونة سوق كبيرة للرقيق تمد العالم الجديد بحاجته منهم.

ولما ازدادت الحاجة للرقيق الأفريقي ــ اتجه البرتغاليون لتسليح أتــباعهم ممــن أطلق عليهم لفظ (الجلابة) بالأسلحة النارية لمضاعفة قدرتهم علي القنص فقد كان البرتغال يفضلون عدم المخاطرة بأنفسهم بالــتوغل للداخل طالما أنهم يستطيعون عن طريق أتباعهم المسلحين الحصول علي حاجتهم من الرقيق وهم مطمئنون في مراكزهم الساحلية ولذا أطلق بعض المؤرخين علي القرن السادس عشر في أفريقيا تعبير (عصر البنادق) فقد انتشر استخدامها في القارة بعد أن كانت الأسلحة البدائــية كالرمح والسهام هي الأسلحة التي عرفها الأفريقي قبل ذلك. وهكــذا أصــبح الرقــيق أغلي سلعة اكتشفتها القوي الاستعمارية في أفريقيا.

ومــع ذلك لم تستطع الجهود التي بذلتها البرتغال أن تسد طلبات الـدول الأوروبـية الأخـرى المـتزايدة للرقـيق فدخل الهولنديون والفرنســيون والإنجليز والدانمارك وغيرهم من الأوربيين هذا الميدان إلــي جانب البرتغال ليسدوا الطلبات المتزايدة للرقيق اللازمين للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا.

واتجهت هذه الدول لبسط سيطرتها علي مناطق معينة من الساحل الأفريقــي أو في الداخل لتضمن حصولها علي حاجاتها من الرقيق ـــ وتشــكلت شركات خاصة لنقل الرقيق الأفريقي وما يرتبط بهذا العمل من نشاطات أخرى.

وقــد بلغت أرباح هذه التجارة تجارة الرقيق ـــ حداً خيالياً فمثلاً كانت سفن الرقيق البريطانية تقوم في الجولة الواحدة برحلة مثلثة فتنقل الفــائض مــن المصــنوعات الإنجليزية لغرب أفريقيا حيث تستبدلها بشــحنات آدمية تعبر بها المحيط الأطلنطي فتفرغها في مناطق العمل بأمــريكا ثم تعود بالتالي لبريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغــيرها من محاصيل هذه الأقاليم، وفي كل مرحلة من هذه المراحل تحقــق بالطــبع أرباحاً طائلة وكان هذا سر الثراء الفاحش الذي بدت مظاهــرة فــي بعض المدن والموانى الأوربية " فإذا كان الهولنديون يرددون في تراثهم أن مدينتهم العظمية "امستردام" قد بنيت على عظام الرنجة التي اشتهروا بتسويقها فليس بعيداً عن الصواب أن تقول بالمثل إن لشــبونة فــي الــبرتغال وليفربول في إنجلترا قد بنيت علي عظام الرقيق الأسود وبدمائه".

وقد قدر ما وصل المستعمرات الأوربية كلها في قرن واحد من ١٦٨٠ إلــى ١٧٨٠م بحوالــي ٤٠ ملــيون أفريقي ـــ وإذا صح هذا

الـتقدير وإذا وضـعنا فـي الاعتبار أن النظام الذي أتبع في عمليات القنص والشحن والترحيل ترتب عليه أن ما كان يصل حياً لا يمثل إلا نصـف ما فقدته القارة فهذا يعني أن القارة استنزفت في قرن واحد ما يقرب من ٨٠ مليون من أبنائها.

وهـذا وقـد أطلق الأوربيون على السواحل الأفريقية بل وعلى بعـض المناطق التي بسطوا نفوذهم عليها في القارة أسماء تتطابق مع نشاطهم فيها مثل ساحل الذهب وساحل العبيد، وساحل العاج، وساحل الزنج.

هكذا ظل الرق مستمراً والقارة الأفريقية تتعرض لحملات منتظمة مـن الاسـتنزاف البشـري والحكومات الأوروبية والشركات وتجار الأسـلحة يشـجعون استمرار هذه التجارية التي ثبت أنها أكبر أنواع التجارة ربحاً.

لكـن مـع أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بدأت ترتفع الصيحات مطالبة بوضع حد لهذه التجارة البشعة، وظهرت حركات تعارض الرق والاتجار فيه، كما إنبرى عدد من رجال الدين ومـن الجماعـات التي عرفت باسم أنصار الإنسانية تحاول أن تدفع الحكومات والبرلمانات لسن القوانين باعتبار هذه التجارة محرمة.

ولقيـت هـذه الحـركات معارضة من العديد من المنتفعين بهذه التجارة فقد وصل الحد مثلاً إلى أن اللورد دارموت (Darmot) وزير المسـتعمرات البريطانـية يـرد على الداعين لوضع حد لهذه التجـرة بقولـــه: "إننا لا نسمح بأي حال بعرقلة هذا النشاط التجاري الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا".

وبعدن في الحركة الداعية لوضع حد لهذه التجارة أشخاص من أمثال وليم ويلبرفورس (William Wilberforce) عضو البرلمان الإنجليزي.

وقد توجت جهود هؤلاء بصدور القوانين بمنع هذه التجارة وفرض عقوبات على من يعمل بها – ولم يتم هذا الأمر في كل الدول الأوربية في وقت واحد، كما أن الأمر تدرج من تحريم الإتجار في الرقيق إلى إصدار القوانين بتحرير العبيد السابقين.

على أن ترتب على هذه الحركة تحرير عدد كبير من الرقيق الموجودين خارج القارة في إنجلترا وأمريكا وغيرها وأبدى بعضهم رغبته في العودة إلى القارة الأم التي سبق أن عاش فيها آباؤهم وأجدادهم – وأدى هذا لتأسيس شركات تعمل لإعادة توطين هؤلاء الأفارقة في وطنهم الأصلي، كما نادى هذا لاتخاذ مناطق معينة على الساحل الأفريقي لإقامة مستوطنات لهؤلاء الأفارقة العائدين – فقامت مثلاً جمهورية ليبيريا المستقلة لتكون أرضاً للزنوج الأمريكيين وبالمثل سيراليون للزنوج البريطانيين.

على أن الدول الاستعمارية اتخذت حتى من هذه الخطوة الإنسانية ذريعة لتحقيق أطماعها الاستعمارية باسم ضمان تنفيذ قوانين تحرير الرقيق فقد تدخلت إنجلترا في شئون زنجبار بحجة التأكد من أن السفن في موانيها لا تحمل رقيقاً.

٣– دوافع استراتيجية:

جعل التطاحن بين الدول الاستعمارية لمناطق معينة في القارة مركزاً ممتازاً بالنسبة لموقعها وتحكمها في الملاحة البحرية أو غيرها،

ودفــع ذلك الدول صاحبة المصلحة للإسراع باستعمارها، فمثلاً موقع الجزائر على البحر المتوسط في مواجهة سواحل فرنسا الجنوبية كان مــن الدوافع وراء الاستعمار الفرنسي لها في عام ١٨٣٠ ويقال مثل هذا عن أماكن أخرى في شرق القارة وغربها فموقع مصر الهام على البحريــن المتوسط والأحمر والأهمية التي أصبحت لها بعد افتتاح قناة الســويس عام ١٨٦٩ كان وراء الاستعمار البريطاني لمصر وتمسك بريطانيا بالنفوذ في منطقة القناة.

لذلــك أثــر موقع المغرب الأقصى (طنجة) بالذات وتحكمها في المدخــل الغربــي للــبحر المتوسط في موقف الدول الاستعمارية من المغــرب، ويُقــال مــثل ذلك على منطقة رأس الرجاء الصالح (كيب تــاون) وأهميــتها في الملاحة بين غرب القارة وشرقها، كذلك منطقة بــاب المندب والمناطق التي تقع خلفها على الساحل الأفريقي الشرقي ومــا نطلق عليه اليوم (منطقة القرن الأفريقي) كان ولا يزال موقعها سبباً في الصراع الاستعماري عليها.

٤ـــ عوامل متصلة بالدول الأوربية ذاتها وحالتها الداخلية:

كانت الأوضاع الداخلية في بعض الدول الأوربية من الدوافع التي دفعتها لتخرج لميدان الاستعمار، نذكر على سبيل المثال: أن حالة القلــق الداخلي التي كان يعاني منها الشعب الفرنسي منذ عام ١٨١٥ جعلــت الحكومــة تفكــر فــي تحويــل نظــر الشعب عن المشاغل والاهتمامات الداخلية ـــ فالشعب الفرنسي كان لا يزال في حالة السكر بمجــد العظمــة الإمــبراطورية وكــان ذلك من الأسباب التي دفعت الحكومة الفرنسية للتفكير في غزو الجزائر، وقد صرح رئيس الوزراء بوليــناك (Poliynac) في مجلس الوزراء عند مناقشة موضوع حملة

الجزائـــر بـــأن هـــذه الحملة سيجعل أنظار الشعب الفرنسي تتجه إلى الخـــارج، وأن النصــر فـــي هذه الحملة سيساعد على تقوية الملكية، وسيكون فيه الرد العملي على الذين اتهموا الملكية منذ عودتها في عام ١٨١٥ باتباع سياسة السلم والاستسلام.

٥ــ العوامل النفسية وراء الاستعمار الأوربي الحديث:

الـــدول كالأفـــراد يتحكم فيها ما يتحكم في الأفراد من ظاهرات نفســـية كشـــهوة الامتلاك، وحب العظمة والظهور والمباهاة والغيرة، ومحاكـــاة الغـــير ــ وأدى هذا للتنافس الشديد بين أبناء أوربا ودولها وحكوماتها.

وكـــان أفريقـــيا القارة المكتشفة حديثاً المجال الفسيح للتنفيس عن هـــذه الصراعات النفسية كالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثورات الداخلـــية والضـــغوط من الأفراد والجماعات على الحكومات لمجاراة الـــدول الأخـــرى فـــي مـــيدان الاستعمار، كل هذا كان وراء خروج الأوربيين للاستعمار.

وقـــد كـــان الكـــتاب الإنجلـــيز في القرن الماضي يتحدثون عن إمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس ويتضح ذلك أيضاً في ضغط الرأي العام الألماني على الزعيم الألماني بسمارك ليخرج بألمانيا إلى ميدان الاستعمار أسوة بإنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية.

٦ــ الثورة الصناعية في أوربا:

أوجـــدت الـــثورة الصناعية في أوربا حوافز جديدة دفعت عجلة الاســـتعمار الأوربـــي ــ فهذه الثورة أدت للإنتاج الكمي الذي يترتب علـــيه التخفيض في تكلفة الإنتاج، وذلك بدلاً من الإنتاج لسد الحاجات

الضـــرورية للمواطنين فحسب، فأصبحت الحاجة ماسة للمواد الخام ثم لأسواق لتصريف الفائض من الإنتاج.

ووجـــدت الـــدول الصناعية في أفريقيا مجالاً طيباً حيث تتوافر المـــواد الخـــام الزراعـــية والمعدنـــية بالإضافة إلى السوق الواسعة لتصـــريف الفـــائض من منتجاتها من الإنتاج وذلك بعكس الوضع في أوربا.

وقـــد برز هذا العامل الاقتصادي كدافع هام وراء الاستعمار حين انتقلـــت مقالـــيد الأمور في الدول الكبرى الصناعية إلى طبقة التجار والرأســـماليين وأصـــبحت الأغـــراض التجارية والصناعية والعالمية بـــالذات تتحكم في سياسات هذه الدول وسعت الرأسمالية الأوربية إلى البحـــث عن مجالات أخرى لاستثمار رؤوس أموالها ـــ وكان المجال أمامها واسعاً في القارة الأفريقية بالذات.

وترتـــب علـــى هذا تأسيس الشركات التجارية الكبرى التي ذاع صيتها في ميدان الاستعمار في أفريقيا، فقد اكتشفت هذه الشركات في أفريقـــيا مستودعاً كبيراً للمواد الخام من منتجات الكساء الخضري إلى الـــثروة المعدنـــية فاندفعت لاستنزاف موارد القارة حتى كادت تنضب مواردها النباتية والحيوانية والمعدنية، فقد كان قانون المستعمرين هو امتصـــاص زبـــد الإقليم، وأصبح أفضل تشبيه للاستعمار بأنه مضخة ماصة في المستعمرات كابسة في الدول الاستعمارية.

وكانـــت المســـتعمرات في نظر الدول الاستعمارية لا تخرج عن كونها مصدراً للمواد الخام وللعمال ذوى الأجور الرخيصة، بالإضافة إلـــى أنهـــا مســـتودع للفائض من المصنوعات غير الجيدة التي تباع بأسعار عالية، وأصبح الأوربيون ينادون " بأن العقل الأبيض والعضل

الأسـود يجـب أن يـتعاونا لخير الطرفين ". وتاريخ هذه الشركات الأوربية الاستعمارية ودورها في القارة الأفريقية جدير بالدراسة، فقد اندفعـت هذه الشركات لاستغلال القارة مستندة على ما أمدها به العلم مـن وسـائل وإمكانيات فأصبحت المواصلات ميسرة، كما أخضعت أمـراض المناطق الحارة لسلطان العلم والطب وأصبح الوصول إلى داخل القارة ممكنا ومأموناً إلى حد كبير.

وكانـت الشـركات كثيراً ما تبدأ العمل في القارة ثم لا تلبث أن تـترك المجـال للحكومات متذرعة بسبب أو آخر، والأمثلة على ذلك كثـيرة، فالاسـتعمار البلجيكي للكنغو كانت بدايته الشركة التي أسسها الملـك لـيوبولو الثاني (Leobold II) ملك بلجيكا برأس مال مليون فـرنك لاسـتغلال الكـنغو، كذلك فإن الشركات الاستعمارية الألمانية كشـركة كارل بيترز (K.Peters) التي بدأت نشاطها في شرق أفريقيا فـي عام ١٨٨٤ مهدت للاستعمار الألماني لهذه الجهات، وفي جنوب أفريقـيا كانت شركة سيسيل جون ردوس (Cecil. J. Rhodes) التي عرفـت باسـم شركة جنوب لأفريقيا البريطانية والتي صدر مرسوم بتأسيسـها فـي عام ١٨٨٩ بدعوى استغلال مناجم الذهب في جنوب أفريقـيا وروديسـيا والمـناطق المحيطة بها. الأساس الذي قام عليه الاستعمار البريطاني في هذه الجهات، وكانت شركة روباتينو الإيطالية (Robbatinio) ممهـدة للاستعمار الإيطالي لميناء عصب ولمستعمرة إريتريا.

ولكي تحقق الدول الاستعمارية أهدافها رسمت سياستها على أسس هي:

١- الــتحكم فــي أســعار المواد الخام بالمستعمرات بحيث تصل لأماكن التصنيع في الدول الكبرى بأقل سعر ممكن.

٢- أن تبقى المستعمرة دائماً بلاداً غير صناعية.

٣- ألا يكتسب أبناء المستعمرة الخبرة الفنية والمعرفة التي تعينهم على تنمية صناعاتهم المحلية.

٤- العمــل علــى أن تكون الأيدي العاملة الوطنية دائماً متوفرة وعلى استعداد لتلبية طلبات الدولة المستعمرة.

٥- الاحــتفاظ بمســتوى أجــور العمال الوطنيين المنخفضة في المستعمرات.

٦- وضــع قــيود علــى المستعمرات بحيث لا تتجر مع الدول الأخرى.

وهذا يفسر لنا السبب في أن الدول الأفريقية حين استقلت وجدت نفسها عاجزة عن استغلال مواردها الطبيعية، فقد كانت بحاجة للخبرة الفنــية والتدريــب وإلى غير ذلك من المقومات الأساسية لقيام ونجاح الصناعات الوطنية وهو ما حرص الاستعمار على عدم إتاحة الفرصة لأبناء المستعمرات لاكتسابه.

٧ــ تكوين المستعمرات السكنية كدافع للاستعمار:

تذرعــت بعــض الــدول الأوربية الكبرى كفرنسا وألمانيا بأن الاســتعمار ضــرورة فرضتها ظروفها لتكون المستعمرات كمصرف للزائد من سكانها الذين ضاقت بهم رقعة بلادهم.

فالكــتاب الفرنســيون والألمــان أخذوا يتحدثون عن نوعين من المستعمرات:

أ ــ مستعمرات سكنية بغرض الإقامة الدائمة بها.

ب ــ مستعمرات استغلالية للأغراض الاستغلالية التجارية.

وقد دفعت بعض النظم الاجتماعية الجديدة في المجتمع الصناعي الأوربي بالإضافة إلى الصراعات السياسية والدينية في أوربا بالبعض إلى الهجرة من أوطانهم.

وقــد وجدت بعض الدول الأوربية أنه لكي لا تفقد زهرة شبابها الذين كانوا يهاجرون للخارج ويقطعون صلاتهم بأوطانهم أن تحل هذه المشــكلة بأن توجد مستعمرات سكنية ترتبط بالوطن الأم يهاجر إليها أمثال هؤلاء الشبان وبذلك تبقى صلتهم بالوطن الأم مستمرة.

ولكــن ثبت أن ادعاءات هذه الدول بحاجتها الماسة للمستعمرات الســكنية ليســت صــحيحة بدليل أن هذه الدول لم تجد من أبنائها من يرغب بمحض إرادته في أن يهاجر واضطرت الحكومات إلى إرسال المجرميــن والمحكــوم علــيهم فــي قضايا جنائية وغيرهم من غير المرغوب فيهم.

هذا على أن النهضة الصناعية الأوربية امتصت في الحقيقة معظم الأيدي العاملة في هذه البلاد.

٨ــ دوافع ظاهرية تذرعت بها الدول المستعمرة:

أدعــى بعض الكتاب السياسيين الفرنسيين وغيرهم بأن دولهم لها رســالة فــي نشــر المدنــية فــي الجهات غير المتحضرة من القارة الأفريقــية، فقد كان رودس مثلاً يردد القول بأن خير الإنسانية يتحقق بأن يمد الجيش الأنجلوسكوني نفوذه على أكبر مساحة ممكنة.

لكــن ظهــر أيضــاً من الكتاب الأوربيين أنفسهم من وجد لديه الشجاعة الكافية ليسخر من هذا الإدعاء، ففي عام ١٨٨٥ كتب بعض

الكتاب الفرنسيين مقالات يسخرون فيها من سياسة بلادهم الاستعمارية ومن ادعاءات رجال السياسة عن المهمة الإنسانية التي تقوم بها فرنسا فـي أفريقـيا وذكروا أن مهمة فرنسا في بلد كالجزائر انحصرت في تعليم العرب هناك شرب الخمور الرديئة وطائفة أخرى من الرذائل لم يكونوا يعرفونها.

على أن رجال السياسة الاستعماريين أنفسهم لم يجدوا بعد ذلك ما يدعوهـم لأن يسدلوا على أعمالهم الاستعمارية هذا الستار الإنساني، فمـثلاً نجـد لوجـارد (Lugard) وهو من الاستعماريين البريطانيين يصـرح سـنة ١٨٩٣ بأن الاستعمار الإنجليزي في أفريقيا تدعو له مصـالح إنجلـترا الحيوية الخاصة بمواجهة الزيادة في منتجاتها، ففي أفريقـيا مجال طيب لتوزيع الفائض من هذه المنتجات ولتنمية التجارة الإنجليزية.

وبالمـثل ففـي فرنسا نجد الكاتب الفرنسي (Darcy) يذكر سنة ١٩٠٤ أن توسع الدولة خارج حدودها أصبح شرطاً أساسياً لقيام ودوام هـذه الدولة، ففي عصرنا هذا من لا يتقدم ويسبق يتأخر، ومن يتأخر لابد أن يغرقه الطوفان.

وفي عام ١٩٢٣ صرح وزير المستعمرات الفرنسي الجديد ألبرت سـرو (Albert Sarrau) بـأن الاستعمار لم يكن إلا عملاً من أعمال القوة دعت إليه المنافسة المتزايدة بين الأفراد والجماعات ــ وهكذا لم تصـبح هـناك ضـرورة للبحث عن أعذار شكلية تتذرع بها الدول الاستعمارية لتبرر عملياتها الاستعمارية.

الكشف الجغرافي لأنهار أفريقيا:

بــدأت الكشوف الجغرافية لأفريقيا بالمرحلة الجزرية والساحلية التــي برز فيها نشاط البرتغال خلال القرن الخامس عشر، وسوف يتم تــناول هذا الموضوع في الفصل الثالث " الاستعمار البرتغالي"، ولذا فسوف يقتصر الحديث هنا عن الجهود التي بذلت لكشف أسرار أنهار أفريقــيا الكبرى ــ النيل، الزمبيزي، النيجر، الكونغو ــ خلال القرن التســع عشر، تلك الأسرار التي فتحت الباب على مصراعيه للتنافس بين الدول الأوربية، ومن ثم التوغل داخل القارة لاستعمار ما تبقى من المــرحلة الأولى، خاصة بعد مؤتمر برلين ١٨٨٥/٨٤م، والذي اتفقت فــيه الــدول الأوربــية على اقتسام القارة الأفريقية فيما بينهم بطريقة سلمية.

أ- مشكلة النيل وكشف منابعه

مــن أهــم مــن ســاهم في العصر الحديث في حل مشكلة النيل والكشف عن منابعه:

١ــ جيمس بروس (James Bruce):

هو اسكتلندي وصل إلى القاهرة في عام ١٧٦٨ ومنها إلى قنا ثم القصــير علــى البحر الأحمر ومنها عبر البحر الأحمر إلى جدة ومن جــدة أبحــر فــي البحر الأحمر إلى مصوع ومنها اتجه إلى إكسيوم عاصــمة أثيوبيا القديمة، وترك إكسيوم إلى جندار، وقد خدمته معرفته بالطــب إذ قربته من حاكم الحبشة فأعطاه حرية التجول في كل أنحاء البلاد.

وفــي صيف ١٧٧٠ زار النيل الأزرق وتتبع مجراه من مخرجه مــن بحــيرة تانا إلى ملتقى النيلين، ثم سار إلى بلاد النوبة ومنها إلى بلاده.

وقـــد نشر رحلاته هذه في سبع مجلدات وصف فيها جميع البلاد التـــي ســـاح فيها ومبيناً بخرائط توضيحية مجرى النيل الأزرق، وقد أشاع بروس أن المنابع الحبشية هي المنابع الوحيدة للنيل.

٢ـــ البكباشي سليم قبطان:

كانـــت جمـــيع الجهـــود التي بذلت لكشف سر النيل عند منطقة المســـتنقعات والســـدود التـــي تحول دون الاتجاه إلى المناطق الواقعة جنوبها.

وحيـــن مد محمد على نفوذه إلى السودان في عام ١٨٢١ أرسل البكباشـــي سليم من رجال البحرية المصرية للكشف عن منابع النيل. فقـــام بثلاث حملات في الفترة من ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ووصل إلى قرب غندوكرو عند خط عرض ٤٢' ٤° شمال خط الاستواء.

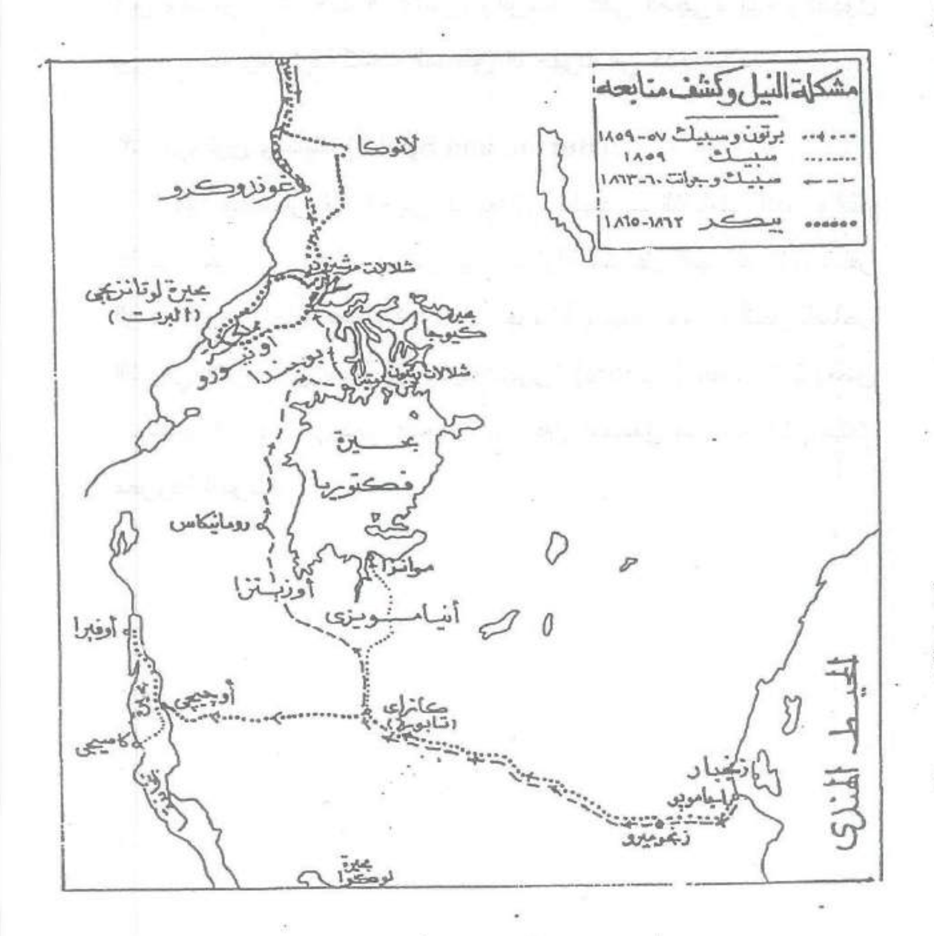
وقـــد سجل البكباشي سليم قبطان في التقارير التي كتبها عن هذه الرحلات بالإضافة إلى كتابات من رافقوه من الرحالة الأوربيين وفي مقدمتهم الرحالة الألماني فيرن (Verne) ملاحظات هامة وبيانات عن النيل الأبيض والقبائل القاطنة على ضفتيه وحاصلات هذه البلاد على أن أهمية هذه الرحلات لا تقتصر على هذه المعلومات التي نشرت عن المناطق التي زارها أو عما سمعوه من الأهالي عن المناطق الأخرى ـــ لكـــن هذه الرحلات أثارت اهتمام العالم كله بهذه الجهات، كما أنها أثبتت بالدليل القاطع أن النيل الأزرق ليس كما أشاع جيمس بروس هو الشيء الأساسي وأن هناك مجرى طويل أت من الجنوب، وهكذا فتح الـــباب مـــن جديـــد للكشـــوف التـــي انتهت بالكشف عن منابع النيل الاستوائية.

وقـد كانـت لمصر جهود أخرى في هذا المجال في عهد الخديو إسماعيل انتهت بالكشف عما أطلق عليه اسم (مديرية خط الاستواء).

هذا بالإضافة إلى أن الإدارة المصرية في السودان بما كفلته من أمن واستقرار شجعت المكتشفين والرحالة على المجيء إليه والتجول بين ربوعه ومحاولة كشف المناطق المجهولة في هذه البلاد.

٣ــ بروتون وسبيك (Burton and Speke):

هما ضابطان في الجيش البريطاني بالهند ــ التقيا في لندن واتفقا علـى القيام برحلة لشرق أفريقيا ومحاولة التوغل فيها للداخل، سافر الرحالتان في نهاية عام ١٨٥٦ إلى جزيرة زنجبار ومنها أبحر للساحل الشرقي لأفريقيا ووصلاً إلى مدينة تابورة (Tabora) حيث قابلا بعض الـتجار العـرب ومنهم علموا الكثير عن المناطق الداخلية التي كانت معروفة للعرب.


مشكلة النيل وكشف منابعه
برتون وسبيك ٥٧-١٨٥٩
سبيك ١٨٥٩
سبيك وجرانت ٦٠-١٨٦٣
بيكر ١٨٦٢-١٨٦٥
لاتوكا
غوندوكرو
شلالات مرشيزون
بحيرة لوتانزيجي
(البرت)
بحيرة كيوجا
أونيورو
بوجندا
شلالات ريبون
بحيرة
فكتوريا
رومانيكاس
موانزا
أوزنبتا
أنيامويزي
أوفيرا
أوجيجي
كازاي
(تابورة)
كاميجي
زنجبار
باجامويو
زنجوميرو
بحيرة
لوكوا
المحيط الهندي

وصـــل الرحالتان إلى بحيرة تنجانيقا وعايناها وتخلف برتون فلم يســتطيع مــتابعة الســفر بينما واصل سبك سيره للشمال فوصل في أغســطس ١٨٥٨ إلى الشاطئ الجنوبي للبحيرة التي أطلق عليها اسم فكتوريا والتي لم يخامره شك في أنها أم هذا النهر ومنبعه ــ كما ذكر.

وعـــاد سبيك لزميله ورجعا للساحل ثم إلى زنجبار ومنها أبحرا إلـــى عـــدن فإنجلترا ــ وقد أثار سبيك الاهتمام بما ذكره عن بحيرة فكـــتوريا وعـــن يقينه بأنها منبع النيل، بينما أكد برتون بإصراره أن بحيرة تنجانيقا التي وصلا إليها سوياً هي الأصل.

٤ــ سبيك وجرانت (Speke and Grant):

أرســلتهما الجمعــية الجغرافية البريطانية في عام ١٨٦٠ في رحلـــة أخرى لتتبع نهر النيل عند خروجه من بحيرة فكتوريا وسارا بـــازاء ســـاحلها الغربي ومكثا في بلاد ملك أوغندا وطافا حول ساحل البحيرة الشمالي وشاهد (شلالات ريبون) وسمعا عن بحيرة أخرى إلى الغرب لكنهما كانا قد وصلا إلى درجة كبيرة من الإعياء فقررا العودة فاتجها إلى الشمال حيث التقيا عند غندوكر بصمويل بيكر فأخبره سبيك بأمر هذه البحيرة التي تقع إلى الغرب فاكتشفها بيكر وأطلق عليها اسم (بحيرة البرت) وعاد سبيك وجرانت إلى الخرطوم فالقاهرة فإنجلترا.

علـــى أن بـــرتون ظل يشكك في النتيجة التي وصل إليها سبيك فـــأعدت الجمعية الجغرافية الملكية اجتماعاً حدد له ١٦ سبتمبر ليدلي كـــل مـــن بـــرتون وسبيك بأدلته وحججه على صحة رأيه فيما يتعلق بمنابع النيل ــ لكن انتهت حياة سبيك قبل هذا اللقاء الذي أطلق عليه (مبارزة النيل).

٥ــ سير صمويل بيكر (S. Baker):

بــيكر مــن أسرة إنجليزية ثرية لكنه شغف بالرحلات، جاء إلى مصــر فــي عهــد سعيد باشا وسافر إلى السودان وبمساعدة موظفي الحكومة المصرية استطاع تتبع روافد النيل الحبشية وطاف في البلاد الواقعــة على نهر العطبرة والنيلين الأزرق والأبيض ونشر مشاهداته فيما بعد.

وأرســلته الجمعية الجغرافية الملكية في عام ١٨٦٣ للبحث عن ســبيك وجرانــت وتقابل معهما قرب غندروكرو، وعرف منهما عما سمعاه عن البحيرة الواقعة إلى الغرب فوصل إليها وطاف بها وأطلق عليها اسم (بحيرة ألبرت) وشاهد المساقط المائية التي سماها (شلالات مرشيزون).

وقد نشر بيكر أخبار رحلته في كتابه (ألبرت نيانزا).

على أن المسألة التي بقيت معلقة هي هل توجد منابع أخرى للنيل أم لا ؟

وقد استلزم الأمر القيام بجولات أخرى اسهم فيها رحالة آخرون، سنشــير لجمهودهم فيما بعد، على أن بيكر كانت له جولة أخرى قرب مــنابع النــيل الاســتوائية حين أوفدته الحكومة المصرية عام ١٨٦٩ لإخضــاع الأقاليم الواقعة جنوب غندوكرو للإدارة المصرية وتشكيل مديرية جديدة ضمت للإدارة السودانية هي (مديرية خط الاستواء).

وقــد أســهم غــير هؤلاء كثيرون من أمثال غوردون، وأدوار شنتيزر (أمين باشا) الذي أصبح حاكماً لمديرية خط الاستواء المصرية ــ في كشف النقاب عن الحقائق المتعلقة بمنابع النيل.

٢- كشف نهر الزمبيزي

يرتـبط كشــف هــذا النهر باسم الرحالة لفنجستون (David Livingstone) وهــو اسـكتلندي الأصــل، انضم إلى هيئة تبشيرية وشجعه اتصاله بالدكتور موفات (R. Moffat) الذي قضى فترة كبيرة من حياته في التبشير في جنوب أفريقيا على العمل في هذه المنطقة.



وقـد قـام لفنجسـتون بعـدة رحلات في جنوب أفريقيا ومنطقة نهر الزمبيزي.

ففي الفترة ١٨٤١ إلى ١٨٥٦:

قـام بجولـة من مدينة الرأس بجنوب أفريقيا، فتوغل في الداخل ووصـل إلـى نهـر لمبوبو واخترق صحراء كلهاري وكان يدرس المـناطق التي يمر بها، واستطاع اكتساب محبة الأهالي بالتقرب منهم وتعليمهم بعض أصول الزراعة وبعض الصناعات البسيطة.

وفي عام ١٨٤٩ اكتشف بحيرة نجامي (Ngami) الواقعة جنوب غـرب نهـر الزمبيزي، وتتبع لفنجستون نهر الزمبيزي حتى مصبه مكتشـفاً المساقط المائية التي أطلق عليها اسم (شلالات فكتوريا) وقد وصف هذه الشلالات وصفاً رائعاً، وقرب الشلالات توجد المدنية التي أطلق عليها اسم (لفنجستون).

وبعـد هـذه المـرحلة الشاقة عاد لفنجستون إلى الساحل ثم إلى إنجلترا وقد منحته جامعة إكسفورد الدكتوراه الفخرية.

وفي الفترة من ١٨٥٨ إلى ١٨٦٤:

عينته إنجلترا قنصلاً عاماً لها على الساحل الشرقي لأفريقيا فجاء إلـى مديـنة الرأسي مرة أخرى وقام بجولة في المنطقة الواقعة بين بحيرتي نياسا وتنجانيقا وعاد للساحل الأفريقي ثم أبحر للهند ومنها إلى إنجلترا.

وفي الفترة من ١٨٦٦ إلى ١٨٧٣:

قام لفنجستون بجولته الأخيرة في القارة وذلك بتكليف من الجمعية الجغرافـية الملكية في لندن التي كلفته بفض شبكة الأنهار والبحيرات

فـــي وســـط أفريقـــيا، فقد جعلت الآراء المتعددة التي ذكرها الرحالة الســـابقون الأمـــر فـــي حاجـــة إلى مَن يبت بصفة قاطعة في مسألة المســـاحات المائية كلها في أفريقيا الوسطى، كما كلف ببذل جهد ضد تجـــارة الرقيق وكان قد كتب عنها بعد رحلاته السابقة بطريقة أثارت الرأي العام العالمي ضد هذه التجارة البشعة.

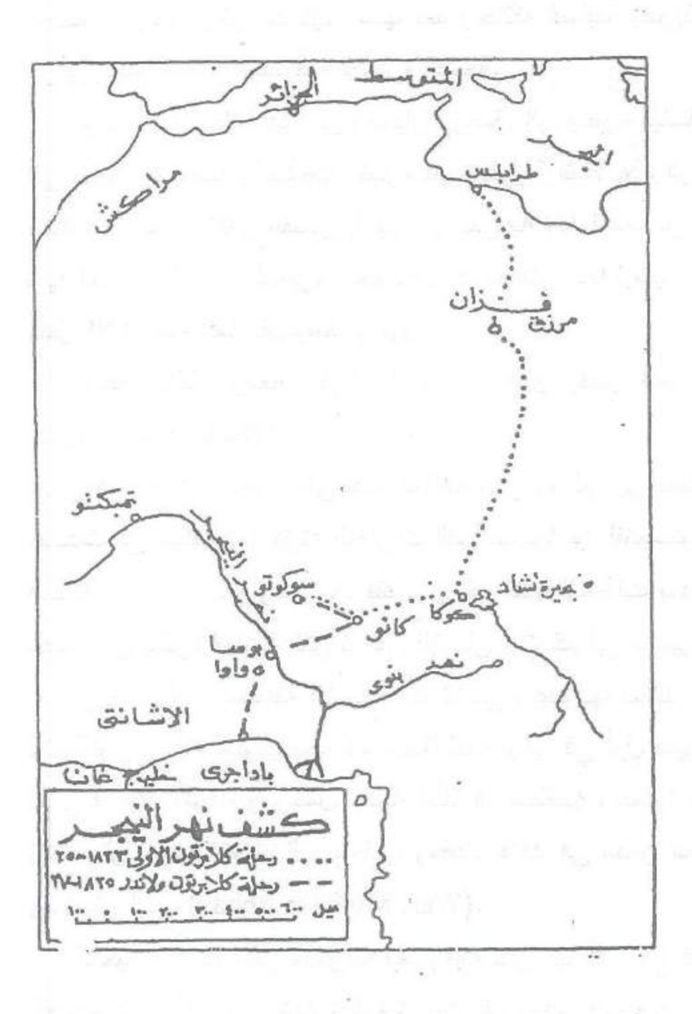
وقـــد بدأ رحلته هذه من زنجبار ووصل إلى بحيرة نياسا ثم أتجه إلى بحيرة تنجانيقا وانقطعت أخباره فترة طويلة أثناء هذه الرحلة عن العالم، فأرسل ستانلي لتقصي أخباره والتقى به وقاما معاً برحلة كشفا فيها الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا، وأكد ستانلي أنها ليست من منابع النيل الاستوائية كما كان يعتقد برتون.

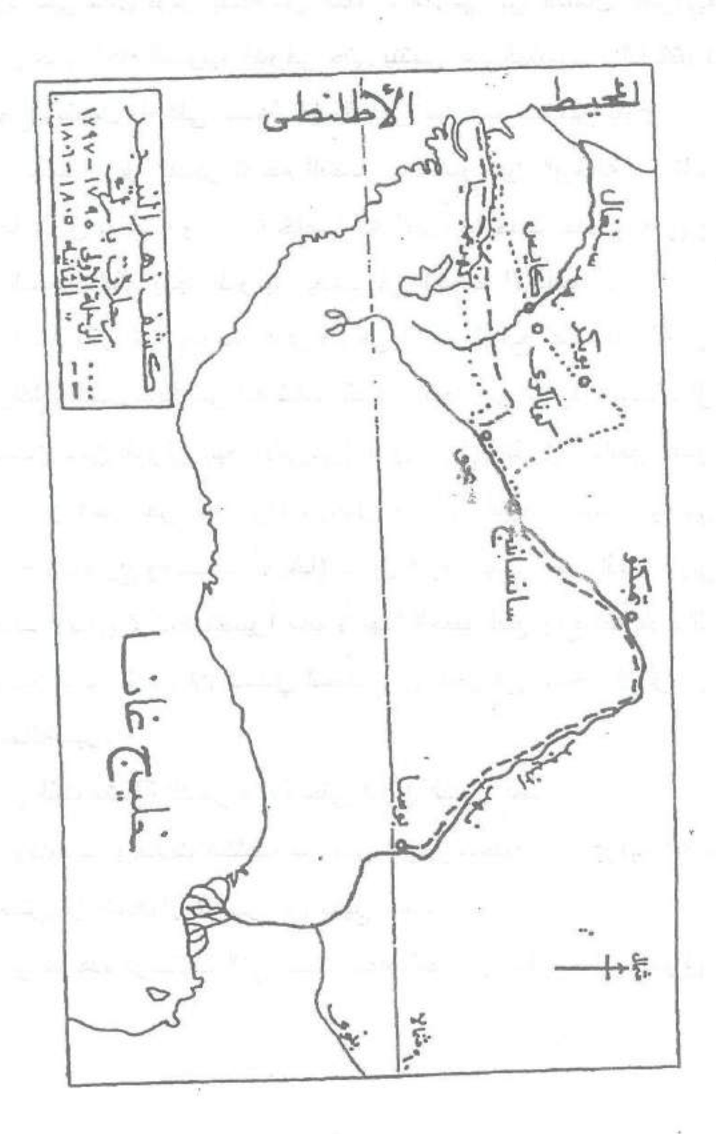
وعاد ستانلي ومعه مذكرات لفنجستون الذي رفض العودة للوطن إلا بعد إتمام استكشافاته.

وفي تعليق ستانلي على هذه المقابلة ذكر إنه لم يهز مشاعره أي حـــدث في حياته كما هزته العبارات التي سمعها من لفنجستون معبراً فـــيها عـــن آلامـــه وأمالـــه، فقد شعر في هذه اللحظات بمدى إيمان لفنجستون بالقوة العلوية التي ترعى الإنسان وتتحكم في مصيره.

وبعـــد أن وصـــلته الإمـــدادات التـــي وعده بها ستانلي استأنف لفنجستون رحلته صوب بحيرة تنجانيقا لكنه توفى في أول مايو ١٨٧٣ فـــي قـــرية تشيتامبو وحمل خدمه الأفارقة مخلفاته وحملوا جثته إلى زنجـــبار حيـــث نقلت إلى إنجلترا ودفنت هناك في مقابر العظماء في وستمنتر أبي (West Minister Abbay).

وحين نشرت باقي مذكراته بعد وفاته كان لها أثر بالغ في الرأي العام العالمي أكثر ضد تجارة الرقيق حتى أن بعض المعلقين ذكروا أن لفنجســـتون وهـــو ميـــت لم يكن أقل منه وهو حي في مقاومة تجارة الرقيق.


المتوسط
الجزائر
مراكش
طرابلس
فزان
مرزق
تمبكتو
النيجر
سوكوتو
كوكا
كانو
بحيرة تشاد
بوسا
واوا
نهر بنوى
الأشانتى
باداجرى
خليج غانا
كشف نهر النيجر
رحلة كلابرتون الأولى ١٨٢٣-٢٥
رحلة كلابرتون ولاندر ١٨٢٥-٢٧
ميل ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠


المحيط الأطلنطى
خليج غانا
شمال

٢. مشكلة النيجر

النـــيجر ثالث أنهار أفريقيا بعد النيل والكنغو وهو يمتد في غرب القارة على شكل قوس يتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ثم من جديد تجاه الجنوب الشرقي حتى ينتهي عند المنصب بدلتا كثيرة الفروع ويتصل به على مسافة غير قصيرة من المصب نهر بنوي.

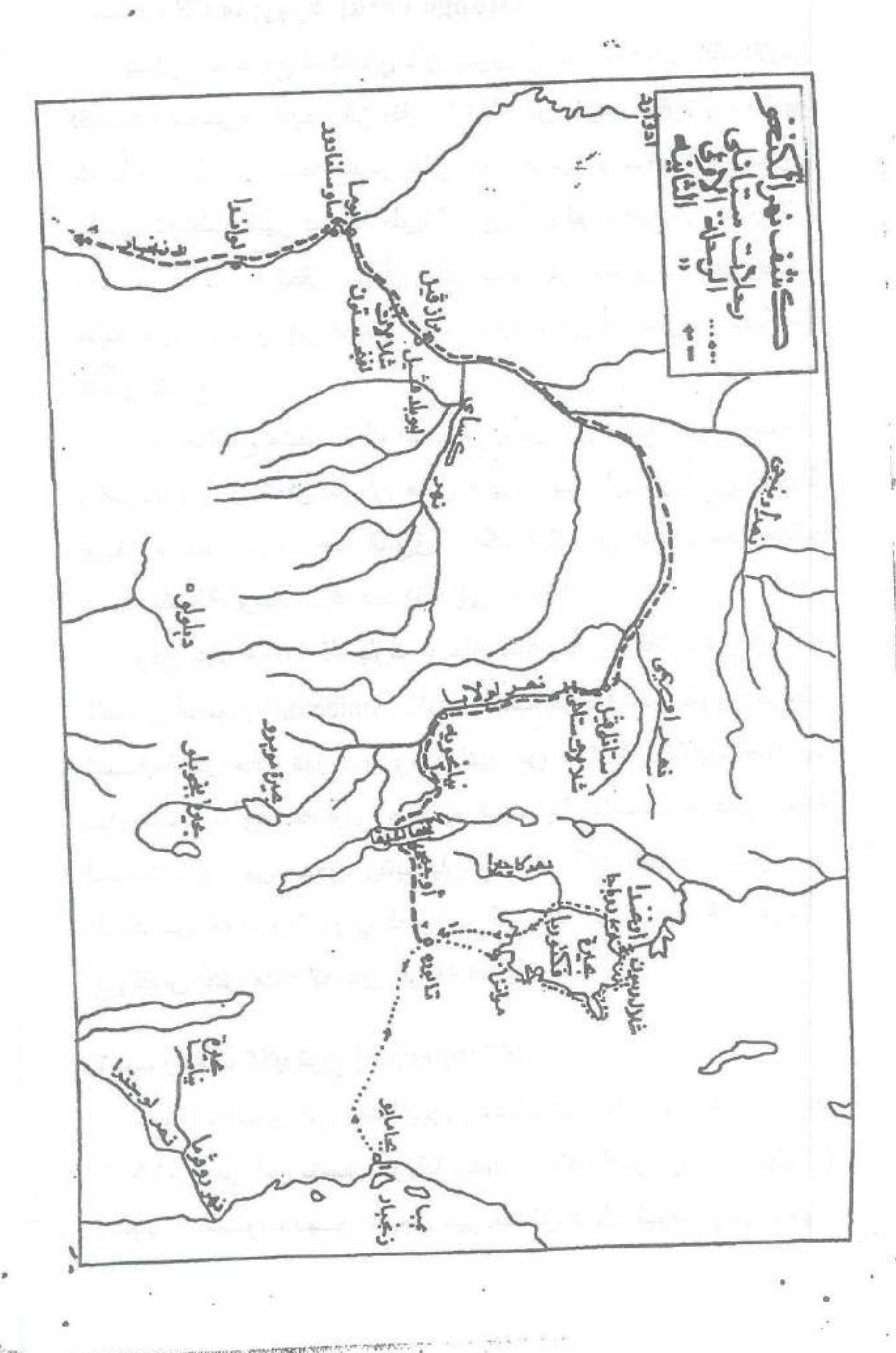
ومشكلة نهر النيجر ترجع للتضارب الكبير بين الرحالة والكتب فـــيما يتعلق بمنابعه واتجاهه خاصة أنه كثيراً ما حدث خلط بينه وبين نهر السنغال الذي يتجه للغرب ويصب في المحيط الأطلنطي.

فقـــد ذكر ابن بطوطة الذي قام في القرن الرابع عشر برحلة من مـــراكش إلـــى تمبكـــتو إنه شاهد النيجر يتجه إلى الشرق، بينما ذكر الحســـن بـــن الوزان (ليو الأفريقي) الذي قام في القرن السادس عشر برحلة من فاس عبر الصحراء ووصل إلى نهر النيجر وأبحر فيه في كـــتابه (تـــاريخ وصـــف أفريقيا) ـــ إن النيجر يسير نحو الغرب إلى المحيط، ونحن لا نجد تفسيراً مقبولاً لهذا الخطأ الذي وقع فيه الرحالة الحســـن بـــن الـــوزان الـــذي استطاع أن يبحر في النيجر لأكثر من خمسمائة ميل.

وظلت مشكلة النيجر قائمة حتى القرن الثامن عشر.

وقامـــت رحلات للكشف عن نهر النيجر بعضها من غرب القارة والبعض من شمالها والبعض من خليج غانا.

وأهم هذه الرحلات التي أكدت اتجاه النهر من الغرب إلى الشرق:


كشف نهر الكنغو
رحلات ستانلى
الرحلة الاولى
الثانية
ستانلى فيل
شلالات ستانلى
نهر اروبمي
نيانجويه
أوجيجي
تابوره
بحيرة
فكتوريا
أوغندا
زنجبار
باجامايو
نهر روفوما
بحيرة موبرو
بحيرة بنجويلو
نهر كساي
شلالات
لفنجستون
بوما
لواندا

١ــــ رحلات منجوبارك (Mungo Park):

بــارك جــراح اسكتلندي كان يهوى الرحلات، بدأ رحلته الأولى لكشــف مجــرى النيجر في يناير ١٧٩٦ من غرب القارة متتبعاً نهر غمبياً ووصل إلى مدينة سيجو على نهر النيجر، واستطاع أن يتحرك علـــى شواطئ النهر لمسافة طويلة، وإن كان لم يستطع أن يصل إلى مصـــبه ــ لكـــنه تحقق من أن النهر يسير إلى الشرق ــ وقد وصف مدينة سيجو وأشار إلى انتشار المساجد بها وإلى أن منازلها مبنية من الفخار البديع.

وقد استطاع منجو بارك أيضاً أن يصل إلى منابع نهري السنغال وغمبــياً وأن يــتحقق من أن هذين النهرين يجريان غرباً إلى المحيط بيــنما يــتجه النيجر جهة الشرق، وهكذا أثبتت أن هذه الأنهار الثلاثة ليست متصلة، وعاد بارك بعد ذلك إلى إنجلترا.

وفي عام ١٨٠٥ قام بارك برحلة ثانية وكان برفقته شقيق زوجته الكسندر أندسون (A. Anderson)، واتبعت الرحلة نفس طريق الرحلة الســابقة لكن مات أندرسون وعدد كبير من أفراد الرحلة بعد إصابتهم بالدوســنتاريا وذلــك قبل وصولهم إلى مدينة سانساندينج على مسافة ليســت كبيرة من سيجو، وتابع بارك رحلته، لكن انقطعت أخباره بعد ذلــك عن العالم ولا ندري الظروف التي فقد فيها حياته وقد أدى ذلك إلى فقدان أكثر مذكراته عن الرحلة الثانية.

٢ــــ رحلات كلابرتون (Clapperton):

هو اسكتلندي كان أيضاً يهوى المغامرات بدأ رحلته هذه في عام ١٨٢٢من طرابلس بشمال أفريقيا وكان برفقته دكتور أودني(Oudney) واتجهــا صــوب نهــر النيجر عبر مناطق قبائل الهوسا وكان معهما

كمرشـــد تاجر عربي من فزان، ووصلا إلى (كوكا) غرباً إلى (غانا)، وقد توفى في الطريق.

وقد وصف لنا كلابرتون سوق كانو الشهير في ذلك الوقت.

وواصل كلابرتون سيره إلى سوكوتو لكن لم يسمح حاكمها لــــه بالاســـتمرار فـــي الســـير حـــتى النيجر فعاد إلى طرابلس ومنها إلى إنجلترا.

وقـــام كلابـــرتون في عام ١٨٢٥ برحلة ثانية بتكليف من وزارة المســـتعمرات البريطانية ورافقه في هذه الرحلة لاندر (Lander) لعقد معـــاهدة مع سلطان سكوكوتو، وقد بدأت رحلتهما هذه المرة من خليج غانـــا قـــرب لاجوس الحالية وتابعا رحلتهما شمالاً، ووصلا فعلاً إلى ســـوكوتو، وقد مرض كلابرتون بها وتوفى، كما أن سلطان سوكوتو كـــان في حرب مع [illegible] فلم يكن مستعداً للتفكير في عقد معاهدات خارجية فعاد لاندر لإنجلترا حاملاً معه يوميات كلابرتون، كما عكف هـــو علـــى كـــتابة بعـــض ملاحظاته ومشاهداته طبعت مع مذكرات كلابرتون.

٣ــ رحلة لاندر الثانية:

قـــام لانـــدر برحلة أخرى في عامي ١٨٣٠ ، ١٨٣١ من نفس الطريق السابق وفي طريق العودة تتبع مجرى النيجر حتى مصبه في خليج غانا وأبحر إلى جزيرة فرناندوبو في خليج غانا ومنها غرباً إلى البرازيل ثم لإنجلترا.

وهكذا أثبتت هذه الرحلات أن النيجر يتجه للشرق كما أنها فتحت الـــباب للشركات التجارية والمستعمرين والمغامرين الأوربيين للولوج من الساحل الغربي للقارة إلى داخلها.

وقد قامت إنجلترا بعد أن وضعت أيديها على نيجيريا بعمل مسح علمــي كــامل لدلتا النيجر وكشف النقاب عن كل ما يتعلق بهذا النهر والأنهار المتصلة به.

٤- كشف نهر الكنغو

كــان نهــر الكونغــو آخر الأنهار الأفريقية التي كشفت منبعها ومجاريهــا، ويرتــبط اكتشاف وتتبع مجراه باسم ستانلي (Stanley) وكان لكشف هذه النهر وما كتبه عن الثروة التي يعج بها حوضه أثار بالغة وخطيرة في تاريخ أفريقيا الحديث ،فقد أدت كما سنرى، للصراع الاستعماري على القارة كلها.

وكــان البرتغالــي ديجوكــام (Diogo Cam) قد وصل في عام ١٤٨٥ إلــى مصــب نهــر الكنغو لكنه لم يستطع التوغل فيه لمسافة كبيرة.

وســتانلي من أصل أيرلندي وكان جندياً وملاحاً، وأصبح صحفياً يعمل لحساب صحيفة النيويورك هيرالد الأمريكية، وقد ذاع صيته بعد الــرحلة التــي قــام بها في عام ١٨٦٩ للبحث عن لفنجستون ــ وقد وصفه برتون ــ بأنه مغامر مرتزق.

وفــي عــام ١٨٧٤ كلفته الجمعية الجغرافية الملكية بلندن بالقيام برحلة لتحقيق **ثلاثة أغراض هي:**

١- الطــواف ببحيرة فكتوريا للتأكد من أنها المنبع الرئيسي للنيل فــي الجنوب، وأن المجرى المنبثق منها عند شلالات ريبون هو المخرج الوحيد لها.

٢- الطــواف ببحــيرة تنجانيقا للتأكد من أنها غير متصلة بمنابع النيل الاستوائية.

٣- الوصول إلى نهر اللوالابا (Lualaba) وتتبعه لمعرفة إذا كان متصلاً بالنيل أم بالكنغو والوصول لمصب الكونغو.

وبذا تعرف حقيقة المجاري المائية في وسط القارة.

وبعد أن جمع ستانلي المعدات اللازمة واطلع على ما كتبه الرحالة والمستكشفون السابقون عن أفريقيا بدأ رحلته.

فغادر إنجلترا في ١٨٧٤ إلى زنجبار وبدأ رحلته للداخل فوصل إلى الشاطئ الجنوبي لبحيرة فكتوريا وجمع أجزاء قاربه وأبحر بمحاذاة الساحل الشرقي للبحيرة ووصل قرب شلالات ريون وشاهد المياه تتدفع للشمال فيما اطلق عليه اسم (نيل فكتوريا)، ودخل مملكة أوغندا وزار ملكها، وطاف ببحيرة فكتوريا واكتشف نهر كاجيرا الذي يصب في البحيرة من الغرب وأثبت أن (بحيرة فكتوريا) بحيرة واحدة ولا يخرج منها سوى مجرى واحد كبير وهو نهر كاجيرا، وهكذا حقق الهدف الأول من رحلته.

وفي مارس ١٧٨٦ اتجه ستانلي صوب بحيرة تنجانيقا، وتتبع في قارب شاطئها الشرقي حتى طرفه الجنوبي، ثم اندفع للشمال متتبعاً الشاطئ الغربي وتحقق من أنه لا يخرج من هذه البحيرة أي مجرى يحتمل أن تكون له صلة بمنابع النيل.

بعد ذلك اتجه ستانلي إلى الغرب لاكتشاف نهر اللوالابا والتقى بالزعيم العربي (حميد بن محمد المرجبي) الذي اشتهر في كتب الرحالة باسم تيبوتيب (Tippo Tip)، وكان قد سبق أن قام بجولات في المنطقة وكانت له عصبيه ونفوذ في منطقة واسعة بأعالي الكنغو فاتفق معه على أن يرافقه في رحلته هو وبعض أتباعه لاكتشاف نهر الكنغو نظير مبلغ كبير من المال.

وقسم ستانلي القوة التي معه إلى قسمين: قسم يسير بجوار شاطئ النهر، والآخر يسير في النهر مستخدماً القوارب، ولاقت الحملة الكثير

من المتاعب بسبب انتشار الأمراض بين رجالها، وبسبب شدة ارتفاع قاع المياه مما اضطرهم إلى حمل القوارب على رؤوسهم والسير بها براً لمسافات طويلة حتى تنتهي منطقة المرتفعات المائية فيعاد تجميعها وتعاد للمياه.

ووصلت الحملة إلى منطقة الشلالات التي عرفت باسم (شلالات ستانلي) واجتازتها، كما وصلوا إلى المدينة التي عرفت باسم ستانلي بول، ووصل الذين بقوا على قيد الحياة من أفراد الحملة إلى الأدغال الواقعة غرب مصب الكونغو عند مدينة (بوما)، ثم عادوا عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ومنها عاد ستانلي إلى إنجلترا.

وهكذا أثبتت رحلة ستانلي أن نهر لوالابا متصل (بالكنغو) وأنه يجري عبر أفريقيا إلى المحيط الأطلنطي.

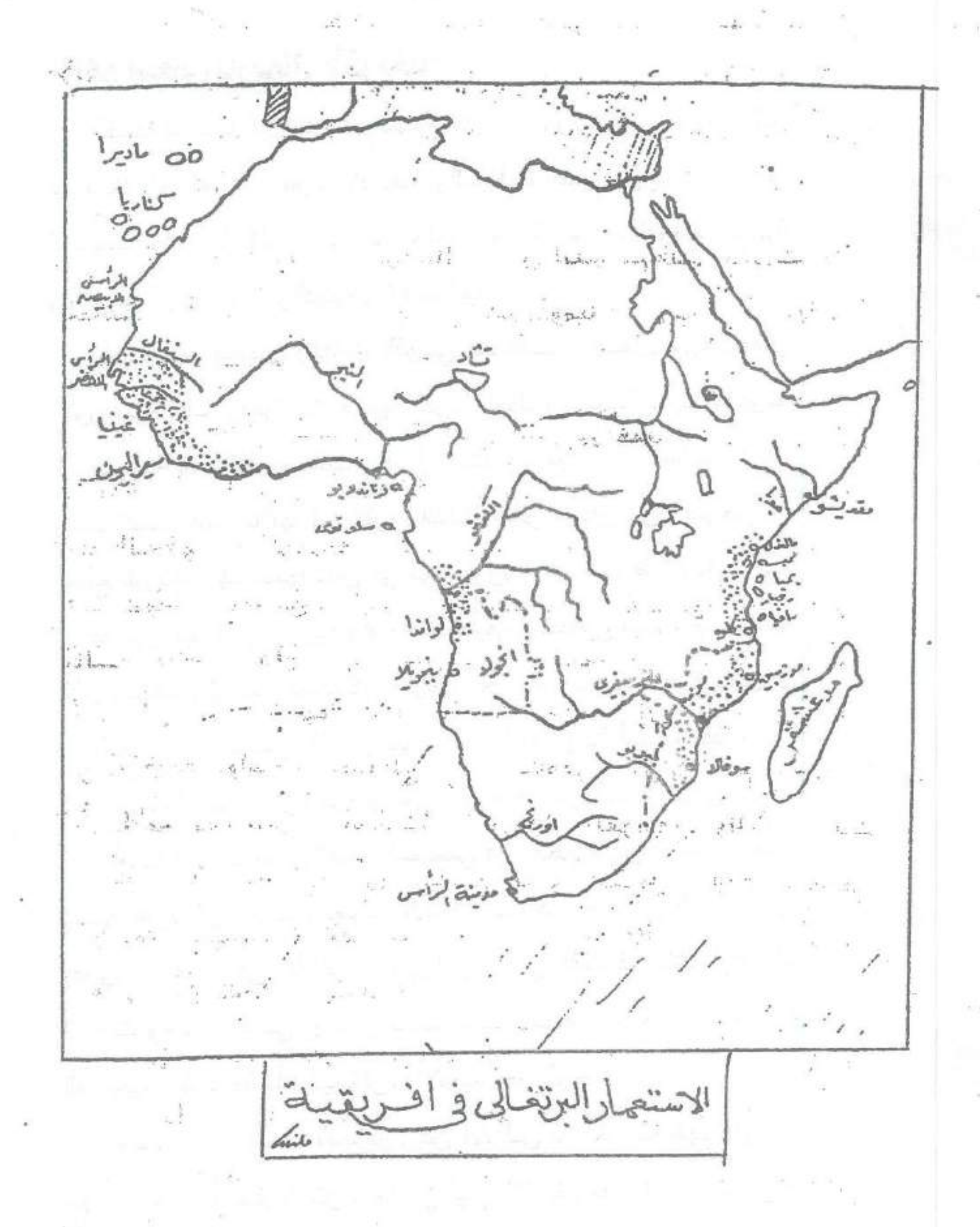
وكان ستانلي حتى قبل وصوله لإنجلترا قد أرسل بعض مذكراته للصحيفة التي يعمل بها، كما نشر فيها بعض تفصيلات رحلاته، وقد نشر مشاهداته عن ذلك في مجلدين.

على أن ما كتبه عن الثروات الضخمة بالمنطقة من نخيل الزيت والأخشاب والمطاط وغيرها أسالت لعاب الأوربيين وأدت لتطاحن الدول الاستعمارية على المنطقة، وكانت بلجيكا وفرنسا ثم إنجلترا في مقدمة هذه الدول، وانتهى الأمر بعقد مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ للوصول لقواعد عامة تلتزم بها الدول الأوربية حتى لا تصطدم بعضها بالبعض الآخر ــ وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت حدة الاستعمار الأوربي في أفريقيا ــ وسنشرح هذا بالتفصيل عند الحديث عن الاستعمار البلجيكي في أفريقيا.

الفصل الثالث

البرتغاليون في أفريقيا

- دوافع اتجاه البرتغال
- مراحل استعمار البرتغال لأفريقيا
- موقف الأفارقة من الاستعمار البرتغالي
- نهاية الاستعمار البرتغالي
- نظم الحكم في المستعمرات البرتغالية



الاستعمار البرتغالي في افريقية

دوافع اتجاه البرتغال لأفريقيا:

لقـد كانــت البرتغال في مقدمة الدول الأوربية التي تطلعت إلى امــتلاك أجزاء من القارة الأفريقية والسيطرة عليها. ويرجع هذا إلى أسـباب خاصـة كانـت وراء اتجاهها نحو أفريقيا، كالدوافع القومية والتاريخية والسياسية والدينية والاقتصادية.

أمــا فيما يختص **بالعامل القومي** فقد كانت البرتغال من الأقطار الأوربـية التـي تكونـت فـيها الدولة الوطنية الحديثة ذات الحكومة المركـزية المستقلة، وخاصة بعد أن تخلصت من بقايا المسلمين فيها، واسـتكملت اسـتقلالها في القرن الثالث عشر. وكان من الطبيعي أن تتطلع البرتغال ــ شأنها شأن أي دولة أوربية لها مثل ظروفها ــ إلى أن تكـون لها إمبراطورية واسعة تستطيع أن تتباهى بها أمام جيرانها الأوربـيات وترضى بامتلاكها نعرتها القومية. ولما كانت البرتغال لا تستطيع أن تتوسع نحو الشرق حيث جارتها الأيبيرية أسبانيا، فقد صار على البرتغال ــ إذا أرادت التوسع ــ أن تتجه غرباً نحو المحيط.

أمــا فيما يختص **بالعامل السياسي** فإننا نعلم القرن الخامس عشر شـهد البرتغاليين ــ ومعهـم الأسبان ــ وهي يضيفون الخناق علي القوي الإسلامية في الأندلس، وهي القوي التي كانت في ذلك الوقت قد ازدادت وهـناً علـي وهـن بسـبب انقسامها، بينما كانت الإمارات المسيحية آنئذ تأخذ بأسباب القوة بالاتجاه نحو الوحدة.

ولمــا تـم إجلاء المسلمين عن الأندلس ــ آخر معاقلهم في شبه جزيرة أيبيريا، بسقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام ١٤٩٢ ــ ازداد مسيحيو شبه جزيرة أيبيريا ــ سواء البرتغاليون أم الأسبان ــ تحمساً وشـراهة فـي مطاردة المسلمين خارجها، فانتقل نشاطهم إلي شمال

أفريقـيا، يتعقبون المسلمين بعد انسحابهم من أيبيريا إليها انتقاما منهم لاحتلالهم بلادهم قروناً طويلة.

وهكـذا أصـبحت الـبرتغال فـي القرن الخامس عشر نصيرة المسـيحية علـي الإسلام، واشتعلت الروح الصليبية بين البرتغاليين، فصـار البرتغالـي ــ والأيبـيري عموماً ــ محارباً صليبياً بحكم الضـرورة الملحة، منذ كانت الممالك الإسلامية موجودة علي أرضه، وكان الأيبيري المخلص لدينه المتفاني في حب وطنه ــ أسبانيا كان أو برتغالياً ــ يعتبر القتال ضد الإسلام ضرورة ماسة، ويراه خليطاً بين الواجب الديني والضرورات الوطنية، فقد كان الإسلام هو عدوه اللدود الذي لابد من قتاله ومنازلة أتباعه في كل مكان.

ولذلك لم يقنع البرتغاليون بطرد المسلمين من بلادهم في أيبيريا، بـل أرادوا أن يـتابعوا الحـرب في بلاد أعدائهم نفسها، خاصة وقد أثارتهم هجمات المجاهدين المسلمين في البحر، الذين كانوا يتخذون من سواحل المغرب قواعد لهم، وهكذا أخذت تراود البرتغاليين الآمال في القـيام بحرب صليبية علي الإسلام، والقيام بحركة التفاف استراتيجية حول جناح العالم الإسلامي، حتى يمكن محاصرته عن طريق البحر، وطعنه من الخلف، وسحقه في قارتي آسيا وأفريقيا.

وهكـذا نري أن الشعور الذي اجتاح مسيحيي أيبيريا ــ بما فيهم البرتغالـيون ــ بوجـوب محاربة الإسلام، كان شعوراً امتزجت فيه **الـروح الدينـية الصـليبية المـتأججة العنـيفة بـالعاطفة الوطنية**، خصوصـاً وأن الأمر لم يقتصر عند البرتغاليين ــ وكذلك الأسبان ــ علي مجرد محاربة المسلمين انتقاما منهم، بل كان البرتغاليون يهتمون أيضـاً بتحويل المسلمين في أفريقيا إلي المسيحية الكاثوليكية، وكذلك

تحويـــل الأحباش إلي المذهب الكاثوليكي، وفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر.

وإذ اتضح هذا الهدف الديني الممتزج بالهدف السياسي، الذي دفع البرتغاليين إلي الكشوف الجغرافية في أفريقيا ومنها إلي آسيا، لتحقيق هـذه الأهداف جميعاً، فقد ظفرت حركة الكشوف هذه باهتمام البابوية، ووصـــل الحـــال بـــبعض البابوات إلي وصف الإسلام بأنه طاعون، وطالـــبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التي تكتشف، والحيلولة بينهم وبين الإصابة بطاعون الإسلام، وأخذ البابوات يشجعون البحارة علي العمل في السفن التي تخرج للكشوف، ووعدوهم مقابل ذلك بالعفو عـند الحســاب فـــي الــيوم الآخر، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وصدرت الأوامر برسم الصلبان علي أشرعة السفن.

وعندما جاء البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ــ ١٤٥٥) وضع خطة خيالية تنفذ مع الكشوف، والهدف منها ضرب المسلمين ضربة قاضية، والقضـــاء علي الإسلام قضاء مبرماً. فأرسل في عام ١٤٥٤ إلي ملك البرتغال مرسوماً بابوياً تضمن ما يعرف باسم خطة الهند، وتقوم هذه الخطـــة علي إعداد حملة صليبية تشنها أوربا الكاثوليكية للقضاء علي الإســـلام، بعـــد أن يتصل البرتغاليون بالملوك المسيحيين في أفريقيا وآسيا، حتى يمكن تطويق البلاد الإسلامية بمساعدتهم.

ومصـــداقاً لذلك نجد أنه في أثناء الصراع العربي البرتغالي في الهـــند والبحار الشرقية ، تحالف البرتغاليون مع ملك الحبشة المسيحية ضـــد مصـــر علــــي وجه الخصوص، حتى لقد دبروا مشروعاً خائناً لـــتحويل مجـــري النيل الأزرق إلي البحر الأحمر، حتى يحل الجفاف بمصـــر، ويهلـــك أهلهـــا جوعـــاً، ولكن الطبيعة كانت أقوى من كل تدبيرهم.

أمـــا عـــن **الدافع الاقتصادي أو التجاري** الذي كان وراء محاولة البرتغاليين التوسع عقب الكشوف، فإن هذا الدافع الاقتصادي أو التجاري يرتبط أخيراً هو الآخر بالعامل الديني الممتزج بالعامل السياسي، ذلك أن العرب المسلمين ــ نظراً لموقع بلادهم عند التقاء قارات العالم القديم الثلاث ــ كانوا يسيطرون علي التجارة الشرقية، التي ظلت طوال العصور الوسطى تسلك إلي أوربا طرقاً تمر ببلاد العرب المسلمين، كالطريق إلي الخليج العربي فالفرات فسوريا فساحل البحر المتوسط، أو الطريق من بحر العرب إلي البحر الأحمر فالسويس ثم الإسكندرية، وكان العرب المسلمون يجنون أرباحاً طائلة من وراء اشتغالهم بهذه التجارة، وخصوصاً تجارة الأفاوية (التوابل). التي كانت تقبل عليها أوربا في ذلك الوقت إقبالاً عظيما، ومروراً في بلادهم يجنون عليها المكوس.

ورغبة في تحطيم قوة العرب المسلمين، وإرغام العالم الإسلامي علي أن يجثو علي قدميه أمام أوربا المسيحية، بل والقضاء عليه سياسياً بعد تحطيم اقتصادياته، وأهم مصدر وهو التجارة الشرقية، لهذا كله فكر البرتغاليون في الكشف عن طريق آخر يوصلهم إلي متاجر الشرق الغنية، دون أن يمر بأي من الأقطار العربية الإسلامية، مع الاستيلاء علي المنافذ التي يخرج المسلمون عن طريقها إلي البحار الشرقية، كمنفذ البحر الأحمر ومنفذ الخليج العربي إلي بحار الهند، وبذلك ينهار كيان العرب المسلمين اقتصادياً، وبالتالي سياسياً وتتحول الأرباح الهائلة التي كانوا يجبونها من التجارة الشرقية إلي البرتغاليين المسيحيين.

مراحل استعمار البرتغال لأفريقيا:

١ــ المرحلة الأولى (١٤١٥ ــ ١٤٦١):

كـــان الملك يوحنا الأول يصرح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار والمجد هو الميدان الجهاد ضد المسلمين، وفي عام ١٤١٥ أرسل جون (يوحنا) الأول ملك البرتغال حملة اشترك فيها ابنه الأمير هنري، الذي اشتهر باسم هنري الملاح لانتزاع مدينة ســبتهGeuta علـــي الشـــاطئ الشمالي لأفريقيا تجاه أسبانيا من أيدي المسلمين، وكانت هذه المدينة معقلاً للمجاهدين المغاربة، وعين الملك الأمير هنري حاكماً عليها، ومنحه وسام السيد الأعظم، كما عينه رئيساً لفرســـان المســـيح مكافأة له. وكان نواة هذه الجماعة بعض الفرسان الصـــليبيين، الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهـــم، فجاءوا لاجئين إلي البرتغال، وكان من أمنيات الأمير هنري أن يعمـــل عمـــلاً لكـــي يـــتقرب به إلي الله، عن طريق نشر المسيحية الكاثوليكـــية بين الوثنيين الأفريقيين، وجاشت في نفسه رغبة قوية في طـــرد المسلمين من مراكش، كما طردوا من شبه جزيرة أيبيريا، لكنه فشـــل في احتلال طنجة عام ١٤٣٦، وعندئذ تحول لاحتلال شواطئ مـــراكش المطلـــة علي المحيط الأطلنطي، وصار هدفه وضع الخطة الإستراتيجية الكبرى التي تطوق جناح الإسلام، وتحمل العالم المسيحي رأســاً إلـــي المحيط الهندي، وأخذ اهتمام هنري بشئون الهند ينمو مع الزمـــن، وملكـــت فكرة الوصول إلي الهند عليه مشاعره، حتى صار يعتقد ويشيع أنه تلقي من الله أمراً بأداء هذا الواجب.

وقـــد عزم هنري على ارتياد سواحل أفريقيا ولذلك قام بدراسات للمعلومـــات الجغرافـــية التـــي كان يجمعها من البحارة، واستطاع أن

يـتحدى الخرافات الشائعة، والتي كانت تعتبر المحيط الأطلنطي بحر الظلمـات، وأن بشـرة الـرجل الأبـيض تتحول إلي السواد من شدة الحرارة إذا ما اتجه صوب الجنوب، كما عمل علي تحسين بناء السفن سواء الكرافيل السريعة، أو الغلايين البطيئة.

وتتابعـت رحلات البرتغاليين إلي ساحل أفريقيا الغربي، فاحتلوا جـزر كناريا عام ١٤٢٤، وجزر ماديرا عام ١٤٣٠،وجزر أزورس عـام١٤٣٧، واكتشفوا ريودورو عام١٤٣٦،والرأس الأبيض Cape Blanc عـام ١٤٤١، ثـم مصـب السـنغال عام ١٤٤٦، والرأس الأخضـر، واستمر نشاطهم حتى وصلوا إلي ساحل سيراليون في عام ١٤٦١ بعد وفاة هنري الملاح بعام واحد.

واهتم البرتغاليون بإنشاء الحصون والقواعد علي الساحل الغربي لأفريقـيا، لخدمـة أغراضهم التجارية والاستعمارية، وتكونت شركة لـتقوم بالاتجار مع ساحل غانا في الذهب، وفي الرقيق بتشجيع هنري نفسـه، واسـتطاعت هـذه الشـركة أن ترسل مائتين من العبيد إلي الـبرتغال، وبذلـك بـدأت تلك التجارة ــ تجارة الرقيق المجلوب من غرب أفريقيا ــ تزدهر، حتى أنه بعد وقت قصير أصبح عددهم عشر سـكان لشبونة عاصمة البرتغال، وبوصول البرتغاليين إلي بلاد غانا، انطلـق الـتجار والملاحون يقتنصون أهالي هذه البلاد وينقلونهم إلي أسواق أوربا لبيعهم كرقيق، وحقق البرتغاليون من هذه التجارة الآدمية أرباحً خيالية، مما أغري الكثيرين من المغامرين على القيام برحلات متعاقـبة، وأنشـأ البرتغالـيون القـلاع في نقاط مختلفة من الساحل، استخدموها كمراكز عسكرية تجري في حمايتها عمليات التجارة.

٢ـ المرحلة الثانية (١٤٦٢ ـ ١٤٧١):

وفي عام ١٤٦٢ وصل البرتغاليون إلي رأس بالماس في ليبيريا الحالــية وفي عام ١٤٧١ تم الوصول إلي ساحل غانا، والمرور بدلتا النيجر.

وكان ساحل غانا في تلك الفــترة ينقسم إلي قسمين:

غانا العليا وتمتد من الرأس الأبيض (كيب بلانكو) إلي سيراليون (سلسة الإسود)، وغانا السفلي وتمتد من سيراليون إلي جبال الكمرون، وقد اهتم البرتغاليون بغانا السفلي علي وجه الخصوص، وقسموها إلي أربعة مناطق حسب إنتاجها:

١ـ **ساحل الحب** في المنطقة التي توجد بها ليبيريا الحالية، وكان ينتج نوعــاً من الفلفل الأسود، ولم يهتم البرتغاليون بهذا القسم لعدم وجود موان طبيعية به، وشدة التيارات البحرية والعواصف.

٢ـ **ســاحل العــاج** وينطــبق علــي دولة ساحل العاج، ولم يهتم به البرتغاليون أيضاً بسبب كثافة الغابات والمستنقعات.

٣ـ **ســاحل الذهب** ويكاد يتفق مع دولة غانا الحالية، وكان هذا الجزء مســرحا لنشاط البرتغاليين، حيث كانت أغلب الأنهار التي تنتهي إلي البحر تأتي برواسب تحتوي على خام الذهب.

٤ـ **ساحل الرقيق** وكان يمتد بين مصب نهر فولتا ودلتا ونهر النيجر، التــي كانت تعرف حتى أواخر القرن التاسع عشر بأنهار الزيت Oil Rivers، واستغل البرتغاليون هذا الساحل في اقتناص الرقيق.

وبمضي الوقت، وبعد أن وجد البرتغاليون أن سكني الساحل غير ميســورة، وأن أوربا تفضل الفلفل الهندي علي الأفريقي، وأنه يمكن لسفنهم نقل الرقيق من جزر ساو توميهSao Thome وفرناندو بو في

خليج بيافرا، هجروا الساحل وأخذوا في تعمير الجزيرتين، حيث كانت تربــتهما الخصبة البركانية صالحة لزراعة قصب السكر، الذي يشتد الطلب عليه في أوربا، واقتصرت صلات البرتغاليين مع ساحل الرقيق علــي بعــض الحمــلات، التي كانوا يشنونها لجلب الرقيق للعمل في مــزارع البرتغاليين، وإزاء ازدياد عدد الأرقام في الجزيرتين، وصار مــن الصــعب السيطرة عليهم، اقتصرت أهمية الجزيرتين علي جمع الرقيق وإرسالهم إلي مزارع قصب السكر الجديدة في البرازيل، وذلك بــدأت تجارة الرقيق، التي استمرت ثلاثة قرون، ذاق فيها الأفريقيون الأهوال والويلات.

وبعد أن استقرت أسبانيا في مستعمراتها في العالم الجديد، وجدت أن بعــض هــذه الأراضي الجديدة مثل جزر الهند الغربية، لا تحتوي معــادن ثمينة كالمسكيك وبيرو، ولكن تربتها ومناخها يناسبان زراعة المحصولات المدارية، فاحتاج الأسبان إلي الأيدي العاملة لقلة السكان الوطنيــين، فاتجهــت أنظــار الأســبان إلي أفريقيا، واستغل التجار البرتغاليون هذه الفرصة وأخذت تجارة الرقيق تعبر الأطلنطي، وكانت الحكومــة الأســبانية تبرم العقود مع الوسطاء البرتغاليين، الذين ظلوا يحتكرون هذه التجارة طوال القرن السادس عشر، وبلغ عدد الأفريقيين الذيــن سبقوا إلي العالم الجدد في هذه الفترة (١٥٣٠ ـــ ١٦٠٠) نحو ٩٠٠ ألف، وقد جنت البرتغال أرباحاً طائلة من هذه التجارة، مما أثار حقــد الدول الأوربية، التي شرعت في محاولة انتزاع هذه التجارة من البرتغاليين، وفي مقدمة هذه الدول هولندا.

٣ـــ المرحلة الثالثة (١٤٧١ ـــ ١٤٩٩):

واستمرت الكشوف البرتغالية علي الساحل الأفريقي الغربي تسير قدمــاً، وفــي عــام ١٤٧١عبر الملاحون البرتغاليون خط الاستواء،

فحطمــوا بذلك تلك الخرافة القديمة، وفي عام ١٤٨٤ نجح دييجو كام فــي الوصول إلي مصب نهر اكونغو، وفي عام ١٤٨٦ تابع بارثلميو دياز رحلات كام، فسار بمحاذاة الساحل الجنوبي الغربي لأفريقيا، حتى وصــل إلــي أقصــي الطرف الجنوبي من القارة، الذي أسماه راس العواصــف، دون أن يعرف أنه نهاية الساحل الغربي للقارة، رغم أنه عــبره إلــي الشــرق بمسافة قصيرة ولكنه عاد أدراجه بسبب تمرد بحارته.

ومن أجل تسهيل مهمتهم في الوصول إلي الهند والبحار الشرقية، اســتخدم البرتغاليون جواسيس من يهود الأندلس، ممن كانوا يعرفون اللغــة العربية، ففي عام ١٤٨٨ ــ أي قبل رحلة داجاما بعشر سنوات ــ جــاء إلــي مصر عدد من هؤلاء الجواسيس الذين يعملون لحساب الــبرتغال، وعلي رأسهم بيدرو دي كوفيلهام الذي جمع معلومات عن تجارة التوابل، ثم سافر من السويس إلي عدن ومنها إلي الهند، وجمع الكثــير من المعلومات، وفي أثناء عودته عن طريق مصر انضم إلي جاسوسين آخرين هما ابراهام دي بيا ويوسف لاميجو، وسافر الجميع إلي هرمز ثم إلي زيلع ومنها إلي الحبشة، ثم عادوا إلي البرتغال عن طريق مصر.

وقــد استطاع هؤلاء الجواسيس الحصول علي خرائط ومعلومات تفصــيلية عــن المحيط الهندي وتياراته ورياحه، وكذلك عن التجارة الشــرقية، وكانــت هذه المعلومات نعم المعين لسلطات لشبونة عندما اســتأنفت ــ بعــد ركــود ــ إرســال البعثات الكشفية لتحقيق الهدف الأساسي، وهو الوصول إلي الهند بالدوران حول أفريقيا.

ففي عام ١٤٩٧ أوفد عمانويل الثاني ملك البرتغال الرحالة فاسكو داجامـا ليكتشـف هـذا الطـريق، وخرج الملك بنفسه ومعه حاشيته لـتوديعه، وكانت سفينه القيادة واسمها "سان جابرييل" تحمل عشرين مدفعاً، وترفع علي ساريتها علماً عليه رسم صليب كبير.

وسـلك داجاما طريق من سبقوه وخاصة دياز، وفي مارس عام ٤٩٨'وصـل إلي الساحل الشرقي للقارة ، بعد أن عبر رأس الرجاء الصـالح، فوصل إلي موزمبيق وممباسا ومالندي، وكانت هذه الثغور غاصـة بالتجار العرب الذين فوجئوا بهذه الطلائع الغربية تهبط عليهم من اتجاه لم يتوقعوه.

أقـام داجاما في ثغر مالندي في كينيا بضعة أسابيع، وأخذ يجمع المعلومـات عن أقصر وأسهل طريق يوصله إلي الهند، واستعان في هـذا السـبيل بملاح عربي يشاع أنه ابن ماجد (شهاب الدين أحمد بن مـاجد)، الـذي كانـت له خبرة واسعة بالمحيط الهندي، وخاصة في المنطقة بين الشاطئ الشرقي لأفريقيا وبين الهند، وترك للتراث العربي الملاحـي ثـورة من المؤلفات العلمية القيمة في التكنولوجيا البحرية وفنون الملاحة، وتولي الملاح العربي قيادة سفينة القيادة وعليها فاسكو داجامـا مـن ثغر مالندي قاصدة الهند، فوصلت إلي ثغر قاليقوط عل السـاحل الغربي للهند المعروف بساحل ملبار، وكانت قاليقوط إذ ذاك مركـزاً رئيسـياً من مراكز التجارة الهندية، وفيها جالية كبيرة العدد وافـرة الـثراء مـن تجار العرب، وهكذا حققت رحلة فاسكو داجاما أهدافها، فقد عاد إلى البرتغال في سبتمبر عام ١٤٩٩ يحمل كنوزاً من الأحجار الكريمة والسلع الهندية.

ولاشــك أن هــذا الحــادث يسجل نقطة تحول في تاريخ أوربا والشــرق عموماً، والهند على وجه الخصوص، (انهيار اقتصاد دولة المماليك فــي مصر والشام، حيث تحول طريق التجارة إلي المحيط الأطلنطــي الــذي أثــرت دوله على حساب الدول المطلة علي البحر المتوسط، سيطرة البرتغال على السواحل الأفريقية، وخاصة الإمارات العربــية على الساحل لشرقي، ووصول الاستعمار البرتغالي إلي آسيا والهند).

ولقد أحدث وصول سفن داجاما إلى المحيط الهندي انقلاباً آخر ــ غير كشف الطريق حول أفريقيا ــ ألا وهو السفينة التي تحمل المدافع، فقــد كان هذا شيئا جديداً لا عهد للبحار الهندية بمثله، أتاح للبرتغاليين مــيزة على خصومهم من الهنود وكانت الدولة غير الأوربية الوحيدة التي استخدمت المدفعية في الأسطول هي الدولة العثمانية، ولكن عندما وصــل البرتغالــيون إلــي المحيط الهندي، لم يكن للعثمانيين أسطول بحــري هــناك، وحــتى عندما تنبه السلطان إلي هذا التهديد، لم تكن الــبرتغال قــد حصلت فقط على موطئ قدم. بل وصارت في موقف تستطيع فيه أن تعزز بحريتها، وهو أمر لم يكن في مقدور العثمانيين الذين كانت قواتهم البحرية مركزة في البحر المتوسط.

٤ــ المرحلة الأخيرة (شرق أفريقيا):

وتتابعــت رحلات البرتغاليين إلى الهند من هذا الطريق الجديد. وســاروا علــى الســاحل الشرقي على سياسة إنشاء الحصون لحماية الطــريق إلى الهند والتجارة البرتغالية. ففي عام ١٥٠٢ وأثناء رحلة داجامــا الثانــية إلــى الهــند نزلوا في كلوة، وأرغموا سلطانها على

الاعتراف بسيادة البرتغال، وتبع ذلك إخضاع زنجبار. وفي عام ١٥٠٥ غادر البرتغال أسطول كبير بقيادة البرتغالي فرانسيسكو دالميدا، لتثبيت أقدام البرتغاليين على السواحل الأفريقية التي تتحكم في الطريق التجاري الجديد. وللقضاء على نفوذ العرب الذين كانوا يحتكرون من قبل تجارة الشرق في تلك الجهات. فاستولت القوات البرتغالية على سوفالا وكلوة ثم ممبسا، وبسقوط كلوة وممبسا سقط عمودان من أهم الأعمدة. التي كانت ترتكز عليها السيادة العربية في شرق أفريقيا.

وفي عام ١٥٠٦ أرسل أسطول برتغالي آخر بقيادة البوكيرك، استولى على براوة وجزيرة سقطري التي بنوا فيها حصناً لتكون قاعدة لعملياتهم البحرية في المحيط الهندي.

وفي عام ١٥٠٧ سقطت موزمبيق في أيدي البرتغاليين. وفي عام ١٥٠٩ عين البرتغاليون حاكماً عاماً لمستعمراتهم في شرق أفريقيا، بعد أن سقطت في أيديهم معظم المناطق العربية على الساحل. وبعد ذلك اتجهوا إلى ساحل شبه الجزيرة العربية والخليج. فهاجموا مسقط وهرمز وعدن، وذلك لاستكمال تطويق العالم الإسلامي، وسد منافذه المؤدية إلى بحار الهند.

وبوصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي في مارس عام ١٤٩٨، أنشئوا لهم مراكز تجارية مسلحة في أفريقيا الشرقية، علاوة على الساحل الغربي للهند، وجزر المحيط الهندي والخليج العربي، وعملوا على بسط سيطرتهم العسكرية والتجارية على هذه المنطقة ابتغاء احتكار تجارة الشرق، ونقلها إلى أوربا عبر الطريق الجديد ـ طريق رأس الرجاء الصالح ـ بعيداً عن الرسوم الجمركية التي كان

يتقاضاها سلاطين المماليك عن تفريغ السلع في السويس، ثم أصبحت المتاجر الشرقية تأخذ طريقها على السفن البرتغالية رأساً إلى لشبونة، حيث يتلقفها التجار والموزعون، وصارت لشبونة قلب أوربا في دنيا التجارة والمال، وجنى البرتغاليون الأرباح الخيالية في ظل هذا الانقلاب الجديد في طرق الملاحة.

موقف الأفارقة من الاستعمار البرتغالي:

أولاً: في غرب أفريقيا:

وعلى الرغم من أن ظروف البرتغاليين كانت تملي عليهم الاقتصار على بسط نفوذهم على المناطق الساحلية. فقد اتجهت أبصارهم صوب الداخل، فحاولوا غزو الكونغو لكنهم فشلوا في هذه المحاولة الأولى للاستعمار الاستيطاني.

وعلى الرغم من أن البرتغاليين اكتشفوا ساحل أنجولا في جنوب غرب أفريقيا منذ عام ١٤٩٠، فإنهم لم يحاولوا الاستقرار في هذه المنطقة والتوغل فيها إلا منذ منتصف القرن السادس عشر، وخاصة في المنطقة جنوبي الكونغو، حيث ميناءي لواندا وبنجويلا، حيث كان يحكم بعض زعماء القبائل المحليين، وكان أقواهم في القرن السادس عشر يلقب نجولا ومعناها باللغة المحلية الرئيس. فأطلق البرتغاليون على المنطقة اسم أنجولا.

وفي عام ١٥٧٥ عين ملك البرتغال باولو دياز ــ حفيد بارتلميو دياز ــ حاكماً على أنجولا، فذهب ومعه سبع سفن وسبعمائة من الرجال، فبنى حصن سان ميجويل في لواندا على الساحل. وأسس مدينة ساو باولو التي صارت عاصمة ممتلكات البرتغال في جنوب

غرب أفريقيا، وفي مقابل حصول باولو دياز على ثلث دخل المنطقة، كان عليه أن يعمل على توسيع نفوذ البرتغال في الداخل.

وبعد ست سنوات من الهدوء بين البرتغاليين والأنجوليين، قام الأخيرين يقاتلون دفاعاً عن أرضهم. وحلت الهزيمة بالوطنيين أكثر من مرة قبل أن يستسلموا في النهاية، وأخيراً استطاع البرتغاليون في عام ١٥٩٧ أن يثبتوا أقدامهم، وأخذ التجار والمنصرون يتوغلون في الداخل. وقد اشتهر اسم أنجولا بعد ذلك كمركز من أهم مراكز تصدير الرقيق الأفريقي والاتجار فيه. مما أدى إلى استنزاف قوتها البشرية، ومن العوامل التي ساعدت على تأخر أنجولا أن البرتغال جعلتها منفى للمجرمين والمشاغبين غير المرغوب في بقائهم في الوطن الأم. وظلت تجارة الرقيق مزدهرة في أنجولا رغم صدور قرار في عام ١٨٣٠ بإلغاء تصدير الرقيق من المستعمرات البرتغالية، والتي اشتهرت في تاريخ البرتغال الاستعماري باسم " الأم السوداء "، إشارة إلى شهرتها في تجارة الرقيق.

إلا أن حصون البرتغاليين على ساحل الذهب لم تستمر في حوزتها طويلاً، بل استولى عليها الهولنديون في بداية القرن السابع عشر، واستولت فرنسا على داهومي، وعلى الرغم من أن البرتغاليين هم الذين اكتشفوا سيراليون وأطلقوا عليها اسمها، فإنهم لم يحتلوها، ولكن ظلت البرتغال تحتفظ ببعض المراكز الحصينة في المنطقة بين غامبيا وسيراليون. وهي المنطقة المعروفة باسم غينيا البرتغالية.

ثانيا: في شرق أفريقيا:

أما على الساحل الشرقي فإن البرتغاليين بعد استيلائهم على كلوة وزنجبار وممبسا ومالندي ومقديشو وسوفالا وموزمبيق. حاولوا

التوغل في داخل موزمبيق عن طريق نهر الزمبيزي. وقد توقفت هذه المحاولات فترة من الزمن بسب نشاط الترك، ذلك أنه قبيل نهاية القرن السادس عشر (١٥٨٤) وعقب استيلاء العثمانيين على مصر. وبتحريض من البندقية. أرسل العثمانيون أسطولاً قوياً إلى البحر الأحمر، وصل إلى الساحل الشرقي حتى ممبسا، واستعد لمنازلة البرتغال ومنازعتهم في السيطرة على المحيط الهندي، إلا أن البرتغاليين استطاعوا هزيمة الترك، وبذلك تدعمت سيطرة البرتغاليين في المنطقة، رغم الصراع المرير الذي خاضوه ضد الوطنيين في داخل القارة وراء كلوة في منطقة موزمبيق وعلى نهر الزمبيزي، ومن أهم الثورات التي واجهها البرتغاليون الثورة التي تزعمها ميرعلى في عام ١٥٨٠ في مقديشو، وامتدت إلى ممبسا وغيرها من الموانئ بشرق أفريقيا. ولقى ميرعلى معاونة من الأتراك ساعدته على إخضاع معظم المنطقة ما عدا مالندي، ولم يستطع البرتغاليون إخماد الثورة واسترجاع ممبسا والقبض على ميرعلى وإعدامه إلا بعد الاستعانة بالقوات البحرية من الهند، واستمالة بعض قبائل البانتو للانضمام إلى البرتغاليين.

ولم تهدأ ثورات العرب والأفريقيين على الساحل الشرقي، ففي عام ١٦٥٠ اندلعت الثورة مرة أخرى، واتصل الثوار بإخوانهم العرب على الشاطئ الآسيوي، وجاءتهم نجدات من عمان والعثمانيين، كما أن البرتغاليين منذ القرن السابع عشر أخذوا يواجهون منافسين جدد هم الهولنديون (الكاب) والبريطانيون، وظهور النفوذ الفرنسي في مدغشقر. وفي الوقت نفسه طرد العرب في الخليج العربي البرتغاليين من مسقط، وعند نهاية القرن السابع عشر بدأ العرب يهاجمون

ممـــتلكات البرتغاليين في ساحل زنجبار، ولم يـــأت عام ١٦٩٨ حتى كـــان البرتغاليون قد فقدوا كل حصون شمال موزمبيق، وأصبح نفوذ الـــبرتغال مقصوراً على ما يعرف حالياً باسم غينيا البرتغالية وأنجولا في الغرب وموزمبيق في الشرق.

وهكـــذا نـــرى أن الإمبراطورية البرتغالية في الشرق لم تزد في بداية أمرها عن نقاط ومواقع عسكرية متناثرة على الساحل، ولم تمتد علـــى مساحات واسعة من القارة، ولم تتوغل في داخلها، كل أهميتها أنهـــا موطئ قدم ومحطات على الطريق، ولم يزد الاستعمار فيها عن نقـــاط وشرطة ساحلية ومواقع حربية في ساحل غرب أفريقيا وشرق أفريقـــيا، وفي المراحل التالية أصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب أفريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق، وحتى في الهند لم يعتد البرتغالـــيون قاليقوط على الساحل الجنوبي الغربي وجوا على الساحل الشـــمالي الغربـــي، إذ وقف حائط جبال الغات المنيع في وجه توسع منطقتهم، كما أنه لم يكن لدى البرتغاليين بعددهم المحدود القوة البشرية للاستعمار السكني (الاستيطاني) حتى لو أرادت، ففي هذا الوقت الذي أقدمـــت فيه البرتغال على هذه المغامرة الجريئة، لم يكن عدد سكانها يزيد على المليون، ولذلك ليس بغريب أن يسقط الاستعمار البرتغالي، ولكـــن الأغـــرب قيامه أصلاً، ولذلك لم يكن الاستعمار السكني أمراً موضع تفكير.

نهاية الاستعمار البرتغالي:

ويلاحـــظ أن البرتغال ــ التي كانت صاحبة أول الإمبراطوريات الاســـتعمارية ــ حققت استعمارها في مدة قليلة وبسرعة غير عادية،

وتملكت أضعاف أضعاف مساحتها، ومع ذلك ــ وعلى الرغم من أن القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة البرتغال (وأسبانيا) ــ فـإن الإمبراطورية البرتغالية لم تعمر طويلاً، ولم تلبث أن أخذت في الانكماش حتى انهارت بلا مقاومة. **وذلك يرجع إلى عدة أسباب:**

١- قلة عدد سكان البرتغال نفسها ــ كما ذكرنا من قبل ــ وبذلك لم يكن في استطاعتها أن ترسل عدداً كافياً من سكانها إلى كل مســتعمراتها في العالم الجديد وأفريقيا، وكانت البرازيل أكثر مــن أفريقــيا جاذبــية للمهاجرين، بعد أن ظهر إمكان نجاح الإنتاج الزراعي فيها.

٢- كانــت نظــرة البرتغاليين لأفريقيا على أنها مجرد وسيلة أو طريق يؤدي إلى الشرق، وليست غاية في ذاتها، ولذلك اكتفوا بإقامة المحطات والمراكز التجارية فقط، بما يكفي لتحقيق هذا الهدف.

٣- عداء الأفريقيين للمستعمرين ومقاومتهم العنيدة لهم، وما كان يلقــاه الأفريقيون ــ وخاصة في شرق أفريقيا ــ من تعضيد من إخوانهم عرب شبه الجزيرة العربية والعثمانيين.

٤- تضارب مصالح البرتغاليين فيما بينهم، فقد كان هناك التجار وأصــحاب الإقطاعــيات ورجال البعثات التنصيرية. وكانت مصــالح كل فريق من هؤلاء تتعارض مع مصالح الآخرين، ممــا أفقد المستعمرين البرتغاليين الوحدة في مجابهة أعدائهم. ســواء من الوطنيين أو من الدول المنافسة. كما أفقد السيسية الاستعمارية الاتزان الذي كان ضرورياً لنجاحها.

٥- احتلت أسبانيا البرتغال في القرن السادس عشر (١٥٨٠) في عهد فيليب الثاني ملك أسبانيا، ودام هذا الاحتلال ما يقرب من ثمانين عاماً، وعلى الرغم من أن البرتغال استعادت كيانها بعد ذلك، إلا أن هذه كانت الضربة القاضية، فقد انتهزت هولندا ـ كقوة بحرية صاعدة ـ فرصة تحطيم البرتغال على يد أسبانيا لكي ترث تجارتها، بل ومستعمراتها، فأخذت تنتزع من البرتغال مواقعها في الهند والهند الشرقية، حتى لم يعد للبرتغال إلا جيوب متفرقة: دامان وجوا في الهند، وتيمور في الهند الشرقية.

٦- وفي أفريقيا كانت هناك اكتشافات لفنجستون دافعاً للبرتغاليين لمحاولة التوغل في داخل القارة، وعلى طول الزمبيزي بالذات. وكانت هناك محاولات في الربع الأخير من القرن التاسع عشر من جانب الجمعية الجغرافية في لشبونة، التي أرسلت البعثات إلى هذه الجهات، ولكن جهود البرتغاليين اصطدمت بأطماع الدول الاستعمارية الأخرى، كما اصطدمت بمقاومة القبائل الأفريقية.

٧- وقد حاولت البرتغال بعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤/١٨٨٥ ـ الذي فتح باب التكالب على القارة الأفريقية كما سنرى فيما بعد ـ حاولت أن تحقق حلمها القديم بضم الأقاليم التي تفصل بين مستعمرتيها: أنجولا وموزمبيق، إلا أن الأطماع البرتغالية اصطدمت بالأطماع الاستعمارية البريطانية، وبمشروعات وأحلام الاستعمار البريطاني العتيد مثل سيسل. وكاد الأمر يؤدي إلى الصدام بين الدولتين وانتهى الأمر بعقد معاهدة عام ١٨٩١ بين الدولتين، تعترف فيها البرتغال بمطالب إنجلترا.

وهكـــذا انحصـــرت أملاك البرتغال في أفريقيا منذ القرن التاسع عشر في موزمبيق وأنجولا وغينيا بيساو البرتغالية.

نظم الحكم في المستعمرات البرتغالية:

طبقـــت الـــبرتغال في مستعمراتها الأفريقية التي اقتصرت على أنجولا في الغرب وموزمبيق في الشرق وغينيا في الغرب نظم الحكم المباشـــرة لأن البرتغال كانت تهدف من هذه المستعمرات إلى تحقيق أهـــداف محددة تقوم على الاستغلال واحتكار موارد هذه المستعمرات لصالح البرتغال، بالإضافة إلى مقاومة حركات التمرد والعصيان التي قـــد تنشب في هذه المعسكرات الثلاث، وطوال التاسع عشر لم تتغير سياسة البرتغال الاستعمارية وكانت تقوم على الاحتكار وسوء استغلال الأفارقـــة لصـــالحهم، وقد استاء الرأي العام العالمي في هذه المعاملة القاســـية التـــي لا تقل كثيراً عن فترة الرق الحقيقي للشعب الأفريقي يضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من الساسة والمؤرخين أخذوا يهاجمون هـــذه السياسة البرتغالية التي ارتكزت على إجبار الأفارقة على العمل ســـواء فـــي المصـــانع أو المـــزارع، وصـــور هؤلاء تلك المعاملة اللاإنسانية بأنها صورة جديدة من صور الرق.

وارتكـــز الحكـــم الاســـتعماري البرتغالـــي علـــى إنشاء وزارة للمستعمرات تتبعها كل المستعمرات الثلاث في أفريقيا وبالطبع يشرف علـــيها وزير المستعمرات ويعاون هذا الوزير مجلساً استشارياً أعلى للمستعمرات، ويعقد مؤتمر عام لحكام في لشبونة كل ثلاث سنوات.

وكان الحاكم العام للمستعمرة هو صاحب السلطة الحقيقية الإدارية ويجمـــع فـــي يديه كافة السلطات المدنية والعسكرية، وهو الذي يقوم

بتعيين الموظفين ورجال الحاميات وقواد القلاع والثغور البرتغالية. الحاكم العام للمستعمرة مسؤول أيضاً عن تطبيق نظام التعليم والعمل على تحسين أحوال المستعمرة كما أنه يشرف على الأمن والشؤون المالية والإدارية، وكان تعيين الحاكم العام للمستعمرة لمدة ثلاث سنوات.

ويعاون هذا الحاكم للمستعمرة مجلس استشاري يتكون من ضباط الجيش وبعض المستوطنين وإلى جانب هذا المجلس يوجد عدد من الموظفين مثل قاضي القضاة الذي يتولى الإشراف على النواحي القضائية بالمستعمرة جنباً إلى جنب مع أعضاء الجهاز الإداري.

ونظراً لأن البرتغال ترسل إلى مستعمراتها أعداداً كبيرة من أعضاء البعثات التبشيرية وبعض أصحاب المقاطعات فقد تكون في المستعمرات طبقة من الإقطاعيين ورجال الإرساليات الذين سعوا للبحث عن الثروات ونسوا مهمتهم الأساسية في التبشير، وبدءوا يمتلكون الإقطاعيات ويستغلون الأفارقة لصالحهم وساءت أحوال المستعمرات بعد تكوين هذه الطبقات المستغلة عندما قررت حكومة البرتغال إرسال المجرمين والخارجين عن القانون والمغامرين، بل والمحكوم عليهم بأشغال شاقة، وباختصار صار البيض في المستعمرات البرتغالية يتكون من طبقة سيئة ومن جماعات لا أخلاق لها. وبالطبع تزاوج أفراد هذه الجماعات الوضيعة من سكان المستعمرات ونتج عن هذا طبقة أخرى من المولدين أطلق عليهم الخلاسين.

ومن الأمور الملحوظة أن البرتغال كانت تختار حكام مستعمراتها وكذلك الجهاز الإداري من البرازيليين ذلك لأنها تعلم أن مصالح هذه

المســتعمرات مرتــبط بالبرازيل، وقد برز من هؤلاء البرازيليين في المستعمرات البرتغالية في أفريقيا الجنرال سلفادور دي (Salvadore de sal) وهو من كبار رجال الإقطاعيين البرازيليين وكذلك فرنسيكو دي (Francisco de scusa cuten ho) ونظــراً لأن البرتغال مارست أقسى أنواع المعاملة مع الأفارقة، فإن أصواتاً علت تطالب بالإصلاح وتعلن الاحتجاج على ما يدور في المستعمرات البرتغالية، واضطرت وزارة المستعمرات في عام ١٨٩٨ إلى تشكيل لجنة لدراسة الأوضاع في المستعمرات.

وعينــت أنطونير أنيز رئيساً لها وكانت أبرز نصائح وتوصيات هذه اللجنة تطوير نظام الإدارة في كل مستعمرة طبقاً لظروفها الخاصة وطالب باختيار الحكام من أكفأ العناصر والذين يحظون بسمعة طيبة.

وترتب على تقرير أنيز (Enes) صدور تشريعات ١٨٩٩ والتي جــاء في بندها الأول إلزام رعايا الأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار بــرفع مستوى معيشتهم عن طريق العمل، كما أنهم أحرار في اختيار أنســب الطرق اللازمة لتحقيق هذا الالتزام، وإذا لم يقوموا بذلك فإن السلطة سوف تجبرهم على هذا.

ورغــم هذا فقد واصل الحكام البرتغاليون سياسة السخرة والعمل الإجــباري حــتى عــام ١٩١٧، ولكن اضطرت البرتغال إلى الأيدي العاملــة الأفريقــية في أنجولا فأوقفت شحن الرقيق إلى العالم الجديد، ولمــا وصــل ســالازار إلى عرش البرتغال بدأت صفحة جديدة في السياسية الاستعمارية البرتغالية حيث وضع دستوراً جديداً للمستعمرات البرتغالــية في أفريقيا في عام ١٩٣٣، وقد ارتكز هذا الدستور وتلك السياسة الجديدة على أسس ثلاثة:

١- الدافـع الدينـي الـذي دفع البرتغال لاستعمار هذه المناطق باعتـبارهم شعب الله المختار لنشر الفضيلة والأخلاق المثلى بين هذه الشعوب المختلفة.

٢- الإحسـاس بضـخامة تلك المناطق التي يرفرف عليها العلم البرتغالي.

٣- العمـل علـى اسـتخراج كافـة المـوارد المتاحة في هذه المستعمرات.

وتحقـيقاً لـتلك المـبادئ الثلاث التي تنطوي أيضاً على نظرة عنصـرية استغلالية، فقد جندت البرتغال المفكرين والصحفيين وكافة وسـائل النشـر والإعلام لنشر أسس هذه السياسة، وأتبع ذلك بالطبع تعديـلات إداريـة جديـدة فـي المسـتعمرات وغيرت البرتغال اسم المستعمرات البرتغالية إلى اسم (أقاليم ما وراء البحار).

وفي عام ١٩٥١ صدر قانون لإدارة هذه الأقاليم فيما وراء البحار وبالطـبع لـم يخـتلف في جوهره عن قانون عام ١٩٣٣ وكانت أهم المبادئ التي تضمنها هذا القانون:

١- اعتـبار جميع الأراضي الأفريقية جزءاً لا يتجزأ من أراضي البرتغال.

٢- أن تتـبع هـذه الأقاليم وزارة ما وراء البحار ويعاون الوزير مجلس استشاري، ولكل إقليم حاكم عام يديره.

٣- عقـد مؤتمر عام في لشبونة كل ثلاث سنوات يحضره حاكم الأقاليم.

٤- تشـجيع سياسـة الاندماج، أي منح الأفريقي الذي يتعلم اللغة البرتغالية ويعتنق المسيحية حق المواطنة البرتغالية.

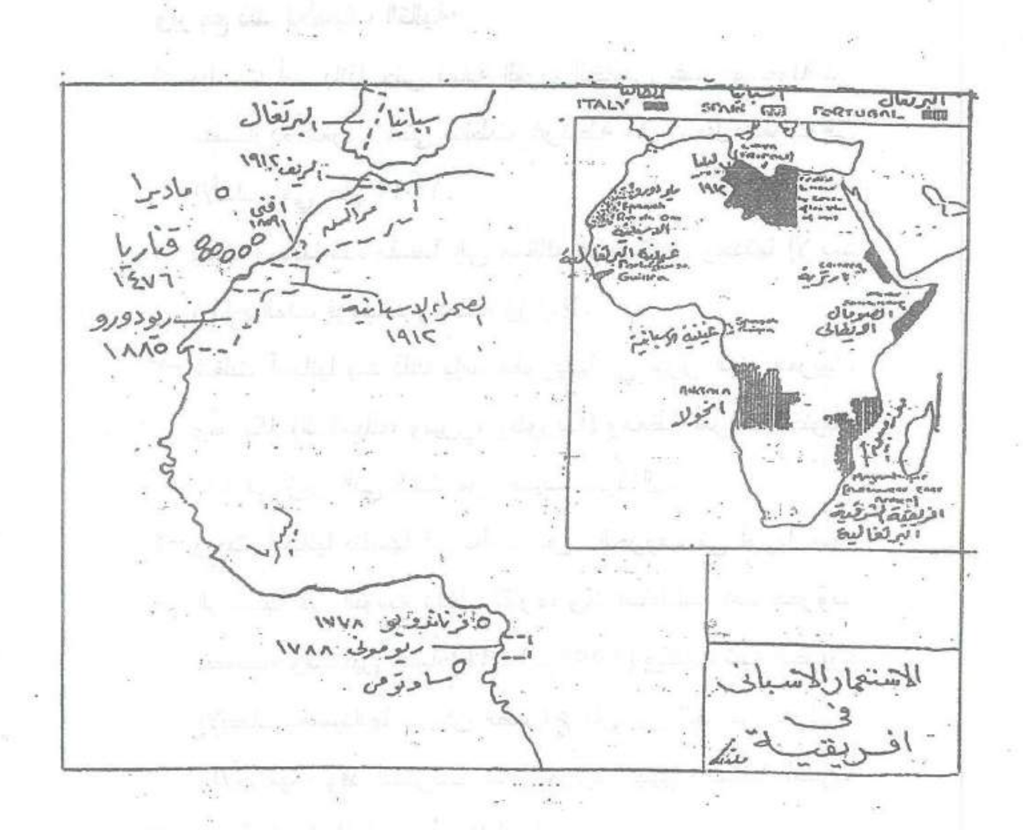
٥- خضوع الأفريقيين لنظام بطاقات الانتقال.

واستمرت البرتغال تمارس هذه السياسة الوحشية ومنعت رجال الأمم المتحدة من زيارة الأقاليم البرتغالية، لكنها أمام قوة المقاومة الوطنية والرأي العام العالمي ألغت نظام العمل الإجباري، وخففت من العقوبات التي كان يتعرض لها المواطن، وسارت الأمور على هذا المنوال حتى تخلصت الحكومة البرتغالية من حكم الطاغية سالازار، وبعدها بدأت المستعمرات البرتغالية تحقق استقلالها.

الفصل الرابع

الاستعمار الأسباني في أفريقيا

- المستعمرات الأسبانية في أفريقيا
- المقاومة الوطنية للاستعمار الأسباني



البرتغال
سبانيا
الريف ١٩١٢
ماديرا
افني ١٨٦٩
مراكش
قناريا
١٤٧٦
الصحراء الاسبانية
١٩١٢
ريودورو
١٨٨٥
فرناندوبو ١٧٧٨
ريوموني ١٧٨٨
ساوتومي
ITALY
SPAIN
PORTUGAL
ايطاليا
اسبانيا
البرتغال
ليبيا
١٩١٢
ريودورو
الاسبانية
غينية البرتغالية
Portuguese Guinea
اريترية
الصومال الايطالي
غينية الاسبانية
ANGOLA
انجولا
الافريقية الشرقية البرتغالية
الاستعمار الاسباني
في
افريقية

كـــان للأســـبان دور بـــارز في أوائل حركة الكشوف الجغرافية الحديثة لكن الأسبان لم يلعبوا دوراً حاسماً في أفريقيا باستثناء دورهم في شمال غرب القارة (المغرب).

ويرجع ذلك للأسباب التالية:

١- ظلــت أســبانيا حتى نهاية القرن الخامس عشر مشغولة في مطـــاردة العرب حتى سقطت غرناطة آخر معقل للعرب في الأندلس في عام ١٤٩٢.

٢- بقيت أسبانيا مدة مقسمة إلى ممالك فلم تستكمل وحدتها إلا بعد زواج الملك فرديناند والملكة إيزابيلا.

٣- شغلت أسبانيا بعد ذلك بإمبراطوريتها في جزر الهند الغربية، وأمريكا (المكسيك، وبيرو، وفلوريدا) ومعظم أمريكا الجنوبية عدا البرازيل التي كانت من نصيب البرتغال.

٤- زجت أسبانيا بنفسها في سلسلة من الحروب في أوربا بسب الرغـــبة في التوسع داخل القارة، وقد استطالت هذه الحروب خمســـة وســـتين عاماً (١٤٩٤ـ١٥٥٩) وكانت شبه الجزيرة الإيطالـــية ميدانها ــ لكن الصراع كان بين الجيوش الفرنسية والأسبانية، وقد استنزفت هذه الحروب جهود أسبانيا البشرية والمادية وشغلتها عن أي نشاط آخر.

٥- سياسة التعصب المذهبي التي اتبعها ملوك أسبانيا واستعانتهم بمحـــاكم التفتيش التي سلطوها للفتك بالبروتستانت والمسلمين واليهود وغيرهم الذين اعتبروهم ملحدين، فأساءت إلى أسبانيا واستنزفت جهودها فيما لا طائل منه.

٦- الصـــراع بين الأسبان والدول البحرية الأوربية الأخرى التي بـــدأت تظهر في ميدان الاستعمار وفي مقدمتها إنجلترا التي نجحـــت فـــي تدمـــير الأسطول الأسباني (الارمادا) في عام ١٥٨٨.

فالمشكلات التي واجهتها أسبانيا في أوربا، بالإضافة إلى مشاغلها فـــي أمريكا استنزفت جهود الأسبان وصرفت أنظارهم عن المزيد من المغامرات في القارة الأفريقية.

المستعمرات الأسبانية في أفريقيا

أولاً: جزر كناريا:

مـــنذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٧٦) وقعت جزر كناريا فـــي أيـــدي الأســـبان وكثر عدد المهاجرين الأسبان إلى هذه الجزر واختلطوا بالسكان الأصليين وتزوجوا منهم.

وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للأسبان فاستخدموها كمحطة بحرية لســـفنهم التـــي تعبر المحيط الأطلنطي خلال الخمسين سنة الأولى من اكتشاف واستعمار الأمريكتين.

وقـــد أدركـــت إنجلترا أهمية موقع جزر كناريا لها كدولة بحرية بالإضـــافة إلـــى ملاءمة مناخها، فأرسلت قوة للاستيلاء عليها ــ لكن عجـــزت القـــوة الإنجليزية في التغلب على مقاومة أهالي هذه الجزر والمســـتوطنين الأسبان، ونجحت السياسة التي اتبعتها أسبانيا في حكم هـــذه الجزر وإدارتها ــ إذ سمحت بإقامة حكومة شبه مستقلة فيها من ســـكانها والمستوطنين الأسبان ــ في إتاحة الفرصة لهذه الجزر للتقدم والتمتع بهدوء.

وفي القرن التاسع عشر حين اشتد الصراع الاستعماري الأوربي علـى القارة الأفريقية حاولت أسبانيا مد نفوذها على الساحل الأفريقي المقابل ـ كما سنوضح فيما بعد ـ.

ثانياً : مدن وثغور شمال أفريقيا والصراع مع العثمانيين:

بعد أن تخلص الأسبان من العرب بعد سقوط غرناطة آخر حصن عربـي في الأندلس في ١٤٩٢ تتبعوا العرب في المدن الساحلية على الشاطئ الشمالي للقارة المواجه لهم فاحتلوا مليلة، ووهران، والجزائر، وسوسة، وصفاقس، وغيرها من مدن وثغور شمال أفريقيا.

وكانـت الأوضاع في الشمال الأفريقي سيئة فقد قامت بهذه البلاد منـذ سـقطت دولـة الموحدين (١٢٦١) إمارات متنافسة في تونس والجزائر ومراكش.

علـى أن أطمـاع الأسبان في مدن شمال أفريقيا وثغورها أدت لاصطدامهم بالعثمانيين الذين كانوا يمثلون القوى الرئيسية في الشرق العربي ـ فقد أعلن (خير الدين بربروس) في الجزائر ولاءه للسلطان العثمانـي ليسـتند على قوة العثمانيين في صراعه مع الأسبان وهكذا أصبحت الجزائر ولاية عثمانية.

وكـان الأسـبان قد استولوا على وهران وبنوا في جزيرة مقابل الجزائر حصن (Penon) واتجهت أنظارهم إلى تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين.

وحـاول العثمانيون بمساعدة حكامهم في الجزائر مد نفوذهم إلى تونس فلجأ الأمير الحسن الحفصي للأسبان، وهكذا اشتد الصراع بين الأسبان والعثمانيين.

وقد جرد شارل الخامس ملك أسبانيا عام ١٥٤١ قوة كبيرة للاستيلاء على الجزائر لكن تعرض الأسطول الأسباني لعواصف وأمطار عرقلت وصوله لأهدافه.

وانتهى الصراع العثماني الأسباني في تونس في عام ١٥٧٤ حين تمكنت حامية عثمانية بقيادة (سنان باشا) من القضاء على آخر أفراد الأسرة الحفصية التي كانت تعتمد على مساندة الأسبان.

وحاول الأسبان عام ١٥٩٢ الاستيلاء على جزيرة جربا ـ لكنهم منوا بهزيمة منكرة، وقبل نهاية القرن الثامن عشر كانت أسبانيا قد جلت عن معظم الأقاليم التي استعمرتها في شمال أفريقيا ما عدا مليلة (Melila) وسبته (Sebta) التي آلت إليها من البرتغال بعد احتلالها للبرتغال ذاتها في القرن السادس عشر أيام فيليب الثاني ملك أسبانيا، ولا زال هذان الثغران المغربيان في يد الأسبان إلى الآن.

ثالثاً: المغرب الأقصى (مراكش):

جاء استيلاء فرنسا على تونس عام ١٨٨١ نذيراً للأسبان بألا يتركوا الفرصة تضيع منهم لغيرهم من الاستعماريين ـ فشجعت الحكومة الأسبانية هجرة رعاياها للساحل الأفريقي المقابل ـ لكن لم تستطع أسبانيا أن تتخذ خطوة فعالة تحقق بها أطماعها مع الدول الاستعمارية الأخرى إلا بعد أن فقدت أغلب مستعمراتها في أمريكا والمحيط الهندي، وتمثل نشاط أسبانيا الاستعماري فيما يلي:

١- استولت أسبانيا على مدينة إفني (Ifni) بموجب معاهدة عقدت بينها وبين المغرب في عام ١٨٥٩.

٢- كما استطاعت أسبانيا في الفترة التي وصل فيها التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية مرحلة الصراع منذ ١٨٨٤ـ

أن تقـوي نفوذها في المنطقة الساحلية المواجهة لجزر كناريا فرفعـت علمها عليها سنة ١٨٨٥ وأطلقت عليها اسم ريو دي أورو (Rio de Oro) (نهـر الذهب)، وأعلنت أسبانيا حمايتها علـى المساحة الممتدة من الرأس الأبيض إلى رأس بوجادو، وقـد أطلقت عليها اسم (الصحراء الأسبانية)، وأصبحت لهذه المنطقة أهمية خاصة بعد اكتشاف الفوسفات فيها.

٣- وكانـت أسبانيا تتطلع لتوسيع نفوذها في المغرب خاصة في الجهات المحيطة بمناطق نفوذها في مليلة وسبته.

وكانـت حالة المغرب سيئة فالفوضى تضرب أطنابها في الإدارة ووصلت الحالة الاقتصادية إلى درجة كبيرة من السوء، هذا بالإضافة إلى التنافس المحموم على النفوذ في المغرب بين الدول الأوربية.

فقـد كـان لإنجلـترا التي تحتل منطقة جبل طارق منذ ١٧٠٤ مصالح حيوية في الأقاليم المواجهة لجبل طارق ـ هذا بالإضافة إلى مصالح إنجلترا الأخرى في البحر المتوسط والدول المطلة عليه خاصة بعد احتلالها لمصر عام ١٨٨٢.

وكانـت لفرنسا مصالح بحكم وجودها في الجزائر وتونس، وقد حـدث صدام بين الفرنسيين والمغاربة بسبب معاونة المغرب للأمير عـبد القـادر الجزائري الثائر ضد فرنسا في الجزائر فزحفت القوات الفرنسـية على الحدود الشرقية للمغرب وهزمت الجيش المغربي في (معـركة أسـلي) ١٨٤٤، لكـن عقـدت (اتفاقية طنجة) ١٨٤٤ بين الطرفين تعهدت بموجبها المغرب بتسريح قواتها الموجودة على الحدود الجزائرية وعدم تقديم المساعدة للأمير عبد القادر.

أما ألمانيا ــ فكانت قد اكتملت وحدتها أخيراً وكانت تتطلع لمركز خــاص في المغرب، وكانت إيطاليا أيضاً تنظر بعين الحقد إلى فرنسا التــي ســبقتها فــي وضع يدها على الجزائر وتونس وكانت ترى أن حصولها على المغرب هو التعويض الوحيد عن هذه الخسارة.

وكانت أسبانيا ــ تدرك كل هذه المصالح المتضاربة، وكانت تعلم أن تحقيق مصالحها في المغرب يتوقف على مدى نجاحها في التوفيق بين مصالحها ومصالح هذه الدول الاستعمارية.

وقــد اتجهت أسبانيا للاتفاق مع فرنسا ليمكنها أن تحقق أطماعها في المغرب ــ ووصلت الدولتان إلى اتفاق أولي في عام ١٩٠٢.

علــى أن فرنسا نفسها كانت تسعى للوصول إلى اتفاق ليمكن أن تحقق هي الأخرى أطماعها في المغرب.

وقــد مــرت التســويات بيــن الدول المتنافسة على المغرب في مراحل:

١- ففــي عــام ١٩٠٤ وصــلت فرنسا وإنجلترا لاتفاق (الاتفاق الــودي) وبموجبه تقرر أن تطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر فلا تطالبها بتحديد موعد لإنهاء احتلالها لمصر في مقابل ترك إنجلترا يد فرنسا في المغرب.

٢- علــى أن الحكومة المغربية استناداً لتأييد ألمانيا لها دعت في ١٩٠٦ لعقــد مؤتمــر دولــي للــنظر فــي شئون المغرب، وعارضــت فرنســا فــي ذلــك لكن عقد المؤتمر في مدينة (الجزيــرة الخضــراء) الأســبانية في يناير ١٩٠٦ وحضره مــندوبو ١٢ دولــة ورغم أن الدول اتفقت في المؤتمر على احــترام استقلال المغرب ــ لكن بنود الاتفاقية الأخرى كانت نصراً لفرنسا وأسبانيا وللدبلوماسية الإنجليزية.

فلـم يمـض على توقيع (ميثاق الجزيرة الخضراء) عام واحد حـتى كانـت فرنسا قد احتلت (وجدة) على الحدود الجزائرية المغربـية وأسـرعت أسبانيا لاحتلال مناطق هامة في الريف وتطورت الأحداث فاحتلت فرنسا (الرباط) ثم فارس.

٣- وأثـارت هذه الأحداث ألمانيا فأرسلت في عام ١٩١١ إحدى سـفنها الحربـية إلـى ميناء (أغادير) المغربي على المحيط الأطلسـي في شبه مظاهرة عسكرية، لكن فرنسا وصلت إلى اتفاق مع ألمانيا تركت فرنسا لها بموجبه رقعة من أملاكها في حوض الكونغو مقابل ترك الحرية لفرنسا في المغرب.

٤- واتفقـت فرنسـا مع إيطاليا على أن تترك يد إيطاليا حرة في ليبيا مقابل ترك الأمر لفرنسا في المغرب.

وبذلـك لم تجد فرنسا عقبة في إلزام السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب على أن يوقع في مارس ١٩١٢ على (إعلان الحماية).

وجرت مفاوضات بين أسبانيا وفرنسا انتهت بتحديد المنطقة التي وضـعت تحـت الـنفوذ الأسباني وأطلق عليها اسم(المنطقة الخليفية) ويطلق عليها الأسبان اسم (الريف الأسباني).

وفي عام ١٧٧٨ عندما صارت أسبانيا مهتمة كل الاهتمام بتجارة الرقـيق على الساحل الغربي لأفريقيا، لحاجتها إلى مدد منتظم منه في ممـتلكاتها الأمريكـية حصـلت من البرتغال على تنازل عن جزيرة فرناندوبو، كما امتدت ادعاءاتهم مسافة صعوداً مع نهر موني (Muni) عـام ١٧٨٨، وحـددت حدود هذه المنطقة التي صارت تسمى غينيا الأسبانية (ريوموني).

سياسة أسبانيا في حكم منطقة نفوذها في المغرب:

ميزت أسبانيا بين المناطق السابق احتلالها (مليلة، سبته، إفني، منطقة الصحراء الغربية) واعتبرتها أرضاً أسبانية تخضع لحكومة مدريد مباشرة، وبين المناطق الأخرى التي تستمد أسبانيا نفوذها فيها من معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان المغربي.

واتخذت أسبانيا مدينة (تطوان) مركزاً لإداراتها للمنطقة الجديدة التي آلت إليها، وعينت مندوباً سامياً أسبانياً لإدارتها ـ وقد عرفت (بالمنطقة الخليفية) كما ذكرنا لأن السلطان يعين واحداً من أعضاء أسرته لرعاية شئون المواطنين بها ـ وكانت لأسبانيا بهذه المنطقة وزارات لمختلف الشئون.

وقد شجعت أسبانيا هجرة الأسبانيين للمنطقة التي خضعت لهم في المغرب.

المقاومة الوطنية للاستعمار الأسباني:

اقترنت المقاومة الوطنية في المغرب العربي بوجه عام، وإقليم الريف الأسباني بشكل خاص بتلك الانتصارات الرائعة التي سجلها الزعيم المغربي محمد عبد الكريم الخطابي الذي سجل بحروف من نور صفحات كلها عز وفخار لكل مسلم يريد أن يقرأ عن هذه البطولات العربية ضد قوتين أوربيتين هما أسبانيا وفرنسا، وكانت مقاومته عاملاً قوياً في هز كيان الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا، بل وأثر على كل النظم الاستعمارية هناك.

ولد الأمير عبد الكريم الخطابي (الوالد) في منطقة الريف[١] في الوقت الذي تطلعت فيه الدول الأوربية نحو استعمار شمال أفريقيا.

---

(1) كلمة ريف ليس لها المعنى الشائع في الشرق العربي والذي يعني المناطق الزراعية، ولكنها تعني في المغرب طرف الشيء أو نطاقه الخارجي، وهي تعني الساحل الشمالي، وصارت تطلق على المنطقة المحيطة بسبته غرباً حتى حدود الجزائر شرقاً. وطبقاً لهذه التحديد فإن

وكانت قبيلة ورياغل التي تقطن إقليم الريف من أشهر القبائل هناك، وكان الأمير عبد الكريم رئيس القبيلة الحاكمة في الريف على علاقة بالعالم الأوربي، ولما أعلن الأسبان الحماية عام ١٩١٢ على المنطقة وقف الأمير وأعلن رفضه لهذه الحماية.

فما كان من المندوب السامي إلا أن أصدر أوامره بالقبض على أبنه وإلقائه في السجن.

انتظر الشيخ لحين عوده أبنه الأكبر من السجن، وعودة أبنه الثاني محمد من مدريد وأعلن القطيعة بينه وبين الأسبان، وصمم على مقاومة الأسبان وإخراجهم من بلاده.

معركة أنوال :

قبل دراسة هذه المعركة التاريخية الحاسمة يجدر بنا أن نلقي نظرة على الوضع الأسباني في المغرب، ثم وضع الريف وأحداث هذه المعركة الهامة وأهم ما ترتب عليها من أحداث.

حاولت أسبانيا استخدام القوة لإخضاع الريف في الوقت الذي كانت فيه أسبانيا أكثر تخلفاً من فرنسا في المجال العسكري، وكان الجنود يفتقرون إلى التدريب الحديث، وكانت القوات الأسبانية في المغرب تنقسم إلى ثلاث قيادات، الأولى في مليلة في الشرق، والثانية في سبته أمام المضايق، والثالثة في العرائش على المحيط الأطلسي.

بدأ الأسبان عملياتهم الحربية من قواعدهم الثلاث في سبتمبر ١٩٠٩ واحتلوا طنجة عام ١٩١١، ولم يتوغلوا في بلاد الريف لأنها

بلاد الريف تمتد بمحاذاة البحر على مسافة طولها ١٢٠ ميلاً وعرضها ٢٥ ميلاً، وتقطن هذه المنطقة قبائل الجبالا ذات الأصل البربري، إلى جانب سكان المدن من العرب الذين اختلطوا بالبربر، ومن القبائل البربرية التي تسكن الريف قبيلة ورياغل التي ينتسب إليها الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي.

صعبة المسالك وفكر الأسبان في طريقة لاستمالة الزعماء المحليين، وخصوصاً احمد الريسولي الذي رفض التعاون معهم، وهاجم الأسبان شفشاون.[1]

وفي عام ١٩٢٠ حاول الأسبان تطويق منطقة الجبالا، وهاجموا الريسولي وأعطاه القائد الأسباني مهلة للاستسلام ولكن تغير الموقف بسبب هزيمة الأسبان على أيدي قبائل ورياغل في قطاع مليلة بقيادة الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي.

وكان الجنرال سيلفستر قد تقدم إلى نهر القرط، واحتل دار دريوس في مايو ١٩٢٠، ولم يلق مقاومة من قبائل ورياغل حتى وصل إلى أطراف أنوال في مايو ١٩٢١ فأرسل إلي الأمير الخطابي يحذره من احتلال الإقليم.

واضطر الجنرال سيلفستر إلى تركيز قواته في أنوال خصوصاً أنه فشل في الحصول على دعم من القيادات الأخرى، وحصن أهل الريف المكان وردوا الأسبان القادمين للموقع في أنوال، وعندئذ حاول سيلفستر إنقاذ الموقف، وقرر الانسحاب، بعد أن أحس بالتهديد لقواته المطوقة في أنوال، وفقد القائد الأسباني السيطرة على الموقف، ووقعت الكارثة في الثاني والعشرين من يولية عام ١٩١٢ حيث حلت الهزيمة الساحقة بالقوات الأسبانية، ولقى القائد الأسباني نفسه حتفه في هذه المعركة.

---

(1) كان أحمد الريسولي قد درس القانون في شبابه، لكنه استسلم لحياة المغامرات، وصار يسرق الماشية أتباعه، ثم يردها لأصحابها مقابل دية تدفع لـه، وقد قويت شوكته بين قبائل الجبالا، ولـذا عينه السلطان عبد الحفيظ باشا على قبائل جبالا، ولما بدأ الاحتلال الأسباني لبلاده، كان من الطبيعي أن يصطدم بقوة الريسولي، وتقدمت القوات الأسبانية إلى تطوان واحتلتها عام ١٩١٣، وقام الريسولي بمهاجمتهم، وأرسلت أسبانيا تعزيزات للمنطقة، واضطرت أسبانيا لمهادنته وعقدت منه صلحاً اعترفت فيه بحكمه في منطقة الجبالا.

وهـرب الأسـبان في ذعر وخوف بعد أن واصل رجال الريف مهاجمة القوات المنسحبة، وفي ٢٥ يولية استولى أهل الريف على كل مواقع الإقليم، وامتدا حتى أسوار مليلة ذاتها والتي وصل إليها الجنرال الأسباني بيرنجر في ٢٣ يولية، ولكنه فشل في إنقاذ الموقف المتدهور، وظـل هـذا القائد محاصراً حتى التاسع من أغسطس، وسلم للوطنيين الذين أرسلوه للأمير الخطابي.

ورغم أن الجيش الأسباني كان يفوق الجيش المغربي في الريف عـدداً وعـتاداً، فقد نجح الريفيون في تحرير معظم المنطقة التي كان الأسـبان قد استولوا عليها في عام ١٩١٢ وظل حزام المدن الساحلية فقط تحت السيطرة الأسبانية.

وكانـت حروب الأمير الخطابي من أغرب الحروب في التاريخ حيث لم تكن حرباً بين جيشين متساويين، كما لم تكن حرباً بين بلدين، بل إنها كانت نضالاً بين دولة أوربية قوية، وبين زعيم قبلي ليس لديه مـن المـوارد سوى ما تدره عليه المنطقة المحددة التي كان يسيطر علـيها، ولـم يكـن الرجال مدربين على فنون الحرب الحديثة وكان يقودهم زعيم لم يدخل يوماً من الأيام باب مدرسة حربية.

وكانـت هـزيمة الأسبان قاسية حيث قضت على جيش سيلفستر وخسر الأسبان ١٤٧٧٢ رجلاً، ٥٩,٥٠٤ بندقية، ٣٩٢ مدفع رشاش، ١٢٩ مدفع ميدان بالإضافة إلى حوالي ٧٥٠ أسيراً.

واعـتمدت خطة الأسبان في المرحلة التالية لمعركة أنوال على التفاوض مع الريسولي حتى يركزوا قواتهم ضد الأمير الخطابي.

وفـي ٢٨ سـبتمبر ١٩٢٢ تـم الاتفاق مع الريسولي الذي قرر الاستسـلام مقـابل تركه سيد الموقف في منطقته وجلى الأسبان عن تازاروت، ودفعوا للريسولي تعويضاً عن الأضرار التي لحقت به.

واستطاع الأمير الخطابي بسط نفوذه على كل الريف وغمارة واتحدت المنطقة تحت حكومة موحدة، وصارت (أجدير) عاصمة لتلك الدولة الجديدة، وأخذت أسبانيا تسعى للتفاوض مع الأمير في يناير ١٩٢٣، وإخلاء سبيل الأسرى مقابل أربعة ملايين بسيطة أسبانية، وعرضت أسبانيا على الأمير حكم منطقة الحماية الأسبانية من قبلهم، لكن الأمير رفض ذلك، وفشلت المفاوضات بين الأسبان والأمير، وواصل أهل الريف الضغط على الأسبان وتمكن رجال القبائل من قطع الطرق بين تطوان وشفشاون، وحاصروا قوة من الأسبان قوامها ثلاث آلاف جندي، وهاجموا الأسبان في مقرهم في تطوان نفسها.

وكان الأمير قد قرر في صيف ١٩٢٤ القيام بهجوم عام، وكانت تطوان أول الأهداف في هذا الهجوم، ونجحت قواته فعلاً في الوصول إلى ضواحي المدينة، وسقطت قنابل مدفعيتها في الشوارع، لكنها عجزت عن اجتياح أسوارها، واضطر بريمودي ريفيرا إلى ترك العاصمة الأسبانية والحضور إلى المغرب للإشراف بنفسه على القتال، وكانت مهمة صعبة جداً.

ونجح الأسبان في فك حصار شفشاون بعد معارك استمرت عشرة أيام وعينت أسبانيا الماركيز (دي استيلا) مندوباً سامياً وقائداً عاماً، وبدأ هذا القائد في سحب القوات الأسبانية في الوقت الذي استولت فيه قوات الريف على القصر الصغير، وقد كلفت هذه العملية أسبانيا حوالي ٢١,٢٥٠ ما بين قتيل ومفقود وأسير من الجنود والضباط.

وحاول الأسبان إعادة فتح الطريق بين طنجة وتطوان، واحتلوا القصر الصغير في يناير ١٩٢٥ وكان الأمير الخطابي يواصل تدعيم

سـلطته الـثورية في منطقة جبالا، ونجح في القبض على الريسولي، ونقله إلى أجدير حيث مات هناك، وبعد موته صار عبد الكريم رئيساً وزعيماً وقائداً للثورة دون منافس.

ورفض الأمير لقب سلطان، وفضل لقب أمير الريف، كما رفض إنشـاء بـلاط، وظل يعيش في منازل ريفية، وجعل أخاه قائداً للجيش النظامـي، وأعد جيشاً مجهزاً بأحدث الأسلحة الأوربية ووضع نظاماً لجباية الضرائب، كما وضع قوانين جديدة، وقرر تأليف حكومة وطنية تديـر شـئون الـبلاد (جمعـية وطنية)، وأعلن الميثاق الذي تضمن الاعـتراف بالاسـتقلال الـتام للدولة الريفية من خطوط الحدود مع مـراكش حتى البحر المتوسط، وأعلن قيام الجمهورية بالريف، ودعى جمـيع الـدول إلى إقامة خدمات قنصلية ودبلوماسية في مقر حكومة الريف في أجدير.

وأعلن الخطابي عن أهداف حكومته في عدم الاعتراف بالحماية الفرنسـية وجلاء الأسبان عن كل ما احتلوه عدا سبته ومليلة، وإقامة علاقات طيبة مع كل الدول.

وفـي مايو في نفس العام (١٩٢٤) بدأت أسبانيا تسعى للوصول إلـى هدنـة مع الأمير على أساس عدم تحريك القوات الأسبانية من أماكـنها، ولكـن فشـلت المفاوضات بسبب اشتراك كل من الأسبان والفرنسيين في حرب الأمير.

فرنسا والصراع مع الأمير الخطابي:

فـي بداية ثورة الأمير عبد الكريم ضد الأسبان رحب الفرنسيون به ووجدوا فيه فرصة للانتقام من أسبانيا لمواقفها أثناء الحرب العالمية

الأولــى والعناصر الثورية المعادية لفرنسا والتي اتخذت من المنطقة الأســبانية قــاعدة للعمــل، وأعطت فرنسا الأمير الأسلحة والذخيرة بصــورة علنــية انتقاماً من موقف الأسبان خلال الحرب، وكان وفد الــريف يتــنقل بســهولة وحرية بين المنطقة الفرنسية وبين الجزائر والــريف، وكــان هــذا الموقف الفرنسي أكثر من مجرد الانتقام من الأسبان.

وكان اعتقاد الفرنسيين أن ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى سوف تسمح لهم بالمطالبة بتعديلات في المنطقة، وكانوا يأملون في أن ســيطرة عبد الكريم على الريف تساعدهم للحصول على امتيازات في البحــث عــن المعادن في الريف، ولكن في عام ١٩٢٤ تغير الموقف الفرنسي تماماً.

وأغلــق ليوتــي – المقــيم العام الفرنسي – الحدود مع الريف، وضــبط قوافــل التموين وهي في طريقها إليه وقرر مهاجمة الريف ورغــم عــدم وجود حجة لذلك، ومن الطبيعي بعد انتصارات الأمير عبد الكريم ضد الأسبان وتكبيده لهم الخسائر الفادحة، وإنشاء جمهورية الريف أن يعكر هذا التطور صفو الحياة عند الفرنسيين الذين اقتسموا المنطقة مع الأسبان فكانت هذه العوامل سبباً في تحالف فرنسا وأسبانيا ضد الأمير.

وتقدم الفرنسيون في مايو عام ١٩٢٤ وعبروا أعالي نهر الورغة دون أن يلقوا مقاومة عنيفة من سكان الريف.

وأمضــى ليوتي شتاء عام ١٩٢٥ يعد الخطط لسحق عبد الكريم الذي بادر بالهجوم في منتصف أبريل ١٩٢٥ واندفع كالصاعقة ونجح فــي احــتلال خمسين مركزاً فرنسياً، وصار على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً من مدينة فاس.

ولقد كان هجوم الأمير عبد الكريم على الفرنسيين سبباً في تحرج موقـف ليوتي الذي طلب إمدادات من فرنسا لكنها لم تصله في الوقت المناسـب وهبطـت أرصـدة ليوتي السياسية وزاد خصومه وانهالت الهجمـات عليه من كل صوب، وبدأ المستوطنون الفرنسيون يرسلون برقـيات ينتقدون فيها سياسية ليوتي، ويطالبون بإرسال قائد عسكري قوي مع نجدة قوية، والانتقال من الدفاع للهجوم.

وزاد الأمـر سوءاً عندما تقدمت القوات الفرنسية شمالاً على أمل اللقـاء بـالقوات الأسـبانية، لكن قيادة الأسبان كانت قد اتخذت قراراً بالانسـحاب ووجـدت القـوات الفرنسية نفسها وجهاً لوجه أمام ثوار الريف.

وتمكنت قوات الريف من إذاقة الفرنسيين مرارة الهزيمة في أكثر من لقاء، وصارت الجبهة الشمالية للقوات الفرنسية مكشوفة، ولذا قرر الفرنسيون إنشاء خط دفاعي ثابت للدفاع عن منطقتهم من هجوم أبناء الريف.

وأقرت الحكومة الفرنسية مخطط ليوتي للحملة ضد الريف، وكان ليوتـي بارعاً حيث أدرك أن هذه الثورة ليست ثورة قبائل بل هي بدء ظهـور دولة مغربية موحدة، ولذا استغل المنافسات الشخصية للإيقاع بيـن زعماء الثورة المغربية ولإحداث الفرقة في صفوف الثوار، لكن نجاح عبد الكريم وقضائه على خصمه الريسولي جعل القبائل المترددة تنضم إليه، وفشلت دبلوماسية ليوتي في الإيقاع بين الزعماء في منطقة الريف.

لقـد أدركت فرنسا أن نجاح ثورة الريف بقياد الأمير عبد الكريم الخطاب تعني ضياع كل المغرب الأقصى والجزائر وتونس، ومن هنا

جـــاء التفكير في إرسال الجنرال بيتان إلىّ المغرب في يوليه ١٩٢٥، وحـــدث اجـــتماع بيـــن الجنرالين ليوتي وبيتان والمارشال الأسباني بـــريمودي دي ريفيرا لوضع إمكانياتهم معاً، وللتخطيط سوياً من أجل إخضاع الزعيم المغربي.

وقد نص الاتفاق الفرنسي الأسباني على ما يلي:

١- ألا تعقد الدولتان أي صلح منفرد مع قبائل الريف.

٢- تتفق الحكومتان على أن تحقق لقبائل الريف الاستقلال الذاتي طـــبقاً للمعـــاهدات الدولـــية، وتحت سلطة رئيس تختاره هذه القبائل.

٣- أن تضمن المقترحات التي ستعرض على القبائل عملية قبول الاحتلال الأسباني السلمي لقطاع معين وتبادل الأسرى.

٤- استمرار الأعمال العسكرية حتى تنتهي المفاوضات إلى نتيجة.

٥- في حالة فشل المفاوضات تعلن الدولتان مقترحاتهما ويحملان الأمير محمد عبد الكريم الخطابي مسؤولية استمرار النزاع.

وواضح من هذا الاتفاق أن الدولتين قد تجاهلتا تماماً الأمير ولهذا عـــندما عينت الحكومتان مندوبيهما رفض عبد الكريم استقبالهما ما لم تقبل الحكومتان الاعتراف باستقلال الريف.

وفـــي ١٣ أبـــريل ١٩٢٥ بدأ رجال الريف الهجوم على القوات المعاديـــة وتوغلـــوا فـــي الخطـــوط الفرنسية، وأثاروا القبائل خلفهم واضـــطرت القـــيادة إلى إخلاء المواقع التي انقطعت صلتها بقواعدها الأصـــلية، وتأزم الموقف في منطقة (تازا) التي أخلاها الفرنسيون بعد معركة عنيفة مع رجال الريف.

هزت هزيمة الفرنسيين في تازا الرأي العام الفرنسي بشكل أجبر الحكومـــة علـــى تغيـــير قيادتها، فعين القائد تاولان قائداً عاماً للقوات الفرنســية في المغرب. وكانت الهزيمة قاسية على الفرنسيين، وكانت فرصة لكي يشن الحزب الشيوعي الفرنسي هجومه على البورجوازية الاســتعمارية ويظهر تأييده لقضية الريف ، وردت الحكومة الفرنسية علـــى ذلـــك بأن أعلنت أمام مجلس الأمة أن سياستها سلمية ودفاعية. ولقـــد أخطـــأ الأمير عبد الكريم حينما ضيع الفرصة ولم يستول على فاس وتازة قبل أن تصل التعزيزات لهم.

إزاء كل هذا كان على فرنسا أن تتعاون مع أسبانيا للقضاء على هـــذه الـــثورة الريفية التي صارت تهدد الكيان الفرنسي والأسباني في شمال القارة، وأرسل الأمير عبد الكريم إلى الأسبان في تطوان يصر علـــى ضرورة الاعتراف باستقلال الريف كشرط أساسي للدخول في مفاوضـــات للصلح ـ لكن الدولتين أعلنتا شروط الاتفاق، وأقرتا عدم الاعتراف بإعطاء الاستقلال للريف.

وهكذا أصبح واضحاً أن طريق التفاهم مع الأمير قد أوصد وأن السلاح هو الفيصل الوحيد لتقرير مصير هذه المنطقة من العالم.

وفـــي الثاني من أكتوبر ١٩٢٥ بدأت القوات الفرنسية تتوغل في سهل أجدير في الوقت الذي كان مجاهدو الريف يهددون تطوان نفسها، وكانـــت خطة فرنسا سرعة التوغل والالتقاء بالقوات الأسبانية القادمة من مليلة وأجدير.

واضـــطر الأمـــير عبد الكريم إلى نقل عاصمته ومقر قيادته إلى الداخل في الجنوب الغربي من تارجست، واستطاع الأمير تحطيم خط الدفـــاع الفرنسي عند الورغة ووصل إلى أبواب تازا، ولكنه فشل في

الدخــول إلــى فاس في الوقت الذي فشل فيه الفرنسيون والأسبان في القضاء على جيش الأمير، وفشلوا أيضاً في إغراء القبائل للخروج عن طاعته.

مــن هــنا يتضح أن الموقف الحربي لم يحسم المعارك لأي من الطرفين، وأن الصراع طويل ومستمر وصعب، وأنه ليس من السهل القضــاء على هذه المقاومة الإسلامية في جمهورية الريف كما توهم الفرنســيون والأسبان. ولقد استطاع هذا الأمير المسلم الذي يجاهد في ســبيل الله والوطن ــ أثناء العمليات ــ أن يستولي على تسعة مواقع فرنسية، مع إجبارهم على إخلاء اثنين وثلاثين موقعاً وتكبيد الفرنسيين الخسائر الفادحة في أشرس حرب يواجهونها في شمال أفريقيا.

واضــطرت فرنســا أمام هذه المقاومة المغربية العنيفة أن تطلب الإمــدادات بيــن الحيــن والحين وأن تغير القيادات، وأن تعيد تشكيل القوات لمواجهة هذا العدو القوي.

ووصــلت القــوات الفرنســية فــي المغرب في أكتوبر حوالي ١٥٨,٠٠٠ جندي، ورغم كل هذه الاستعدادات والقوات الضخمة التي فاقــت جــيش الأمير ــ إلا أنه استطاع أن يكبد الفرنسيين في معارك يونية وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر حوالي ٨٩١ قتيلاً، ٢٩٩١ جريحاً وإلــى جانــب هذه الخسارة فقد كلفت حروب فرنسا مع الأمير حوالي ٩٥٠ مليون فرنك، ناهيك عن ثمن المعدات التي أرسلتها فرنسا وتقدر بحوالي ٤٥٠ مليون فرنك.

ولم يكن الأمير يواجه هذه الجحافل الفرنسية فقط، بل كانت هناك القــوة الأسبانية التي قدرت بحوالي ٨٥,٠٠٠ جندي، ومع الإمدادات التــي وصلت إليها بلغ عدد الجيش الأسباني هناك ١١٨ ألف جندي،

وإذا أضـفنا قـوات الجانبيـن نجد أن هناك حوالي ٣٠٠ ألف جندي أسـباني وفرنسي أمام قوات الأمير التي لم تصل إلى ستين ألف مسلم مـن الريف. وهذا يدل على ضخامة العبء الملقي على كاهل الأمير أمـام هـذه القرى الصليبية والمسلحة بأحدث أنواع السلاح الأوربي، والأساليب الحربية التي لم يكن الأمير على دراية بها.

وفـي أوائـل عام ١٩٢٦ قامت فرنسا بمحاولة استدراج بعض رجـال القـبائل الثائرة إلى صفها مستخدمة نفس الأسلوب الذي كان الأمـير يتـبعه فيما وراء خطوط العدو، وفي نفس الوقت قامت قوات غـير نظامية بالدخول في أراضي الأقاليم المجاورة للحدود وأجبرتها على الدخول في طاعة الفرنسيين.

وجرت محاولات للصلح بين الطرفين دون جدوى، وأخيراً استعد الطـرفان لمواصلة العمليات الحربية، ووضع كل من بيتان والماركيز دي إستيلا خطة جديدة في مدريد، وفي نفس الوقت أرسل الأمير عبد الكريم بخطاب إلى جريدة التايمز عن طريق مراسلها في طنجة أعلن فـيه استعداده للصلح، لكن الحكومتين الفرنسية والأسبانية أصرتا على فرض الشروط على الأمير ورجال الريف.

ورغم هذا فقد انعقد مؤتمر الصلح في الفترة من ٢٧ أبريل حتى السـادس من مايو، وحدثت أزمات في هذا المؤتمر بسبب مسألة نزع السلاح والاستقلال الذاتي، ومسألة إطلاق سراح الأسرى قبل الانتهاء مـن المفاوضات، وفي السادس من مايو أصبح واضحاً عدم الوصول إلـى اتفاق، وانصرف مندوبو فرنسا وأسبانيا بعد بدء الاجتماع بربع سـاعة، وسافر مندوبو الريف من وجدة في نفس المساء، وفي صباح اليوم التالي بدأ الهجوم الفرنسي الأسباني على الريف.

تقدمت القوات الفرنسية والأسبانية، واحتلت أنوال يوم ١٨ مايو ١٩٢٦ وكـان لهذا التحالف الأسباني الفرنسي أثره في إضعاف مركز الأمـير بالإضـافة إلى قلة إمكانياته، وفرض الحصار البحري عليه، وأدرك الأمـير أن الاستمرار في الحرب يعني عمليات انتحارية وأن نـزع السلاح من الوطنيين يعني الخراب والنهب والسلب، ولذا خاص المعـركة الأخـيرة مـع تلك الفئة من الرجال المؤمنين التي ساندته وآزرته في تلك الحرب الصليبية وكان عليه أن يشرف بنفسه على هذه المعارك.

وفـي ٢٧ مـايو ١٩٢٦ استسـلم الأمير الخطابي وأخوه للقائد الفرنسي، وباستسلامه انهارت المقاومة في الريف.

وقـد فضل الأمير تسليم نفسه للفرنسيين ذلك لأن الأسبان كانوا يطالبون بمحاكمته كعاص يستحق الإعدام، أما الفرنسيين فنظروا إليه باعتـباره أسير حرب واكتفوا بنفيه إلى إحدى مستعمراتهم النائية في المحيط الهندي (جزيرة رينون).

وبرحـيل الأمـير انتهت المقاومة المغربية ولم ينته عام ١٩٢٦ حـتى صـارت المنطقة الأسبانية من المغرب تخضع لأول مرة لحكم أجنبي حقيقي.

وفـي عـام ١٩٤٧ سمح للأمير عبد الكريم وأسرته بالإقامة في فرنسـا وفـي مايو من نفس العام بينما كانت الباخرة التي تقل الأمير وأسرته ترسو في ميناء بور سعيد، هبط الأمير وطلب اللجوء السياسي في مصر، ورحبت القاهرة به وعاش الأمير بها حتى مات عام١٩٦٣.

لقـد كانت الثورة، درساً أفاد الوطنيين، واستفادوا منه في معارك الـتحرير، فقد محا عبد الكريم أثار نصر الحرب العالمية الأولى أمام

الفرنسيين، ولقنهم دروساً في القتال لم يألفوها في شمال أفريقيا، ووضع بذور الحركة القومية أمام الشباب المغربي الذي استلهم الرشد والصواب من حركة هذا الزعيم، وحارب، وقاوم حتى تحقق الاستقلال النهائي للمغرب كله.

نهاية الاستعمار الأسباني بالمغرب:

بدأت سنة ١٩٢٦ تظهر بالمغرب الأحزاب الوطنية المطالبة بالاستقلال وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ١٩٤٥) لعب السلطان محمد الخامس دوراً هاماً في مساندة الحركة الوطنية حتى أن فرنسا أقدمت على خلعه في عام ١٩٥٣ وأحلت (محمد بن عرفه) محله، ولكن اضطرت السلطات الفرنسية لإعادة السلطان محمد الخامس لعرشه والاعتراف باستقلال المغرب في عام ١٩٥٦.

وحاولت أسبانيا أن تتمسك بوضعها لكنها اضطرت في نفس العام للاعتراف باستقلال منطقة الريف أيضاً ـ ولما كانت (طنجة) تحت إدارة دولية فقد وافقت الدول على أن تعود للمغرب سيادته عليها من يناير ١٩٥٧.

كما انسحبت أسبانيا من مدينة (أفني)، وبعد المسيرة الخضراء التي دعا إليها الملك الحسن الثاني ملك المغرب اضطرت أسبانيا لعقد اتفاقية بينها وبين المغرب وموريتانيا انسحبت بموجبها أسبانيا من منطقة (الصحراء الغربية) التي كانت تطلق عليها اسم (الصحراء الأسبانية) والتي ترجع أهميتها لوجود معدن الفوسفات فيها ـ لكن تجددت مشكلة الصحراء واشتدت بظهور جبهة (البوليزاريو) المطالبة باستقلال الإقليم وإقامة جمهورية صحراوية فيه، هذا وما زالت

المـــناطق الساحلية السابق استعمارها (مليلة، وسبته) في يد الأسبان، وبالطـــبع يـــتطلع المغاربـــة لعودتها للمغرب الأم، ولعل مصير هذه المـــناطق مرتبط بموضوع جبل طارق الأسبانية التي لا تزال في يد إنجلـــترا والتـــي تـــرجع أهميـــتها لتحكمها في مدخل البحر المتوسط الغربي.

الفصل الخامس

الاستعمار الهولندي في أفريقيا

- تكوين مستعمرة رأس الرجاء
- هجرة البوير وأسبابها
- تكوين دولة أورانج والترنسفال
- الحروب بين الإنجليز والبوير ونهاية الاستعمار الهولندي
- نظام الحكم الهولندي

يعتبر القرن السابع عشر بلا قرن الاستعمار الهولندي، فقد برزت فـيه هولندا كدولة استعمارية كبرى معتمدة على بحريتها وعلى تحول النشـاط البحري إلى طريق رأس الرجاء الصالح بعد أن ضعف شأن الـدول المطلـة علـى الـبحر المتوسط والتي كانت من أهم مراكز الحضـارة فـي العصور القديمة والوسطى، وزاد نشاط الدول المطلة على المحيط الأطلنطي والبحار المؤدية إليه، ومن هذه الدول الأخيرة هولندا.

وكـان موقـع هولـندا الفريد بالنسبة للقارة الأوربية وفي نهاية الشريان الملاحي الهام في هذه القارة الذي يمثله نهر الراين كفيلاً بأن يتيح الفرصة للهولنديين ليلعبوا في هذا القرن السابع عشر الدول الأول في الملاحة البحرية والاستعمار بدلاً من البرتغاليين والأسبان.

وكانـت هولندا قد خضعت هي وبلجيكا للأسبان فترة من الزمن، ولكـن هـب الهولـنديون فـي وجه الأسبان واستطاعوا في (حرب الإصلاح الديني) أن يظفروا باستقلالهم وينهضوا ببلادهم.

وبـدأ الهولـنديون صـفحة نشـاطهم البحري في عام ١٥٩٥، واسـتطاعوا أن يحلـوا محل الأسبان والبرتغال في مواقع متعددة من ساحل أفريقيا الغربي.

تكوين مستعمرة الرأس الهولندية:

فـي سـنة ١٦٠٢ تأسسـت في امستردام (شركة الهند الشرقية الهولـندية) للعمل في الطريق الجديد المؤدي للهند والشرق، كان ذلك إيذانـاً بنشاط بحري وتجاري ضخم أتاح لهولندا فرصة بسط نفوذها علـى كثير من الجهات وراء البحار، وأسس الهولنديون عدة حصون

لهـم على (ساحل الذهب) لخدمة أغراضهم الملاحية والتجارية، وبرز نشاطهم بالذات في تجارة الرقيق بين غرب أفريقيا وأمريكا.

وبذلــك انفتح الطريق أمام الهولنديين إلى شرق القارة، فاستولوا على جزيرة موريشيوس، ثم انتقلوا إلى جزر الهند الشرقية فانتزعوها من البرتغال وأقاموا حكومة بتافياقي جاوة لإدارة مستعمراتهم هناك.

واتجــه الهولــنديون لتقوية حصونهم في منطقة الرأس لمواجهة هجمات الهوتنتوت الذين كانوا قد اندفعوا إلى الركن الجنوب الغربي نم القــارة تحت ضغط قبائل البانتو القادمة من الشمال، وكذلك لمواجهة الــتهديد المستمر من القوى الاستعمارية الأخرى التي بدأت تظهر في المــيدان خاصــة الإنجليز الذين استولوا على جزيرة سانت هلانة من الهولنديين عام ١٦٥٥، والفرنسيين الذين نزلوا في مدغشقر ثم انتزعوا موريشيوس من الهولنديين.

وكانــت المهــام التي كلف بها ريبيك تقضي بأن يضع يده على مســاحات مــن الأرض لحســاب الشركة ليمكن إقامة مخازن للقمح، ومحطــات ملاحــية ويمكن زراعتها وإعدادها للرعي، وبذلك تتوفر اللحــوم والخضروات الطازجة لبحارة السفن التابعة للشركة الهولندية والذيــن كــانوا يصابون بالأمراض نتيجة الحاجة للغذاء الطازج أثناء الرحلات الطويلة في المحيطين الأطلنطي والهندي.

ولتحقــيق ذلــك نجحت شركة الهند الشرقية الهولندية في تشجيع جماعات من الهولنديين للهجرة لمنطقة الرأس، واستقرت جماعة منهم فــي المناطق الصالحة للزراعة في الشمال والشرق وزرعوا الحبوب والكروم والزيتون والخضر والموالح، وأطلقوا على هؤلاء الزراع اسم الــبوير (Boer) كمــا اتجهــت جماعة منهم للهضاب حيث الحشائش

الصـــالحة للرعـــي لتربـــية الحيوانات اللازمة لتوفير اللحوم والألبان وغيرها.

ومنحـــت الحكومة الهولندية لشركة الهند الشرقية الهولندية حرية التصرف في المناطق التي خضعت لها في أفريقيا.

وقـــد قامـــت الحياة الاقتصادية سواء أكانت زراعية أو رعي أو غـــير ذلك على أساس الاسترقاق، فكان عبء العمل واقعاً على عاتق الأرقـــاء من الهوتنتوت، وأتاح ذلك الفرصة للمستوطنين لكي يبدعوا نشاطهم شرقاً وشمالاً ويوسعوا المناطق التي بسطوا نفوذهم عليها في جـــنوب القـــارة، وارتبط الهولنديون في جنوب شرق أفريقيا بعلاقات تجارية مع البرتغاليين في موزمبيق، وقد قامت هذه العلاقات في المبدأ علـــى أســـاس أن يقـــوم المستعمرون البرتغاليون بتوريد ما يحتاجه الهولنديون من رقيق للعمل في أرضهم ومراعيهم لكن اتسع نطاق هذا التعاون فيما بعد.

وفـــي سنة ١٧٩٤ غزت فرنسا وهولندا وهرب ملك هولندا إلى إنجلـــترا وسمح لإنجلترا باحتلال منطقة الرأس ليحول دون قيام فرنسا بهـــذا العمـــل، واســـتمر هذا الاحتلال البريطاني لمنطقة الكيب ثماني سنوات.

وبمقتضى معاهدة أميان ١٨٠٢ بين إنجلترا وفرنسا أعيدت منطقة الكيب ١٨٠٣، وتتابعت الأحداث في أوربا فقد اجتاح بونابرت بجيوشه معظـــم القـــارة ــ لكن استطاع نلسن أن يهزم الأسطول الفرنسي عند (الطرف الأغر) وعزز الإنجليزي هذا النصر بإرسال قوة بحرية لبسط سيطرتهم على منطقة الرأس التي أدركت إنجلترا أهميتها الاستراتيجية في الطريق المؤدي للهند والشرق.

وأقــرت الدول في (مؤتمر فينيا) ١٨١٥ ــ ضم مستعمرة الرأس لإنجلــترا التي أصرت على ذلك ومن ثم أخذت إنجلترا تشجع هجرة الإنجلــيز إلى هذه المستعمرة فهاجر إليها عدد كبير من البريطانيين، ومــن هــذا الــتاريخ ارتــبط تاريخ المستعمرة بالسياسة الاستعمارية البريطانية.

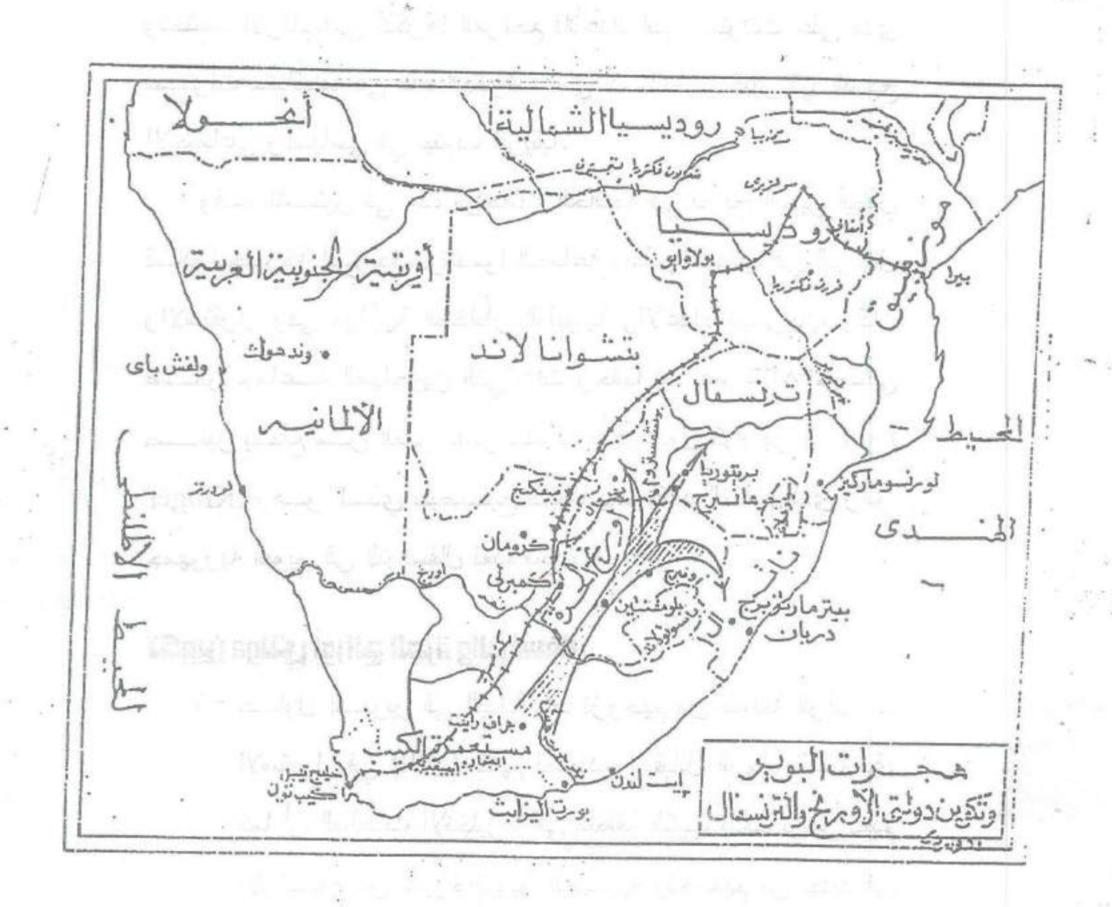
هجرة البوير وأسبابها :

أخذ الإنجليز بعد الاعتراف الدولي لهم باستعمار مستعمرة الرأس يضــيقون علــى البوير في معيشتهم فألغوا المحاكم الهولندية، وجعلوا اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية الوحيدة، كما حاولوا إرضاء البانتو فأعــادوا إلــيهم أراضيهم، ومنحوا الحقوق المدنية للهوتنتوت، وألغوا الرق وحرروا الرقيق الذين كانوا في حوزة البوير، وأدى هذا كله إلى أن يقــرر البوير الهجرة إلى الشمال في جماعات متعاقبة على أمل أن يجدوا مجالاً أوسع يمارسون فيه نشاطهم دون تدخل الإدارة البريطانية فــي شئونهم، وهكذا بدأت هذه الهجرة التي تعتبر من أعجب حركات الهجرة الاختيارية في العالم وقد عرفت هذه الحركة التي بدأت حوالي عام ١٨٤٠ باسم الزحف العظيم (The Great Trek).

وكــثرت الأقــوال عن الأسباب الحقيقية التي دعت إلى أن يترك الــبوير مساكنهم وأراضيهم فيهاجروا إلى أرض مجهولة موحشة، فلا شك أن هناك أسباباً قوية دفعت بهم إلى أن يتصرفوا هذا التصرف.

من هذه الأسباب التي ذُكرت الضيق الذي شعروا به إزاء الأفكار الجديــدة التــي حــاول الإنجليز فرضها باسم (الإصلاح)، ومنها أن المعلومــات التي أذاعها ونشرها الرواد الأوائل من البوير الذين سبقوا

إخوانهم في ارتياد الأماكن الشمالية ــ عن المراعي المتوفرة والأرض الفسيحة كانت تبدو جذابة وتُدفع للمغامرة، ولاشك في أن هناك عوامل أخرى ارتبطت ببعض هذه الحركات فكثيرون اشتركوا في هذا الزحف لمجرد أن أقاربهم أو جيرانهم أصروا على الهجرة فلم يجدوا أيضاً بداً



مـــن أن يــــرافقوهم، وبعض الشبان اشتركوا في هذا الزحف حباً في المغامرة، بينما وجد الشيوخ غير الراغبين في الهجرة أنفسهم مدفوعين للهجـــرة تحت ضغط زوجاتهم اللاتي لم ترق في نظرهم القوانين التي بموجبها تحرر الخدم وأصبحوا متساويين مع سادتهم.(١)

والــــبعض هاجـــروا هـــروباً من الديون التي كانوا مثقلين بها، وتختلف الأرقام التي تذكرها المراجع للأعداد التي اشتركت على مدى ســـنوات متعاقـــبة في هذه الهجرات التي أدت لتغيير كبير في النسيج الاجتماعي والسياسي في جنوب أفريقيا.

وقـــد اشـــتهر في هذه الرحلات الحاسمة في تاريخ البوير أبطال قـــادوا حـــركة الـــزحف وتقدموا الجماعة ونظموا حياتها في الترحال والاستقرار وفي مواجهة المخاطر الطبيعية والأعداء البشريين، وكان ضـــمن جماعـــة المهاجرين التي بدأت زحفها في عام ١٨٣٦م صبي صـــغير يـــبلغ مـــن العمر عشر سنوات يدعى بول كروجر (Paul Kruger) وهـــو الـــذي سيصـــبح فـــيما بعد القائد العظيم الذي رأس جمهورية البوير في الترنسفال لعدة سنوات.

تكوين دولتي أورانج الحرة والترنسفال:

١- حـــاول الـــبوير في البداية بعد نزوحهم من منطقة الرأس ـ الاستقرار في (ناتال) لكنهم اصطدموا بقبائل الزولو المحاربة، كما أن السلطات الإنجليزية في منطقة الكيب بدأت تشعر بعدم الارتـــياح من هجرة البوير الجماعية وتجمعهم من جديد في

---

(١) أصـــدر الـــبرلمان الإنجليزي في عام ١٨٣٤ قراراً بتحريم الرق في كل الأملاك البريطانية بما فيها جنوب أفريقيا.

ناتال وتكوينهم جمهورية مستقلة هناك ــ خاصة أن الإنجليز شـــعروا بالأهمية الاستراتيجية والتجارية لميناء (دربان)، كما أن اكتشـــاف الفحـــم في ناتال جعل أنظار الإنجليز تتجه إليها خاصة بعد أن أصبحت للفحم أهمية خاصة في عصر البخار.

فأصـــدر الـــبرلمان الإنجلـــيزي فـــي ١٨٣٦ قراراً باعتبار المهاجرين من البوير تبعية بريطانية مهماً بعد توغلهم للداخل.

وفي مايو ١٨٤٢ أرسل حاكم مستعمرة الرأس البريطانية قوة لميـــناء دربان لإخضاعها واستطاع البوير في أول الأمر أن يهـــزموا القوات الإنجليزية المهاجمة ــ لكن أسرعت إنجلترا بإرســـال نجدات جديدة من مدينة الرأس عززت مركز قواتها وأخضعت ناتال لها.

وفـــي أغسطس ١٨٤٥ أعلنت الحكومة البريطانية ضم ناتال إلـــى مســـتعمرة الـــرأس، وهكـــذا أصـــبحت ناتال مستعمرة بريطانية.

٢- أمـــا البوير فقد زحفوا من جديد في مجموعات اتجهت شمالاً عـــبر نهـــر الفـــال وغـــرباً متتـــبعة نهر الأورنج، وتعددت مجموعات البوير في أماكن استقرارهم الجديدة عبر نهر الفال وفـــي مـــنطقة الأورنج ــ لكن بريطانيا كانت لا تزال تنظر إليهم على أنهم خاضعون لسلطتها في نفس مستعمرة الرأس.

على أن تغيير المناخ السياسي في إنجلترا ذاتها ووصول دعاة إنجلـــترا الصـــغرى الذيـــن كـــانوا يـــنظرون إلـــى التوسع الإمـــبراطوري علـــى أنـــه عديـــم الفائدة أدى إلى فتح باب المفاوضات من جديد بين ممثلي إنجلترا وممثلي البوير وانتهى

الأمـــر بعقـــد اتفاقـــية اعترفت بها إنجلترا في عام ١٨٥٢م باستقلال البوير الساكنين بين نهر الأورنج والفال.

وكانت هذه هي بداية **جمهورية الترنسفال** التي توحدت فيها كـــل مراكز استقرار البوير عبر نهر الفال والتي اتخذت من مديـــنة (بريتوريا) عاصمة لها وكان اسمها الرسمي جمهورية جـــنوب أفريقيا، كذلك **دولة الأورنج** الحرة التي اتخذت مدينة (وتنبرج) عاصمة لها ــ وقدر للدولتين البويرتين أن تعيشا ما يقـــرب مـــن خمســـين عاماً قبل أن يخضعا من جديد للنفوذ البريطانـــي، وقـــد أخذ العمران يمتد إلى كل من جمهوريتي البوير.

٣- وكـــان اكتشـــاف الماس في (كمبرلي) في الصحراء الواسعة غرب دولة الأورنج، والعثور على الذهب في (جوهانسبرج) بالترنسفال ــ بداية صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد ــ فقد ترتب على هذا تدفق أفواج البريطانيين من ناتال ومن منطقة الـــرأس ومـــن إنجلـــترا ذاتها ومن مستعمراتها الأخرى، بل جـــاءت لهـــذه الجهـــات للعمل بالتعدين ــ أعداد غفيرة من المغامريـــن الأوربييـــن في موجات فاقت في زحفها موجات الـــبوير في زحفهم الكبير السابق، وبدأ تدفق الناس على هذه المـــناطق بالعشـــرات والمئات من مختلف جهات العالم، من أوربـــا ومـــن أمريكا ومن استراليا طلباً للثروة، وكان البوير أيضـــاً من الساعين وراء الثروة فتركوا زراعتهم ومراعيهم للمشـــاركة في الميدان الجديد الذي انفتح أمامهم، كما تتبعتهم جماعـــات مـــن الأفريقيين للقيام بالأعمال الشاقة التي يعجز

الأوربـيون عـن القيام بها، وغصت المنطقة بالتالي بالتجار وأصحاب الحوانيت والمحامين بالإضافة إلى مندوبي الصحف ورجال المال وغيرهم من مختلف الجهات والأجناس، وبدأت إقامـة عشرات المساكن المؤقتة والدائمة لإيواء القادمين، وقد أصـبحت (كمبرلي) في فترة وجيزة ثاني مدن جنوب أفريقيا بعـد الـرأس مـن حيث العمران والحركة التجارية،وبدأ مد الخطـوط الحديديـة وخطوط التلغراف لربط مناطق الماس بالموانئ الساحلية.

٤- وكـان اكتشـاف الماس بداية المشاكل السياسية التي واجهت البوير فقد أدى لنزاع على ملكية المنطقة التي لم يكن يهتم بها أي طرف من قبل.

على أن اكتشاف الذهب أيضاً حول (جوهانسبرج) كان له نفس تأثير اكتشاف الماس، فقد تدفق على المنطقة عشرات بل مئات من المغامرون وطلاب الثراء وبدأ تكوين الشركات لاستغلال هـذا المعدن، وبدأ تدفق المهاجرين الأجانب على جوهانسبرج وكانت غالبيتهم من الإنجليز.

وكانت أثار هذه الهجرات الضخمة التي ترتبت علي اكتشاف هذه المعـادن النفيسة بعيدة المدى فقد أصبح المهاجرون الإنجليز بأعدادهم الغفـيرة وبالقوة التي تساندهم في جنوب أفريقيا وفي إنجلترا ذاتها ــ يمـثلون عظمـة في حلق جمهورية البوير، فقد أخذ المهاجرون الذين أطلـق عليهم البوير لفظ أجانب يثيرون المشاكل للبوير في الترنسفال، والأورنـج والذيـن اعـتادوا حـياة الهدوء التي كان يحياها زراعهم ورعاتهم.

الحروب بين البوير والإنجليز ونهاية الاستعمار الهولندي

الحــروب بيــن البوير والإنجليز ليست صورة من صور الكفاح الوطنــي بيــن الوطنييــن والأوربيين لكنها صورة أخرى من صور الصراع بين الأوربيين على الاستحواذ على ثروات القارة الأفريقية.

فقد عاصرت اكتشاف الذهب والماس في جنوب أفريقيا تطورات جذريـــة فـــي سياســـة الدول الأوربية تجاه القارة الأفريقية التي كان الرحالة والمكتشفون قد سلطوا عليها الأضواء وعلى بعض ما تختزنه من ثروات.

وفـــي عـــام ١٨٧١ وفَد إلى جنوب أفريقيا شاب إنجليزي ــ هو سيســل جــون رودس (Cecil John Rhodes) للاستشفاء بناءً على توصية طبيبه.

وبــدأ رودس بمجــرد وصوله لجنوب أفريقيا العمل في الزراعة لكــنه ترك مزارع (ناتال) متجهاً صوب المنطقة التي عُرفت فيما بعد اسم كمبرلي للعمل في المناجم، وقد ربح سيسل رودس من هذا النشاط الجديد مبلغاً طيباً ــ لكن أطماعه لم تكن قاصرة على الانعزال فيها بل كــان يحلــم أن تمد إنجلترا سلطانها على أقصى ما يمكنها من القارة الأفريقــية تجــاه البحــيرات الاستوائية وعبر السودان توجد أراضي شاسعة يمكن أن تعوض إنجلترا عن الولايات التي خسرتها في أمريكا الشمالية في حرب التحرير.

واصطدمت أحلامه هذه بأحلام البوير، ففي الترنسفال حيث استقر البوير وكونوا جمهورية جنوب أفريقيا واتخذوا (بريتوريا) عاصمة لهم

ـ ظهرت شخصية بول كروجر (Paul Kruger) الذي انتخب رئيساً للجمهورية البويرية وكانت له أطماع شبيهة بأطماع رودس، فقد كان يطمع في أن ينجح في تكوين جمهورية للبوير ــ في جنوب أفريقيا لا تكــون تحت رحمة الإنجليز الذين أخذوا يضيقون الخناق على البوير، لــذا فقد كان كروجر يطمع في مد نفوذه على نهر زمبيزي، كما كان يطمــع في إيجاد منفذ على المحيط حتى لا يكون تحت رحمة الإنجليز والموانئ البريطانية لسد حاجاته الرئيسية.

وقــد مهــدت هــذه الأوضاع المتشابكة للاصطدام بين القوتين الاســتعماريتين الأوربيتين في أفريقيا ــ قوة الإنجليز وقوة الهولنديين (البوير).

علـــى أن اكتشـــاف المعادن في هذه المناطق زاد الأمر تعقيداً ــ فبينما نجد سيسل جون رودس كان قد حصل عام ١٨٨١ على شهادته الجامعـــية مـــن جامعة أكسفورد، كما أصبح في نفس العام عضواً في برلمان مستعمرة الرأس البريطانية ــ يسعى حثيثاً لمد النفوذ البريطاني للشـــمال ــ كان بول كروجر يسعى لتوحيد وربط البوير في الأورنج والترنسفال عن طريق الاستيلاء على المناطق الفاصلة بينهما.

علـــى أن ظهور الألمان كقوة استعمارية منافسة لإنجلترا وبسط نفوذهم على المنطقة المقابلة لأراضي البوير في غرب أفريقيا وخوف إنجلـــترا من التقارب الألماني البويري ــ جعل الإنجليز يسرعون في عـــام ١٨٨٦ باحتلال منطقة (بتشوانالاند) التي كانت مطمع أنظار كل مـــن الـــبوير والمستعمرة الألمانية في جنوب أفريقيا، ولم تقف أطماع الاســـتعماريين البريطانيين عند هذا الحد فقد شجعهم هذا لمد أنظارهم أيضـــاً لمملكة المتابيلي (Matabele) الأفريقية في المنطقة الممتدة من

(بتشوانالاند) شمالاً وكان على رأس هذه المملكة ملك أفريقي هو الملك لونبجيولا (Lobengula).

وفي عام ١٨٨٩ نجح رودس في الحصول من البرلمان الإنجليزي على مرسوم تأسيس (شركة جنوب أفريقيا البريطانية) واستطاع أن يحصل للشركة على حق استغلال الأراضي التي كانت تحت سلطة الملك ليبجولا وأن يقضي في عام ١٨٩٠ على نفوذ هذا الملك وأن يمد النفوذ البريطاني على المنطقة التي أطلق عليها فيما بعد اسم (روديسيا) نسبة للرجل الذي ربط هذه البلاد بعجنة الإمبراطورية البريطانية.

وقد عجلت هذه الأحداث بالاصطدام المتوقع بين البوير والإنجليز وكان رودس قد أصبح في عام١٨٩٠ رئيساً لوزراء مستعمرة الرأس فأصبح في مركز يمكنه من تحقيق أطماعه أكثر.

وقد مر الصراع بين البوير والإنجليز في مراحل نجملها فيما يلي:

يبدو أن أفكار رودس كانت تتجه في المبدأ إلى محاولة ضم جمهوريتي البوير بالطرق السلمية ــ لكنه أيقن بعد ذل أن أطماعه لن تتحقق طالما كان كروجر يمسك بدفة الأمور في الترنسفال، ولذا وجه جهوده للإطاحة بزعيم البوير، ولتحقيق الهدف اشترك في تدبير المؤامرة التي عرفت باسم (غارة جيمسون).

وقصة هذه المؤامرة تتلخص في أن كروجر كان يعاني من الثورات ــ والاضطرابات الداخلية بسبب المهاجرين البريطانيين لجمهورية الترنسفال بعد اكتشاف الذهب فيها وأدى ذلك لاختلال

التوازن في المدينة إذ أصبحت غالبية كبرى من سكانها من الإنجليز وبيدهم الجزء الأكبر من ثروة البلد، ولم يلبث أن طالب هؤلاء بمنحهم الحقوق السياسية للمواطنين البوير كحق التصويت في الانتخابات، وغير ذلك من المطالب، لكن كروجر رفض منحهم هذه الحقوق لأنه كان ينظر إليهم على أنهم دخلاء جاءوا للإثراء السريع، وحين يحققون هذه الأهداف لا يلبثون أن يرجعوا على أعقابهم، كما أن ميولهم لبريطانيا لم تكن خافية عليه.

فرأى رودس أن ينتهز هذه الفرصة لمساندة دعاة الثورة في جوهانسبرج على أن ينجح بذلك في إزاحة كروجر الذي يمثل عقبة حقيقية في كل خططه لتوحيد جنوب أفريقيا تحت العلم البريطاني.

ولذا أعد قوة على حدود الترنسفال بقيادة جيمسون أحد معاونيه لتكون مستعدة لدخول الترنسفال بمجرد قيام الثورة المتوقعة في جوهانسبرج.

وكشفت خطط رودس ووصلت لعلم كروجر بل قيل إن رجل الشارع في جوهانسبرج كان يتحدث عنها وكان تعليق كروجر على ذلك " سأنتظر حتى تخرج السلحفاة رأسها فأقطعها" أي أنه لن يبدأ هو بالحرب بل يترك للإنجليز فرصة الإنزلاق لذلك ــ ومهد جيمسون لحملته بزيارة لجوهانسبرج.

وقد اتفق جيمسون في هذه الزيارة مع الزعماء البريطانيين المهاجرين على تحديد يوم ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥ كتاريخ للقيام بالثورة على حكومة كروجر وقبل الموعد المحدد بأيام وصل لعلم رودس أن الذين وعدوا بتمهيد الطريق للحملة عن طريق إثارة الاضطرابات في جوهانسبرح قد تراجعوا حالياً عن قرارهم، فأبرق إلى جيمسون لينتظر

حـتى تصله تعليمات أخرى لكن هذا الأخير ـ وكان قد أعد كل شئ للحملـة صمم على أن يستمر في خطته، وتحرك جيمسون على رأس حملته صوب جوهانسبرج وهاجم حدود الترنسفال دون أن تكون هناك أيـة ثورة في جوهانسبرج تساعده، وانتهى الأمر بقتل عدد من رجال الحملـة وأسـر جيمسون نفسه والباقين على قيد الحياة من رجاله في بريتوريا.

وكان أول أثر لهذه الحملة الفاشلة توسيع الخلاف بين الهولنديين والإنجليـز، كما أثارت ثائرة عدد من الإنجليز في إنجلترا ذاتها، وفي مدينة الرأس بدأت الحكومة الإنجليزية تجري تحقيقاً لإدانة المسئولين عـن القيام بهذه الحملة التي أساءت إلى سمعة إنجلترا والتي لم تؤخذ موافقة الحكومة والبرلمان الإنجليزي عليها.

ولمـا وصـلت أخـبار هذه الحملة إلى (ألمانيا) أرسل القيصر الألمانـي إلى كروجر يعبر عن تهانيه الحارة لأنه مؤيداً من مواطنيه ومن غير أن يحصل على مساعدة القوات الصديقة نجح بحكمته القوية في القضاء على الغوغاء المسلحة التي غزت بلاده لتهديد السلام.

وكـان لهـذه التهنئة من الدولة التي كانت إنجلترا تنظر إليها في ذلك الوقت على أنها المنافس الخطير لها ولأطماعها ـ رد فعل كبير حـتى عـند رجل الشارع في إنجلترا، فقد اعتبر خطاب الإمبراطور الألماني بما فيه من تهكم صفعة موجهة للبريطانيين.

أما عن زعيم البوير كروجر فقد كان من الطبيعي بعد هذا الفوز السـاحق أن يملي شروطه، وكانت هذه فرصته للتخلص من عدد من المهاجريـن البريطانيـين للترنسـفال الذيـن كانوا يثيرون المتاعب لحكومـته، كمـا كانت فرصته لأن يلزم كل من يملك سلاحاً بتسليمه

فـوراً للسلطات الحاكمة وبعد أن حصل على كل ما يريده وافق على تسـليم جيمسون ورجاله للحكومة البريطانية لمحاكمتهم بصفتهم رعايا بريطانيين، أما عن رودس فقد أضطر لتقديم استقالته هو ووزارته.

المهـم أن حملـة جيمسـون وضعت الإنجليز والهولنديين وجهاً لوجه.

على أن هذه الحملة ساعدت على التقارب بين جمهوريتي البوير (الترنسفال والأورنج الحرة) فعقدت محالفة دفاعية بينهما — إذ أصبح واضـحاً أن هدف الإنجليز هو ضم مناطق البوير هذه نهائياً لنفوذهم، وكان واضحاً أن كلاً من القوتين تتربص بالأخرى وتعد نفسها لمرحلة جديدة من القتال.

ولمـا كـثرت شـكوى البريطانييـن الموجودين في جمهورية الترنسـفال مـن سـوء معاملة حكومة كروجر لهم أرسلت الحكومة الإنجلـيزية لجنة برئاسة ملنر (Milner) لبحث أسباب الشكوى؛ وكان رأي ملـنر أن الحـل الوحـيد هو غزو جمهورية الترنسفال، وبدأت بريطانيا في حشد قواتها.

أرسـل كروجـر إنـذاراً لبريطانيا بضرورة سحب قواتها التي حشدتها على حدود الترنسفال وبعدم التدخل في شئون جمهوريته، وقد رفضت الحكومة البريطانية هذا الإنذار، وأعلنت الحرب بين الطرفين فـي (١١ أكـتوبر ١٨٩٩) وانضـمت جمهورية الأورنج الحرة إلى الترنسفال تنفيذاً للمعاهدة الموقعة بينهما.

وفـي بداية الحرب استطاع البوير غزو ناتال، وتتابعت بعد ذلك انتصـارات الـبوير خلال النصف الأول من ديسمبر ١٨٩٩ حتى أن كـتاب الحـرب الإنجلـيز الذين كتبوا عن حرب البوير أطلقوا على

الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر تعبير الأسبوع الأسود(Black Week) فقـد كانت مدنهم الهامة في مستعمرة الرأس محاصرة وجيوش البوير تنتقل من نصر إلى نصر.

علـى أن تعييـن كتشـنر في ديسمبر ١٨٩٩ قائداً عاماً للقوات المحاربة في جنوب أفريقيا بعد الانتصار الذي حققه في قيادة حملات استرداد السودان ــ كان نقطة تحول في مجرى هذه الحروب، وبدأت القوات الإنجليزية والهندية لنجدة قوات مستعمرة الرأس.

ومـنذ فـبراير ١٩٠٠ اسـتطاعت القوات الإنجليزية أن توجه ضـربات قويـة لجمهوريـة الأورنـج الحرة، وأدى غزو جمهورية الأورنـج الحرة إلى الارتباك في صفوف البوير فأخذت مدنهم الهامة تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد الإنجليز.

ظـل الـبوير يحاربون بعد ذلك ما يقرب من عام ونصف العام دفاعـاً عـن حريـتهم دون جدوى، فقد كانت معظم مدنهم الهامة قد سقطت في أيدي الإنجليز، كما أنه لم يتحقق أملهم في أن تنهض ألمانيا أو غيرها من الدول الأوربية التي كانت تتعارض مصالحها مع سياسة إنجلترا في جنوب القارة لمعاونتهم.

وقـد اتبع كتشنر كل صنوف الوحشية في حربه ضد البوير من حـرق المـدن وإبادة كاملة للسكان من أطفال ونساء لإفساح المجال لمهاجريـن جـدد مـن الإنجليز مستنداً في دعواه للقيام بهذه الأعمال البربرية إلى أن البوير يتخذون من المساكن الصغيرة في القرى وفي وسـط الحقول مأوى تختبئ فيه عصاباتهم التي تقوم بنسف الخطوط الحديدية، كما أنها تستخدم كمخازن للمؤن والذخيرة التي تمد الجيوش التي تحاربهم بحاجتها.

وفـــي عـــام ١٩٠١ بدا واضحاً لزعماء البوير وقادتهم ــ تفوق الإنجلـــيز خاصة بعد أن أصيبت بلادهم بالدمار بالإضافة إلى الانهيار الاقتصادي، بينما كان في استطاعة القوة الإنجليزية أن تعتمد باستمرار علـــى أعـــداد جديدة من المحاربين ومن العتاد الحربي من الهند ومن إنجلترا بالإضافة إلى المعونة الاقتصادية ــ لكن البوير وقفوا بمفردهم فـــي هـــذه الحـــرب يدافعون ببسالة عن جمهوريتهما، ولذا فقد أثيرت احتمالات التفاوض من أجل الصلح.

وفـــي مـــايو ١٩٠٢ اســـتقر رأي البوير على أن يتكون وفد من خمســـة ممثليـــن لمقابلـــة ملنر وكتشنر للتفاوض في شروط الصلح، وحـــاول الوفد جهده أن يُثنى المتفاوضين الإنجليز عن تصميمهم على تـــنازل البوير عن استقلالهم دون جدوى وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة بريتوريا في ٣١ مايو ١٩٠٢ وهكذا فقدت جمهوريتا البوير استقلالهما.

وعينـــت الحكومـــة الإنجلـــيزية ملـــنر (Milner) حاكمـــاً عاماً للمســـتعمرتين اللتيـــن ضُـــمتا حديثاً للتاج البريطاني ضمن ما عُرف (باتحـــاد جـــنوب أفريقـــيا) الذي تكون من أربع ولايات هي (الكيب، وناتال، والترنسفال، والأورنج).

وفـــي عام ١٩١٠ أصبح اتحاد جنوب أفريقيا وحده يحكمها حاكم واحـــد تتمـــتع بالاســـتقلال وتخضع للتاج البريطاني، وتسرى عليها التشـــريعات البريطانـــية وتدخل ضمن الدمنيون (Domminion) "أي الأملاك البريطانية".

نظام الحكم الهولندي:

كانـــت (شـــركة الهند الشرقية الهولندية) هي صاحبة السلطة في مـــناطق الاســـتعمار الهولندي بجنوب القارة حتى عام ١٧٩٥، وكان

مجلس إدارة الشركة في أمستردام بهولندا ــ وكانت لمجلس إدارة الشركة كافة السلطات فهو يصدر التعليمات، كما يصدر القوانين التي تتعلق بتنظيم التجارة التي تتصل بعلاقات الناس وبشئون الدين وتنظيم العلاقات الاجتماعية من زواج وغيرها، وبمضي الوقت وبازدياد نشاط الشركة في القارة الأفريقية أصبحت الحاجة ماسة لإيجاد مجالس أخرى لمواجهة الحاجات المختلفة.

وكانت الإدارة في منطقة الرأس تعهد بها الشركة عادة لضابط يقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من مجلس إدارة الشركة، وكان يعاونه مجلس استشاري.

وقد لجأت الشركة لاستيراد الرقيق من أنجولا وموزمبيق للعمل في الحقول والمراعي، وإلى جانب الرقيق كان (الهوتنتوت) الذين أصبحوا شعباً من الخدم يعمل لخدمة الفلاحين الهولنديين، وقد تناقص عددهم بشكل ملفت للنظر، وانتشرت بينهم الأمراض كما انتشرت بينهم عادات رديئة كشرب الخمر.

وقد شجعت الشركة الفرنسيين البروتستانت الهاربين من الاضطهاد الديني في بلادهم للهجرة لمستعمرة الرأس، لكن عدد الذين هاجروا من الفرنسيين كان محدوداً أيضاً وكان مصيرهم الاندماج في المجتمع الهولندي في المستعمرة، وبمضي الوقت تعلم أبناؤهم الهولندية وفقدوا صفاتهم المميزة كفرنسيين.

وقد أدت السياسة الاستقلالية للشركة بالإضافة إلى تشجيع الحكام والموظفين الذين كان كل همهم الإثراء على حساب شقاء الآخرين سوء استغلالهم للسلطة الممنوحة لهم ــ إلى قيام حركات الاحتجاج بين المستوطنين واضطرت الشركة لاستخدام القوة لقمع هذه الحركات.

وكـــان علـــى الشركة على الشركة الهولندية أن تواجه في شرق مستعمرة الرأس مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية بالإضافة إلى المشـــكلات التـــي تنشأ بسبب الصدام بين الأوربيين والأفريقيين على ملكـــية الأرض واستغلالها، ولعل المشكلات التي واجهتها الشركة في الغـــرب كانـــت أقـــل من مشكلات الشرق وترجع أغلبها لسوء إدارة الشـــركة ولانتشـــار الرشوة والسرقات بين موظفيها مما أدى بها إلى حافة الإفلاس.

ونشـــير هـــنا إلى أن الفترة الأخيرة من حكم الهولنديين لمنطقة الـــرأس شـــهدت بداية النشاط التبشيري الذي اتسع مداه بعد أن انتقلت الإدارة للبريطانييـــن وقـــد سبق أن ذكرنا أن هذه الجمعيات التبشيرية كانت تمارس عدة أنشطة في مجالات متعددة.

وبعد أن استقر البوير في مستعمراتها الجديدتين الترنسفال ودولة الأورنج الحرة ــ ظهر أنه كانت تنقصهم كثير من الخبرات في مجال الحكم والاقتصاد، كما أنهم لم يستفيدوا من خبرة البريطانيين الحاكمين فـــي مستعمرة الرأس، وناتال، بل نظروا لهم نظرة شك وعداء، وظل الأمـــر كذلك حتى فقدت الجمهوريتان البويريتان استقلالهما بعد حرب البوير.

ونشـــير إلـــى نقطـــة هامة كانت عميقة الأثر فيما بعد في تاريخ ومستقبل جنوب أفريقيا ــ وهي تتعلق بحقوق الشعب الأفريقي صاحب الـــبلد الحقيقي والذي يمثل حتى بعد تدفق الهجرة الأوربية لبلاده أكثر من ٨٠% من السكان.

ففي النظم التي وضعت للحكم في هذه البلاد والتي رسمها دستور ١٩١٠ والدساتير اللاحقة له ــ لم يكن للسكان الوطنيين أي نصيب في

تسيير دفة الحكم ولم يمنحوا حتى حق إبداء الرأي في الشئون المتصلة بهم أو في تقرير مصير بلادهم وأصبح الأمر بيد البيض والبوير.

ووجد الإنجليز بعد أن استقرت لهم الأمور بعد انتصارهم في الحرب على البوير – الفرصة سانحة لمجاملة أعدائهم السابقين من البوير بقصد تضميد ما تركته الحرب من حزازات بين القوتين الاستعماريتين وكان ذلك بالطبع على حساب الوطنيين الأفريقيين الذين أصبحوا غرباء في بلادهم ويعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية، ولا يتمتعون بأية حقوق سياسية أو اجتماعية، ولعل هذه كانت بداية (التفرقة العنصرية) الصارخة التي أصبحت تتمثل بشكل بشع في جنوب أفريقيا والتي ظلت تمارسها السلطات الحاكمة من المستوطنين البيض في هذه البلاد لمدة طويلة.

الفصل السادس

البلجيك في الكونغو

- نشـــاط الملـــك ليوبولد المتعلق بأفريقيا (مؤتمر بروكسل ١٧٨٦م)
- مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥
  أ ـــ الأوضاع الدولية في الفترة السابقة على المؤتمر
  ب ـــ المؤتمر وما دار في جلساته
- التطورات في الكونغو بعد مؤتمر برلين

نشاط الملك ليوبولد المتعلق بأفريقيا (مؤتمر بروكسل ١٨٧٦):

كانـت بلجـيكا عاملاً عميق الأثر في تاريخ الاستعمار الأوربي الحديـث لقارة أفريقيا، لأن أطماع بلجيكا في الكونغو، وسياسة الملك لـيوبولد الثانـي إزاءه، أثار أطماع الدول الأوربية الأخرى، فأخذت تتحرك لتحصل على نصيبها من الغنيمة، فإنه حتى عام ١٨٨٠ لم تكن أفريقـيا ــ باسـتثناء الجزائـر ــ قد قسمت بعد بين الدول الأوربية الاستعمارية.

والأمـر الـذي أثار الملك ليوبولد وجذب أنظاره، تلك الرحلات الكشـفية التـي أخـذ يقـوم بها المستكشفون في مختلف أنحاء القارة الأوربـية، فأراد أن يكون لبلاده الفقيرة في الموارد، والتي لم يكن لها جـيش أو أسطول قوي، ولذلك أدرك أن أوربا ليست الميدان المناسب لنشـاطه، حيث لن يقوى على مواجهة الدول الأوربية الأخرى القوية، فاتجـه بـنظره إلـى الكونغـو لتحقيق أحلامه للتوسع الاستعماري، خصوصـاً وأنـه فـي عـام ١٨٧٢ كانت الجمعية الجغرافية الملكية الإنجلـيزية قـد أرسـلت بعثة بقيادة كمرون (Cameron) لمساعدة لفنجستون، وعبرت البعثة حوض الكونغو في طريقها من شرق القارة إلـى غربها، وأزاح قائد الحملة الستار عن الثروة الطبيعية العظيمة، التي توجد في حوض الكنغو وخاصة من زيت النخيل الذي صارت له أهمـية خاصـة في الصناعة. كما أن رحلة ستانلي (١٨٧٤ــ١٨٧٧) لفتت أنظار الملك ليوبولد أكثر، فدعا في عام ١٨٧٦ إلى مؤتمر دولي فـي بروكسل لجغرافيي العالم والمهتمين بالدراسات الأفريقية، لبحث وسـائل كشـف أقاليم القارة الداخلية. ونشر الحضارة فيها، والتمهيد لاستثمار مواردها. مع إلغاء تجارة الرقيق، وأسفر المؤتمر عن تأليف

الهيئة الدولية لكشف أفريقيا، وإدخال الحضارة فيها International Association for Exploration and Civilization of Africa.

وتقرر أن ينشأ في كل دولة فرع لهذه الهيئة، وأسرعت بلجيكا في تكوين شعبتها التي بدأت على الفور في ممارسة نشاطها، كما أخذت الشعبة الفرنسية في ممارسة نشاطها فيما صار يعرف بأفريقيا الاستوائية الفرنسية على يد دي برازا.

ولما كان ستانلي قد عاد إلى أوربا من رحلته الثانية، التي عبر فيها نهر الكونغو. وأثبت أنه يمكن دخول القارة من الساحل الغربي أيضاً. وليس من ساحلها الشرقي فقط. وذلك عن طريق واحد من أضخم المجاري المائية في العالم (نهر الكونغو). فقام الملك ليوبو باستدعاء ستانلي، ودعاه للتعاون معه في مشروعاته التي يزمع القيام بها في الكونغو، وقبل ستانلي العرض.

وفي عام ١٧٧٨ كلفت الشعبة البلجيكية ستانلي بالذهاب إلى الكونغو لإنشاء محطات وعقد اتفاقات مع زعماء القبائل للحصول على امتيازات لاستغلال الأراضي الزراعية، ونجح ستانلي في إنشاء أول محطة على الكونغو باسم الهيئة في عام ١٨٨٠، وأخذ عدد المحطات على النهر وفروعه يزداد، كما أعلن في نهاية عام ١٨٨١ تأسيس مدينة ليوبولد فيل.

وبعد نجاح ستانلي أسرع ليوبولد ليكشف حقيقة الجمعية، فجردها من صفتها الدولية كجمعية علمية دولية وأصبح رئيساً لها ودفع من جيبه الخاص كل رأس مال تأسيس الجمعية وقدره ٤٠,٠٠٠ جنيه لكي تصبح مشروعاً بلجيكيا بحتاً، فجعلت الدول تسابق بعضها بعضاً في الحصول على مساحات واسعة في أفريقيا.

وأرادت بريطانيا أن ترد على تصرف ملك البلجيك بإجراء مضاد، فتفاوضت مع ملك البرتغال، وتوصلت الدولتان في عام ١٨٨٤ إلى اتفاق تعترف فيه بريطانيا بأحقية البرتغال في الاستيلاء على إقليم الكونغو ــ بين خطي عرض ١٢ و ٨ جنوباً ــ على أن تكفل حرية الملاحة في الكونغو، وكان الأساس الذي استندت إليه بريطانيا في تأييد دعاوي البرتغال أنه في القرن الخامس عشر استطاع أحد المستكشفين البرتغاليين اكتشاف مصب نهر الكونغو.

إلا أن الدافع الحقيقي لبريطانيا هو أن البرتغال كانت في ذلك الوقت حليفة لبريطانيا، التي كانت ترى في تأييد حقوق البرتغال في الكونغو إنما هو تمهيد لفرض السيادة البريطانية عليه. بعكس بلجيكا التي كان ملكها ليوبولد من أصل ألماني، وكان دائماً يستشير ألمانيا في أعماله، وكانت ألمانيا في ذلك الوقت قد بدأت تظهر كمنافس خطير لبريطانيا.

وقد وقفت كثير من الدول موقف المعارضة من السياسة البريطانية كفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وبلجيكا، بل وبعض السياسيين البريطانيين الذين كانوا يرون أن البرتغال لا تستحق ما يعطي لها، لأنها دولة سيئة الإدارة، وأن على بريطانيا أن تنتزع ما بيد البرتغال فعلاً من مستعمرات.

ولعل بريطانيا باتفاقها مع البرتغال كانت تهدف أيضاً إلى إغلاق الطريق أمام الادعاءات الفرنسية، خصوصاً وأن نشاط الفرنسيين قد زاد على الضفة اليمنى من الكونغو، وكان يقوم به دي برازا الفرنسي. وكان النشاط الفرنسي في المنطقة منافساً أيضاً للنشاط الذي يقوم به ستانلي باسم البلجيك.

وهكـذا استحكم الخلاف بين الدول الاستعمارية، بحيث صار من الواضح أن هذا الخلاف لا يمكن أن يحل إلا عن طريق مؤتمر دولي لحل ما بينها من مشاكل، فإن المشكلة لم تكن مشكلة الكونغو فحسب. وإنمـا كان نشاط ليوبولد سبباً في جعل الدول الأوربية تهتم بالمسالة الأفريقـية برمـتها، التي صارت الشغل الشاغل للدول الأوربية، التي أدركت أن هناك سباقاً وخشيت كل منها أن تسبقها الدول الأخرى في اسـتغلال القارة. الأمر الذي سوف يؤثر دون شك على ميزان القوى بين الدول.

مؤتمر برلين ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥

أ ـ الأوضاع الدولية في الفترة السابقة لانعقاد المؤتمر:

تتطلـب دراسة مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ـ١٨٨٥ عرضاً سريعاً للوضع الأوربي الدولي في الفترة السابقة لانعقاد هذا المؤتمر ويقودنا هـذا الـنوع إلى الرجوع قليلاً إلى عام ١٨٧٠، ذلك العام الذي شهد دخـول الألمان فرنسا وكان ذلك نذيراً بإنهاء عهد وبداية عصر جديد بعـد هـزيمة فرنسا وتخليها عن زعامتها لأوربا، فقام بسمارك بدور قـيادي فـي القارة الأوربية بعد أن جعل من ألمانيا دولة كبرى حيث اتحدت معظم الولايات الناطقة باللغة الألمانية حول (بروسيا) من أجل إنشـاء اتحاد يمكن ألمانيا من الدخول في عالم الصناعات، وأدى هذا بـالفعل إلـى ظهور دولة أوربية جديدة، استطاعت أن تنافس فرنسا عسكرياً، وإنجلترا صناعياً.

وبيـنما كانـت الصناعة تتطور في إنتاجها ـ وجهت الحكومة الألمانـية عـناية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية حيث تضاعفت سفن

الإمبراطورية الألمانية في الفترة من ١٨٧٠ـ ١٨٩٠سبعة أمثالها وارتفعت في ألمانيا الأصوات عالية مطالبة بمستعمرات.

ولم يكن أمام ألمانيا من وسيلة لدعم صناعاتها وجعلها تنافس المصنوعات الأوربية الأخرى إلا بالحصول على مستعمرات غنية تجد فيها المواد الخام اللازمة لصناعتها،ووجدت ألمانيا ضالتها المنشودة في القارة الأفريقية.

وكانت ألمانيا قد تأخرت في مجال الاستعمار وكان عليها أن تتحرك بسرعة لتأخذ نصيبها من القارة الأفريقية.

وأندفع الرأسماليون الألمان إلى سواحل أفريقيا يطلبون من حكوماتهم المراسيم التي تبيح لهم حق الاتجار في المناطق التي يجدونها ملائمة كمجال لنشاطه، ولم تتردد الحكومة الألمانية في ذلك الوقت عن إجابة رغبتهم بعد أن أخذ الكتاب الألمان يشيرون إلى ضرورة إيجاد مستعمرات لألمانيا لترويج تجارتها.

في عام ١٨٧٨ أنشئت الجمعية الألمانية للدراسات الأفريقية في مدينة برلين وأخذ المستكشفون الألمان يعملون في المنطقة بين زنجبار وتنجانيقا، وفي عام ١٨٨٢ أنشئت الجمعية الألمانية للاستعمار في مدينة فرانكفورت وأدى ذلك إلى مضاعفة نشاط الألمان الاستعماري.

وكان هدف هذه الجمعية الدعوة إلى إقامة مستعمرات وتجميع الجهود لهذا الغرض، وتمكنت الجمعية في عام ١٨٨٤، من إصدار صحيفة باسمها سميت بالصحيفة الاستعمارية، وضمت هذه الجمعية أكثر من عشرة آلاف عضو.

وكان بسمارك الذي دعا إلى مؤتمر برلين حتى عام ١٨٨٤ يعارض إنشاء مستعمرات ألمانية فيما وراء البحار حتى يظل محتفظاً

بمكـان الصـدارة داخل القارة الأوربية، وقد علل ذلك بعدة اعتبارات مـنها الرغـبة فـي تحقيق الأمن للرايخ الألماني وذلك بالابتعاد عن مشـكلات الاسـتعمار التي تؤدي إلى الاحتكاك مع بقية الدول، ومنها عدم اقتناعه بالحصول على مستعمرات لدولة ناشئة مثل ألمانيا، ومنها اعتقاده بأن الألمان ليسوا في وضع يجعلهم يدخلون مجال المنافسة مع البريطانييـن، وعلى هذا ظل بسمارك ردحاً طويلاً م الزمن يعارض السياسـة الاستعمارية ولكن لم يلبث أن تغير الوضع بسرعة حتى أنه في غضون عام واحد، كانت ألمانيا قد كونت إمبراطوريتها الأفريقية.

أما إنجلترا فقد أفاقت من سياسة الحياد الطويل والعزلة التي اتبعتا لتجد فرنسا حليفتها في حرب القرم وقد تحطمت قوتها ووجدت أمامها دولة أخرى ناشئة أكثر منها قوة، وبالطبع خشيت إنجلترا من هذه القوة الجديـدة وكـان بسـمارك يعـرف شعور إنجلترا يعرف جلادستون وزملاءه من الأحرار، ولكن تغير الموقف حين تولى زعيم المحافظين الـوزارة، فلقـد كان دزرائيلي يسعى لاتباع سياسية خارجية نشطة، تخـرج بريطانيا من عزلتها، وتعيد إليها مركزها في أوربا ولهذا كان بسمارك حريصاً على إرضاء إنجلترا في عهدها الجديد.

وكان الاقتصاد الأوربي قد مر بازمة عنيفة في الفترة بين ١٨٧٠ ــ١٨٨٠ وبالتالي فقدت إنجلترا احتكارها الصناعي العالمي، ووجدت من ينافسها من دول القارة، وقد تطلب حل المشكلة البحث عن أسواق فيما وراء البحار وأخذ أصحاب المصالح والتجار بحثاً عن المعاهدات التي تضع مناطق من تلك الجهات تحت سيطرة الدولة الأوربية.

وقـد تحركـت إنجلترا بجنوب غرب أفريقيا تحت ضغط فرنسا وبلجـيكا ودخلـت في صراع مع ألمانيا في شرق أفريقيا ومن ثم بدأ

التكالــب على القارة الأفريقية من أجل الحصول على المناطق الغنية بالمواد الخام.

ب ـ المؤتمر وما دار في جلساته :

دعت ألمانيا القوى الدولية لحضور هذا المؤتمر في برلين لبحث مسألة الكونغو والمسائل المتعلقة بها، وعقد المؤتمر في الفترة من ١٥ نوفمــبر ١٨٨٤ إلــى ٢٦ فبراير ١٨٨٥، وحضره مندوبو أبع عشرة دولة منها الولايات المتحدة والدولة العثمانية، ويعتبر هذا المؤتمر من أضخم المؤتمرات الدولية، وعلى الرغم من أن المؤتمر أعلن في بداية الأمــر أن الأمــر متعلق بالكونغو، إلا أنه لم يلبث أن مد اهتمامه إلى النــيجر، وحرية الملاحة والتجارة في النهرين، بل وتعرض للمشاكل بيْن الدول الأوربية والناتجة عن الاستعمار في أفريقيا عامة.

وقد حدد بسمارك أهداف المؤتمر في ثلاثة أمور:

١- حرية الملاحة في الكونغو وحرية التجارة فيه.

٢- حرية الملاحة في النيجر.

٣- امتلاك الدول لأجزاء من أفريقيا.

إلا أن المؤتمر بمناقشاته والنتائج التي توصل إليها، يعطي صورة واضــحة للصــراعات بيــن الدول الأوربية الكبرى في ذلك الوقت، وخاصــة ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ويعكس صورة للمدى الذي وصل إليه الصراع الاستعماري بين إنجلترا وألمانيا على وجه الخصوص.

وانتهت المناقشات بالاتفاق على ميثاق من ٣٨ مادة، كان أهم ما تضمنه:

١- تقرير حرية الملاحة في نهر وحوض الكونغو.

٢- الالتزام بحرية الملاحة في نهر النيجر.
٣- العمل على إلغاء تجارة الرقيق.
٤- عـدم فرض أية دولة حمايتها على منطقة ساحلية في أفريقيا دون أن تعلـن ذلـك إلـى الدول الأخرى الموقعة على هذا الميثاق.
٥- عـدم إعلان أية دولة الحماية على منطقة من القارة الأفريقية دون أن تكون هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلي للمنطقة، على أن تقوم هذه الدولة بالعمل على تقدم سكان هذه المنطقة وتقيم فيها حكومة عادلة.
٦- فـيما يـتعلق بـالكونغو تكتلت الدول ضد الاتفاق البريطاني البرتغالـي . إذ أدركـت أن بريطانـيا تريد إعطاء الكونغو للـبرتغال كخطوة أولى لاستيلاء بريطانيا عليه، وإزاء تكتل الـدول اضـطرت بريطانيا للموافقة على قيام دولة الكونغو الحـرة Congo Pree State ، وعلـى إدارة هيـئة الكونغو الأعلـى التـي يرأسها الملك ليوبولد لهذه المنطقة الهامة من أفريقيا، التي تمتد شرقاً حتى الساحل الغربي لبحيرة تنجانيقا، وفي أبريل عام ١٨٨٥ سمح البرلمان البلجيكي للملك ليوبولد لأن يصـبح رئيسـاً لهذه الدولة بصفته الشخصية، وفي أول يولـيو عام ١٨٨٥ أعلن رسمياً قيام هذه الدولة التي استمرت بهـذه الصـفة حتى ١٨ نوفمبر عام ١٩٠٨، عندما أصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية.

ونلاحظ أن مؤتمر برلين حقق الأهداف التالية:

١- أقر قيام دولة حرة كبرى في قلب أفريقيا الاستوائية تكون من الناحـية الـتجارية مفـتوحة لكل الشعوب، بينما من الناحية السياسية بعيدة عن المنافسات الدولية.

٢- أتـــاح المؤتمر الفرصة لتقسيم القارة الأفريقية بطريقة سلمية دون إثـــارة خلافـــات، بمحاولـــة تنظيم العلاقات بين الدول الاســـتعمارية علــــى أســـس محـــدودة، مما أدى إلى التكالب الاستعماري على القارة الأفريقية.

٣- اتخـــاذ المؤتمر لقرار بمحاربة لتجارة الرقيق، ومع ذلك فإن حـــوض الكونغـــو ســـوف يشهد أبشع الأعمال الوحشية التي ارتكبها الاستعمار.

التطورات في الكنغو بعد مؤتمر برلين :

١- كان مؤتمر برلين بمثابة إعلان القيام دولة الكنغو الحرة تحت إدارة جمعـــية الكـــنغو التي يرأسها الملك ليوبولد دون تحديد واضح لحدودها.

٢- وفي الإقليم الشرقي: في المنطقة بين بحيرة تنجانيقا وشلالات ستانلي كان العرب الذين قدموا من الشرق ووصلوا إلى أعلى الكنغو يسيطرون على المنطقة، وكان على رأسهم (حميد بن محمـــد المرجبي) الذي اشتهر باسم (تيوتيب) والذي سبق أن استعان به ستانلي في الكشف عن مجرى نهر الكنغو.

واســـتطاع المرجبـــي أن يكون دولة عربية في هذا المناطق، كانـــت عاصمتها (كاسونجو) وظل يحكمها حتى سنة ١٨٩٠، وخلفـــه ابنه المدعو (سيفو) وقد ذكر بعض الكتاب البلجيكيين وغيرهم أن هذه الدولة العربية كانت قد بلغت درجة كبيرة من الـــتقدم وكانت بها قصور مؤثثة بأفخر الأثاث، كما كانت بها مســـاجد ومـــدارس عربية يدرس فيها الطلاب القرآن الكريم وبعض علوم الدين والحساب.

٣- وقد اضطرت دولة الكونغو الحرة سنة ١٨٨٧ إلى الاعتراف بسلطة الزعيم العربي حميد بن محمد المرجبي في هذه المنطقة على أن يعمل لاستتباب الأمن في هذه الجهات وأن يسمح بإقامة ممثل السلطات البلجيكية في بلاطة.

وانتهز العرب هذه الفرصة فاستطاعوا الحصول على ما يحتاجون إليه من الأسلحة دون اعتراض من ممثلي دولة الكونغو الحرة، كما أن النجاح الذي حققه الزعيم العربي كان حافزاً لقبائل عدة لإعلان انضمامها تحت زعامته.

ولكن العرب كانوا يدركون أنه حالما تشعر السلطات الحاكمة في دولة الكنغو الحرة بقوتها ــ فإنها لا تلبث أن تحاول القضاء على نفوذهم، وقد زادت مخاوفهم حين عمدت حكومة الكونغو إلى تحويل التجارة الأفريقية إلى غرب القارة مما ترتب عليه إضعاف مركز العرب الذين كانوا يعتمدون على صلتهم بإخوانهم في شرق القارة وفي الجزيرة العربية لترويج البضائع الأفريقية التي هي مصدر ثروتهم والتي ترتكز عليها قوتهم.

وقد شجع نجاح (حركة المهدي) في السودان العرب في هذه المناطق على الوقوف في وجه السلطة التي مدت نفوذها إلى الكونغو والتي كانوا ينظرون إليها على أنها سلطة أجنبية دخيلة على هذه البلاد، وهكذا كان كل طرف في الحقيقة يعد نفسه للمعركة القادمة التي لابد منها وبدأ الاصطدام بين القوتين في عام ١٨٩٢.

٤- واســتطاعت قوات العرب بعد ذلك أن تحرز عدة انتصارات على قوات دولة الكنغو ــ لكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام القــوات البلجيكــية المسلحة بأسلحة حديثة، وفي ١٧ أبريل ١٨٩٢ تقدمت القوات البلجيكية صوت (كاسونجو)، وسقطت المديــنة العظيمة عاصمة الدولة العربية هناك في أيديهم وقد ذهل البلجيكيون لما وجدوه من مظاهر الحضارة والتقدم بها.

٥- ولــم تقــف أطماع ليوبولد عند هذا الحد فحين ظهر أن إقليم (كاتــنجا) غــنى بالنحاس أسرع (ليوبولد) لعقد اتفاقيات مع زعمــاء القبائل في هذه الجهات للحصول على امتيازات في هذا الإقليم.

٦- واتجهت أطماع الملك ليوبولد أيضاً إلى مد نفوذه من الكونغو شــرقاً إلى النيل وأتاحت الظروف المحيطة بمصر والسودان ــ فرصة ذهبية لتحقيق هذه الأطماع فاضطراب الأحوال في مصــر خاصة بعد خلع الخديوي إسماعيل وظهور الحركات الوطنية التي كان على رأسها أحمد عرابي، بالإضافة إلى قيام الــثورة المهدية في السودان، أفسح المجال للأطماع البلجيكية في حوض النيل.

وحيــن وصلت أوربا في سنة ١٨٦٦ أخبار تفيد بأن (أمين باشا) حــاكم المديرية الاستوائية في مركز حرج بسبب الثورة المهدية التي قطعت صلته بالشمال ــ وجدت الدوائر الاستعمارية في أوربا خاصة فــي بريطانيا ــ في ذلك فرصة مناسبة للتدخل وألف رئيس الجمعية البريطانــية لشرق أفريقيا لجنة لجمع الأموال للشروع في تكوين حملة الــنجدة التــي سيرأسها ستانلي، وللصلة التي كانت بين ليوبولد ملك

بلجـيكا وستانلي الذي عمل معه مدة طويلة ــ وجد ليولوبد باب أمل جديــد لتحقيق أطماعه في الاستيلاء على أعالي النيل، واجتمع ليوبولد مع ستانلي قبل سفره في حملة الإنقاذ، ووصل ستانلي إلى القاهرة في يناير ١٨٨٧م، ثم استأنف مهمته باعتباره رئيساً لحملة الإنقاذ، وعندما قــابل ســتانلي أميــن باشا على شاطئ بحيرة ألبرت في مايو ١٨٨٨ اقترح عليه:

أ ــ إما الانسحاب هو ومن معه من الضباط والجنود إلى مصر.

ب ــ أو يبقى في المنطقة كمدير في خدمة دولة الكونغو.

ج ــ أو يعمل في خدمة الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا.

على أن أطماع الملك البلجيكي اصطدمت بأطماع الدول الأجنبية الأخرى، فبالإضافة إلى إنجلترا كانت لفرنسا أطماع في وادي النيل.

على أن إنجلترا رأت أن من مصلحتها أن تتفق مع بلجيكا، وفعلاً تــم توقــيع معاهدة بين الطرفين في ٢ مايو ١٨٩٤ في بروكسل اتفق فــيها علــى أن تؤجــر بريطانيا إلى الملك ليوبولد ملك بلجيكا ودولة الكنغو الحرة المناطق الواقعة قرب بحيرة ألبرت وتتبع تقسيم المياه بين النيل والكونغو.

علــى أن هــذه المــادة أثارت أزمة بين إنجلترا وكل من ألمانيا وفرنســا انتهــت باتفاق حكومة جلالة ملك بريطانيا مع الملك ليوبولد على إلغاء هذه المادة من الاتفاقية وصدر تصريح بذلك في يونية سنة ١٨٩٤.

وأعطــى الملك ليوبولد لمدة حياته فقط المنطقة التي أطلق عليها اســم (حاجزلادو) على أن تعود هذه المنطقة إلى حكومة السودان في ظرف ستة أشهر من انقضاء مدة تملك ليوبولد لها.

وطبقاً لهذه الاتفاقية أعيدت هذه المنطقة إلى حكومة السودان في ١٦ يونية سنة ١٩١٠ عقب وفاة الملك ليوبولد الثاني.

الكنغو :

مستعمرة بلجيكية حكومية :

ظل الوضع في دولة الكنغو الحرة كما هو حتى عام ١٩٠٨، وفي هـذا العـام وافـق البرلمان البلجيكي على إنهاء (دولة الكنغو الحرة) واعتبار الكنغو مستعمرة بلجيكية تتبع في إدارتها وزارة المستعمرات البلجيكية.

والذي دعا إلى هذا الإجراء أن الأصوات قد أخذت ترتفع في كل أنحاء العالم ضد أعمال القسوة والسخرة التي يُعامل بها الوطنيون في دولة الكنغو الحرة.

فقد ظهر للرأي العام العالمي أن أبشع أنواع الجرائم والمخالفات للقـانون الدولي ترتكب في الكنغو بواسطة ممثلي الملك ــ فإن الملك لـيوبولد الثاني لم يكد يحصل على اعتراف العالم به حاكماً على دولة الكونغـو الحـرة طبقاً لقرارات مؤتمر برلين حتى ألقى جانباً المبادئ السـامية التي كانت المبرر الذي استند عليه ليكسب موافقة الدول إلى جانـبه، ووضع بدلاً من ذلك سياسة قائمة على احتكار تجارة المطاط والعاج، هذا بالإضافة إلى تسخير الأهالي بطريقة بشعة لتحقيق سياسة الاسـتغلال التي رسمها، فاصدر عدة قوانين أصبحت الكنغو بموجبها ضيعة وتستغل وتستثمر لحساب التاج.

وعلى أساس القوانين السالفة الذكر أصبح كل من يوجد عنده أية كمـية من المطاط أو العاج سارقاً وتوقع عليه أقصى العقوبات، وكان علـى ضباط البوليس أن يراقبوا العمال الذين يجبرون على العمل في

جمـــع المطاط والعاج، وحدد لكل قدر معين يقدمه يومياً، ومن يعجز عن ذلك لأي سبب تعرض لأشد أنواع العقاب وكان القتل بالرصاص وقطـــع الأيـــدي مـــن العقوبات التي تمارس بكل بساطة والتي يقدمها المشرفون على العمال كدليل على إخلاصهم وتفانيهم في العمل.

وســـاعدت السياسة التي اتبعتها سلطات (دولة الكنغو) في إخفاء الحقيقة عن كثير من الشخصيات والبعثات الأجنبية التي لم يكن يسمح لهـــا إلا بـــزيارة أماكـــن معينة في الكنغو حيث كانت تتركز الغالبية الأوروبـــية مـــن المستوطنين، هؤلاء الزوار يشاهدون مظاهر المدنية الأوربـــية متمثلة في المباني والمدارس والمستشفيات وغيرها، فكانوا يكونون فكرة غير صحيحة عن الأوضاع في الكنغو.

واستمرت وسائل الإرهاب لإجبار رؤساء القبائل في الكونغو على تقديم العمال اللازمين للعمل ولتنفيذ ما يأتمرون به، وكان عدم تحقيق أربـــاح مقـــبولة لرأس المال الذي يستغله البلاط الملكي البلجيكي في الاســـتثمار فـــي الكـــنغو معـــناه المزيد من أعمال القسوة والوحشية والسخرة.

وظـــل الوضع كذلك حتى كشف القناع عن حقيقة ما كان يجري بالكنغو فأجبر الملك ليوبولد على التنازل لحكومته عن إدارة الكونغو.

وتمثلـــت شخصـــية داود الذي استطاع في النهاية أن يتغلب على جوليات الجبار ويؤدي لإنهاء السيطرة الشخصية للملك على الكنغو في شخصـــية كاتـــب فقير يدعى موريل (Morel) كان يعمل في مصنع للســـفن في ليفربول من المصانع التي كانت مشتركة مع الملك ليوبولد في أوجه نشاطه الاستغلالي في الكنغو.

وأرسل هذا الكاتب لمكتب الشركة في انتوب للقيام بعمل الحسابات المتعلقة بأجور نقل البضائع والركاب من الكنغو وإليها. وقد أتاح له هذا العمل أن يسمع عن بعض المآسي التي تحدث في الكنغو، ولما لم يستطع أن يقفل فمه عن الحديث عما سمعه فقد فصل من عمله فدفعه ذلك إلى أن يكسب رزقه عن طريق الكتابة لبعض الصحف والناشرين البريطانيين عن الأحوال في (دولة الكنغو الحرة).

لكن هذا الجدل كله أثار الرأي العام في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ووصل الأمر إلى حد أن مجلس العموم البريطاني طلب من القنصل البريطاني في الكنغو ومن القناصل السابقين تقارير وافية عن الأوضاع في الكنغو، وقد ناقش المجلس هذه التقارير في عام ١٩٠٣ ونشرت بعض الصحف البريطانية صوراً كاريكاتورية للملك ليوبولد جالساً على عرش من جماجم الكنغوليين ومحاطاً بحقائب الذهب.

وتألفت لجنة تحقيق بلجيكية بناءً على توجيه من البرلمان البلجيكي لتقصي الأخبار وتقديم تقرير عن الوضع في الكنغو، وقدمت اللجنة تقريرها واعترفت فيه بكل هذه المساوئ، وترتب على ذلك أن تألفت لجنة أخرى لاقتراح وسائل الإصلاح، وقد أعلنت هذه اللجنة مقترحاتها في عام ١٩٠٨ وترتب على هذا أن صدر المرسوم بإنهاء (دولة الكنغو الحرة) التي وجدت بناءً على قرارات مؤتمر برلين.

وتحول الكنغو إلى مستعمرة بلجيكية في ١٧ أغسطس ١٩٠٨، واستمر كذلك حتى أعلن قيام جمهورية الكنغو المستقلة في يونية سنة ١٩٦٠.

نظام الحكم البلجيكي في الكنغو :

كـــان اهــتمام ســلطات (دولة الكنغو الحرة) موجهاً إلى ضمان خضوع البلاد للحكم الجديد والولاء له.

ولـــذا وضـــع نظـــام إداري يحقق هذا الهدف، فوضعت السلطة التنفــيذية في يد (حاكم عام) يساعده عدد من الموظفين، وتوالى على دولة الكنغو الحرة عدد من الحكام أشهرهم ستانلي وكان أول حاكم من قــبل الملـــك، وكان يساعد الحاكم (نائب الحاكم العام)، بالإضافة إلى السكرتير العام للدولة، وعدد آخر من الموظفين.

وقسمت البلاد إلى ١٤ إقليماً يدير كل منها مندوب أو مدير يمثل سلطة الدولة في إقليمه وينفذ تعليماتها وهو مسئول أمام الحاكم العام.

وعهـــد الملـــك ليوبولد إلى مجلس في بروكسل يتكون من رئيس ومستشــــارين بمهمة السلطة التشريعية، وإن كان قد منح الحاكم العام ســـلطة إصـــدار القوانين للظروف العامة، ويعين الملك كبار موظفي الدولة وأعطى الحاكم العام سلطة تعيين باقي الموظفين.

ومن جهة الأجور كان أجر العامل الأفريقي لا يزيد عن سبع أجر العامل الأوربي الذي يقوم بنفس العمل.

وكانـــت نظـــرة البلجيكييـــن للكنغوليين على أنهم أطفال قصر يحـــتاجون دائمـــاً للـــرعاية والتوجيه دون أن يكون لهم حق مناقشة المســـائل التي تخصهم أو التساؤل عن أسباب ما يحدث وهو ما عبر عنه نظام (الوصاية الأبوية).

وقد تعرض كثيرون من الأفارقة لأعمال القسوة والتعذيب والإلقاء في السجون بغير ذنب واضح.

ويقسم بعض المؤرخين تاريخ البلاد الاقتصادي إلى ثلاث فترات متميزة هي:

١- الفــترة الأولى (١٨٨٥ــ١٩٠٨): وهي فترة الاستغلال غير المــنظم وهــي الفترة التي قامت فيها ما سميت بدولة الكنغو الحرة، وفي هذه الفترة أستغل الأهالي واستغلت أراضيهم إلى أبعــد حــد، فقد اعتبرت أرض الكنغو ومن عليها ملكاً للملك ليوبولد الثاني.

٢- الفــترة الثانــية (١٩٠٨ــ١٩٢٠): فترة استثمار المواد الخام والمعادن من أجل الاتجار بها كما هي دون بذل أي جهد لتقدم الأهالــي أو تحسين أحوالهم أو تدريبهم على استغلال موارد بلادهم.

٣- الفــترة الثالــثة (١٩٢٠ــ ١٩٦٠): فــترة التصــنيع والتقدم الزراعي، مع عدم إتاحة الفرصة للكنغوليين لمباشرة الحقوق السياسية، وذلك عملاً بسياسة الوصاية الأبوية التي أشرنا إليها ســابقاً، والتــي تنظر للشعب على أنه غير كفء للاضطلاع بمهام الحكم والإدارة.

وحيــن تسلمت الحكومة البلجيكية إدارة الكنغو سنة ١٩٠٨ بدأت تــبذل بعــض الجهد، فأنشأت إدارة للصحة في ليوبولدفيل، وفي سنة ١٩٢٢ أنشأت معهداً لطب المناطق الحارة في انتورب.

وكان نشاط الشركات والهيئات الأهلية والتبشيرية في هذا المجال أكثر من نشاط الحكومة البلجيكية، لكن تركز اهتمام هذه الشركات أولاً على خدمات موظفيها خاصة الأوربيين منهم، ثم أخذ هذا النشاط يتجه أيضاً للوطنيين في الثلاثينات من هذا القرن.

الحركة الوطنية واستقلال الكنغو

حرصــت بلجــيكا على فرض ستار حديدي يحول دون اتصال الكــنغو بالتــيارات التــي تجري في القارة، كما منعت قيام الأحزاب السياســية ـــ لكــن لم تستطع أن تحافظ على هذه العزلة العجيبة إلى الأبد، فكان لابد أن تهز الكنغو أحداث الحرب العالمية الثانية وما تموج به القارتان الأفريقية والآسيوية من حركات تحررية.

وحاولــت بلجــيكا أن تواجه المشكلة بحل آخر فأصدرت بعض التشريعات عام ١٩٥٧ بإنشاء مجالس المديريات والمجلس الاستشاري العــام للكنغو، ولكن عدد الأفريقيين في هذه المجالس بوضعها السابق شرحه لم تكن البديل السليم للنظام التشريعي الذي يطالب به الكنغوليين بالإضــافة إلــى المشــكلات الأخرى الخاصة بالأجور والمساواة في الحقــوق لكافــة المواطنيــن دون مراعاة اللون، وكذلك الإصلاحات الاجتماعية التي أخذ بعض الكنغوليين يشعرون أن مجتمعهم في مسيس الحاجة إليها (ولم يلبث أن ظهرت عدة أحزاب وطنية مثل حزب أباكو الذي رأسه كازافوبو، وحزب الحركة الحاكمة الوطنية الكنغولية، وكان علــى رأسه (باتريس لومومبا) وحزب التضامن الأفريقي الذي رأسه انطون جيزنجا (Antonie Gizenga).

وكانــت المظاهــرات العنيفة التي اجتاحت ليوبولد فيل في يناير ١٩٥٩ نذيــراً بتطور الحوادث في الكنغو مما دعا ملك بلجيكا الملك بودوان (Baudouin) لأن يُصدر بياناً يعد فيه بمنح الكنغو الاستقلال، كمــا تشكلت بعثة برلمانية للتحقيق في أسباب الاضطرابات وما تراه من وجوه الإصلاح.

وتجددت الاضطرابات في أواخر عام ١٩٥٩ خاصة في (ستانلي فـيل) عاصمة الإقليم الشرقي وموطن (باتريس لومومبا) الذي اعتقل بتهمة تدبير الاضطرابات.

واضـطرت السـلطات البلجيكـية للإفراج عن باتريس لومومبا ليشترك في مؤتمر المائدة المستديرة في بروكسل الذي عُقد في مستهل عـام ١٩٦٠ وحضـره ممـثلون للأحزاب الكنغولية المختلفة وأنهى المؤتمـر جلسـاته في ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٠ وتقرر إعلان استقلال الكنغو يوم ٣٠ يونية ١٩٦٠.

وأجريت الانتخابات وتولى على أثرها لومومبا رئاسة الحكومة ــ ولكـن حاولت بلجيكا أن تحقق بالخيانة والدسيسة ما لم تستطع تحقيقه بالوسـائل العادية، فعزل لومومبا في سبتمبر عام ١٩٦٠، واعتقل ثم نقل إلى كاتنجا وحل محله عميل بلجيكا (تشومبي) وأغتيل لومومبا في ١٧ يناير ١٩٦١.

لكـن رغـم ذلك استطاعت الكنغو أن تحافظ على استقلالها وأن تدخـل بعد ذلك عضواً في منظمة الوحدة الأفريقية منذ قيامها في عام ١٩٦٣، وفي ١٩٦٥/١١/٢٤ تولى السلطة في البلاد الرئيس موبوتو، وفـي ١٩٧١/١٠/٢٧ تغير اسم البلاد إلى جمهورية زائير وهو الاسم الذي كان يعرف به حوض الكنغو قبل الاستعمار.

الفصل السابع
الفرنسيون في أفريقيا

- شمال أفريقيا
- غرب أفريقيا
- وسط أفريقيا
- شرق أفريقيا
- نظم الحكم في المستعمرات الفرنسية

فرنسا في شمال أفريقيا :

١ـ مصر:

كانت فرنسا تقدر أهمية ساحلها المطل على البحر المتوسط، لذلك أرادت أن تدعـم مصالحها في هذا البحر، ومنذ بداية هذا القرن أخذت فرنسا تبـدي هذا الاهتمام الذي تمثل في حملتها المعروفة على مصر (١٧٩٨ ــ ١٨٠١)، تلـك الحملة التي انتهت بالفشل، ثم أخذت فرنسا تبدي العطف على محمد على ومشروعاته، ولكن السياسة الفرنسية في هـذا المجـال أصيبت بالفشل بسبب تدخل إنجلترا ونجاحها في إيقاف محمـد على عند حده، كما كان مشروع قناة السويس مظهراً لاهتمام فرنسـا بالـبحر المتوسـط والبحر الأحمر كطريق إلى الهند. ورغم نجاحهـا فـي إقـناع والي مصر بشق القناة، لم تلبث أن صارت هي ومصـر كلها في قبضة بريطانيا منذ الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، فكانت فرنسا تشعر بالحقد على بريطانيا لإحراز هذا المركز المـتفوق فـي مصر، وحاولت فرنسا أن تفيد من انسحاب مصر من السـودان. بتوجيه حملة مارشان إلى فاشودة على النيل الأعلى، لولا تصدي كتشنر الإنجليزي لها.

٢ـ الجزائر:

بعـد أن عجز الفرنسيون عن تحقيق أطماعهم في مصر، تطلعوا بأبصـارهم إلـى المغرب العربي، وبدأت بالجزائر التي كانت تابعة للدولة العثمانية تبعية اسمية، ولكن كان حاكمها الفعلي هو الداي زعيم المجاهدين البحريين. الذي كان يصل إلى مركزه بفضل نفوذ طوائف

المجاهدين وقادة الفرق العسكرية، وقد كان الجهاد البحري نشاطاً هاماً في حياة البلاد وموردا من مواردها. الأمر الذي أقلق الدول الأوربية. وتذرعت فرنسا بهذه الحجة لمهاجمة الجزائر، كما تذرعت بحجة أخرى وهي إهانة قنصلها في الجزائر على يد الداي، بسبب مماطلة فرنسا في سداد ثمن القمح الذي استوردته من الجزائر، فحاصرت بعض قطع الأسطول الفرنسي ميناء الجزائر نحو ثلاث سنوات(١٨٢٧ ــ ١٨٣٠) لتردد فرنسا وخوفها من تدخل الدول، حتى لقد عرضت فرنسا على محمد على أن يقوم نيابة عنها بغزو الجزائر، ، وأخيراً قررت الحكومة الفرنسية في أوائل عام ١٨٣٠ إعداد حملة لغزو الجزائر.

وكانت الدوافع الحقيقية ــ إلى جانب الاستفادة من إنتاج الجزائر وشواطئها المطلة على البحر المتوسط ــ أن حكومة شارل العاشر في فرنسا وقتئذ ــ ملكية البوربون الراجعة ــ ورئيس وزرائها بولينيال كانت تواجه المشاكل داخل فرنسا، بسبب سياستها الرجعية التي أثارت كراهية الشعب. وأصبحت البلاد على حافة الثورة، ففكرت الحكومة الفرنسية في القيام بمغامرة فرنسية تضفى على الحكومة المجد، وتشغل الرأي العام عن مشاكل فرنسا الداخلية وسياسة الحكومة الرجعية.

وفي يونيو عام ١٨٣٠ بدأ غزو الجزائر، وبرغم بسالة الجزائريين فقد تفوق الفرنسيون بأسلحتهم الحديثة، مما اضطر الداي إلى تسليم مدينة الجزائر ومغادرة البلاد إلى نابولي. ثم تقدمت القوات الفرنسية فاحتلت بعض الموانى مثل المرسى الكبير ووهران وبونا،

ولكن عندما حاولت القوات الفرنسية التوغل في الداخل قوبلت بمقاومة عنيفة اضطرتها إلى التراجع.

ورغم تغير النظام في فرنسا عقب ثورة يوليو عام ١٨٣٠ وسقوط شارل العاشر، وتولى لويس فيليب (أسرة أورليان)، فإن ذلك لم يغير من تصميم فرنسا على الاحتفاظ بالجزائر، إلا أن محاولات الفرنسيين للتوغل في الداخل لم تنجح كثيراً، فقد استطاع الأمير عبد القادر تنظيم حركة المقاومة ضد الفرنسيين، وإزاء شعور فرنسا بعجزها إزاءه اضطرت لمفاوضته، وعقدت معاهدة معه عام ١٨٣٤، اعترفت فيها بسلطته على القبائل والمناطق الخاضعة له.

على ألا يشتري أسلحته إلا من فرنسا، فاستغل الأمير عبد القادر ذلك في تدعيم نفوذه في غربي الجزائر، ومحاولة مده إلى الشرق، فتجدد القتال ومنى الفرنسيون بخسائر فادحة اضطرتهم إلى عقد معاهدة تافنا عام ١٨٣٧، اعترفت فيها فرنسا للأمير بحكم المقاطعات التي تحت سلطانه في غرب الجزائر.

واتجه الفرنسيون نحو تثبيت مراكزهم في الإقليم الشرقي من الجزائر، فاحتلوا قسنطينة عام ١٨٣٧، وبعد أن استقر الفرنسيون في شرق الجزائر اتجهوا لمحاربة عدوهم العنيد ـ الأمير عبد القادر ـ الذي كان من ناحيته حاقداً على الفرنسيين لاستيلائهم على قسنطينة وانتزاع الأراضي من أصحابها لتوزيعها على المهاجرين، الذين أخذوا يتدفقون من فرنسا، واعتبر ذلك نقضاً لمعاهدة تافنا، فبدأت جيوشه في هاجمة القوات الفرنسة.

وكانـــت الحكومـــة الفرنســـية من ناحيتها قد قررت العمل على الاحتلال الكامل للجزائر مهما كلفها ذلك من ثمن، ومنذئذ بدأت حرب طاحنة عام ١٨٤٠ بينها وبين الأمير عبد القادر انتهت باستسلامه بعد سبع سنوات، بعد أن سار الفرنسيون في حربهم على طريقة الإرهاب وإحراق القرى والمحاصيل وإثارة الرعب في القبائل، وهاجمت فرنسا المغرب لتعاطف سلطانها مع الأمير عبد القادر.

وباستســـلام الأمـــير عبد القادر تم الغزو الفرنسي للجزائر، وإن استمر الشعب الجزائري في الثورة، وقد خاض الفرنسيون في الجزائر حرب إبادة اتسمت بالوحشية، من أجل القضاء على المقاومة الوطنية، لدرجـــة أن عـــدد سكان الجزائر انخفض من أربعة ملايين إلى ثلاثة ملايين في مدى سبع سنوات.

ولـــم يكن استسلام عبد القادر يعني نهاية المقاومة، فقد استمرت ممثلة في:

أ- ثورة ولد سيدي الشيخ عام ١٨٦٤.

ب- ثرة المقراني عام ١٨٧١.

وقد ارتفع عدد المستوطنين الفرنسيين في الجزائر من ١٢٩ ألفاً عام ١٨٧١ إلى ٥٦٣ ألفاً عام ١٩١١، سيطروا على ثروات البلاد.

واستمرت ــ بعد الحرب العالمية الأولى ــ المقاومة الوطنية التي تمثلت في:

١- جماعة العلماء الجزائريين.

٢- نجمـــة شـــمال أفريقـــيا التـــي تكونت في فرنسا من العمال الجزائريين بزعامة مصالي الحاج، حيث كانت الحرية متاحة

فـــي فرنسا أكثر من الجزائر، وقد تحولت نجمة شمال أفريقيا إلى حزب الشعب.

وكـــان للحـــرب العالمـــية الثانية أثرها على ازدياد قوة المقاومة الوطنـــية. بسبب مبادئ الحرية التي يروج لها الحلفاء، هذا إلى جانب هزيمة فرنسا في الحرب، وضياع مكانتها الدولية، رغم إصدار قانون عـــام ١٩٤٧، الذي يقضي بأن الجزائر جزء من الأراضي الفرنسية، ومـــع ذلـــك قـــد نشبت الثورة الجزائرية الكبرى في أول نوفمبر عام ١٩٥٤، واســـتنزفت مـــوارد فرنسا المادية والبشرية،مما دفع ديجول بعدما تولى الحكم عام ١٩٥٨ أن يوافق على إجراء مفاوضات ايفيان عـــام ١٩٦١، التـــي انتهـــت بتوقيع اتفاقية إيفيان عام ١٩٦٢، التي اعترفت فيها فرنسا باستقلال الجزائر.

٣ـ تونس:

كانـــت هـــي أيضـــاً تحت السيادة الاسمية للسلطان العثماني، أما السلطة الفعلية فكانت في يد الباي، ومنذ عام ١٧٠٥ أصبح الحكم في تونس في أفراد الأسرة الحسينية، وحتى قيام الجمهورية عام ١٩٥٧، ومـــنذ سيطرت فرنسا على الجزائر أخذت تتطلع للسيطرة على تونس أيضـــاً لمجاورتهـــا الجزائـــر وخيراتها، وموانيها الطبيعية وموقعها المـــتحكم فـــي خاصرة البحر المتوسط، ولكنها كانت تجد منافسة من جانب دول أوربية أخرى، وبخاصة إنجلترا وإيطاليا.

رغـــم الإصـــلاحات التـــي أدخلها بعض البايات مثل الإصلاح الدستوري الذي أدخله الباي محمد بإصدار عهد الأمان عام ١٨٥٧، ثم

قـانون الدولـة التونسية الذي صدر في عهد محمد الصادق، فأصبح دسـتوراً لـتونس يجمـع بين الشريعة الإسلامية والقوانين العصرية، ورغـم ذلـك كله فقد اقترنت حركة الإصلاح في تونس بمشكلة مالية بسـبب إسـراف الـبايات وطمع الوزراء وعجز ميزانية الدولة عن مجاراة الإصلاح ونفقاته، وانتهى الأمر بوقوع تونس في الديون، وما ترتـب علـيها مـن إشراف مالي أجنبي، مما مهد الطريق للاحتلال الفرنسـي خصوصـاً وأن ذلك صحبه امتيازات منحها البايات للدول الأجنبية في تنفيذ المشروعات.

ولمـا كانـت إنجلترا متمسكة بسياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية، فقد كانت تحرص على إبراز تبعية الباي للسلطان العثماني.

أما المنافس الآخر لفرنسا في تونس فهو إيطاليا، التي صارت ــ بعـد تحقيق وحدتها عام ١٨٧٠ــ تطمع في أن تكون لها إمبراطورية شـأنها فـي ذلـك شأن الدول الأوربية الأخرى (مكان تحت الشمس) خصوصـاً وأن تونـس قريـبة جداً من إيطاليا، بل وكان الإيطاليون يعتبرونها امتداداً طبيعياً لصقلية، وقد شرعت إيطاليا في تدعيم نفوذها في تونس بمقتضى المعاهدة التي عقدت عام ١٨٦٨، وبموجبها حصل الإيطالـيون علـى كثـير مـن الامتيازات للعمل في تونس في شتى المجالات، حتى لقد أصبح لإيطاليا جالية كبيرة في تونس.

إلا أن العـامل الحاسـم فـي تقرير مصير تونس كان يتمثل في الظـروف الدولـية السـائدة وقتئذ. فقد اهتمت فرنسا بالحصول على موافقـة إنجلـترا بالذات على سياستها التوسعية في تونس، فانتهزت فرنسـا فرصـة ضم إنجلترا لقبرص عام ١٨٧٨ لتحقيق هدفها، فتم

الاتفـــاق بيـــن الدولتين على ألا تعارض إنجلترا أي تدخل فرنسي في تونـــس، مقـــابل عدم اعتراض فرنسا على اتفاقية قبرص، التي كانت تعتبر نقضاً للاتفاقيات الدولية السابقة، والتي تنص على عدم المساس بالممتلكات العثمانية.

ولعل بريطانيا كانت ترى في هذا الاتفاق تمهيداً لانفرادها بالعمل في مصر في السنوات التالية.

يضـــاف إلـــى ذلك أن بسمارك كان يرحب بالتوسع الفرنسي في شـــمل أفريقيا، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا التوسع يفيد ألمانيا من عدة نواح :

١- تحويـــل أنظـــار فرنســـا عن إثارة حرب انتقامية ضد ألمانيا لاسترداد الألزاس واللورين، والثأر من ألمانيا التي أنزلت بها الهوان في حرب السبعين.

٢- إلقـــاء فرنسا في أتون حرب أخرى ضد الوطنيين التونسيين تستنزف موارد فرنسا، كما استنزفتها من قبل حرب الجزائر.

٣- بـــذر العداوة بين فرنسا وإيطاليا، واعتقد بسمارك أن احتلال فرنســـا لتونس سوف يجعل إيطاليا تنضم إلى ألمانيا في حلف معـــاد لفرنســـا، وقد صدق حدس بسمارك، فإنه لم تكد فرنسا تحتل تونس عام ١٨٨١، حتى أسرعت إيطاليا بالانضمام إلى التحالف الثنائي ـــ ألمانيا والنمسا ـــ ليصبح تحالفاً ثلاثياً.

واستغلت فرنسا بعض الحوادث العادية ـــ عبور قبيلة من تونس إلـــى الجزائر، وحدوث بعض السرقات ـــ فأعدت حملة بدعوى تأديب هـــذه القـــبائل، كما أنزلت بعض قواتها إلى بنزرت، وتقدمت لاحتلال

العاصـــمة، حتى وصلوا إلى قصر باردو حيث قدموا إلى الباي نسخة من المعاهدة المطلوب التوقيع عليها، وفي هذا الجو من الإرهاب وقع الـــباي علـــى معاهدة باردو عام ١٨٨١. وفيها سمح لفرنسا باحتلال المراكز التي تمكنها من المحافظة على الأمن. وتعهدت فرنسا بحماية الـــباي، وأن يمـــثل فرنسا في تونس وزير مقيم للإشراف على تنفيذ المعـــاهدة، وأن يقوم ممثلو فرنسا الدبلوماسيون في الأقطار الخارجية برعاية مصالح تونس في هذه الأقطار.

وقد عم السخط أفراد الشعب التونسي، وقامت عدة ثورات، وفي عـــام ١٨٨٣ وقعت فرنسا معاهدة المرسى التي منحت فرنسا السلطة الكاملـــة في تونس، فقد أصبحت فرنسا بمقتضى هذه المعاهدة تشرف علـــى الشـــئون الخارجية لتونس، بالإضافة إلى إشرافها على الشئون الداخلـــية، عـــن طـــريق المديريـــن الفرنســـيين الذين أصبحت لهم اختصاصـــات الـــوزراء، ويشتركون في اجتماعات مجلس الوزراء، وكذلـــك عن طريق المجالس البلدية وغيرها من الإدارات التي اشترط أن يمثل فيها الفرنسيون بعدد مساو لعدد التونسيين.

تأثرت المقاومة الوطنية في تونس بالتيارات الفكرية في المشرق ـــ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ـــ وتزعم الحركة الوطنية حـــزب تونـــس الفتاة الذي تعقبت السلطات الفرنسية زعماءه بالسجن والنفـــي، ثـــم الحـــزب الدســـتوري الذي استطاع أعضاؤه الشبان أن ينفصـــلوا بتكويـــن الحـــزب الدستوري الجديد، وكان الحبيب بورقيبة الأمين العام، ورغم اضطهاد السلطات الفرنسية للحزب فقد فر الحبيب بورقيبة إلى القاهرة، ومنها أدار الكفاح ثم عاد إلى تونس.

ومارســت السلطات الفرنسية أعمال القمع ضد الوطنيين لدرجة جعلــت الباي يساند المعارضة الوطنية للحماية الفرنسية، ولم تلبث أن نشأت مقاومة مسلحة منظمة عام ١٩٥٤، وكان قيام الثورة الجزائرية فــي ذلك الوقت سبباً في جعل فرنسا تقتنع برأي الحبيب بورقيبة في عقد اتفاق لا يتضمن قيوداً شديدة على تونس، وعلى ذلك أعلن الحبيب بورقيــبة في ٢٠ مارس عام ١٩٥٦ إسقاط المعاهدة، وبذلك أصبحت تونس دولة كاملة السيادة.

وفــي عام ١٩٥٧ أنهى الحبيب بورقيبة حكم الباي محمد الأمين، وأعلنت الجمهورية، وأصبح الحبيب بورقيبة رئيساً للجمهورية.

٤ـ مراكش :

مــنذ احتلت فرنسا الجزائر أخذت تهتم بمراكش وظهرت أهميتها أكــثر عندما حدث تعاون بين سلطانها والأمير عبد القادر الجزائري أثــناء كفــاح الأخير ضد الفرنسيين ، وأخذ الاستعماريون الفرنسيون يطالــبون بإقامة إمبراطورية استعمارية فرنسية في شمال أفريقيا، من ســاحل البحر المتوسط شمالاً إلى الكونغو جنوباً، ومن السنغال غرباً إلى النيل شرقاً، حتى لقد أطلق هؤلاء الاستعماريون على شمال أفريقيا اسم " فرنسا الجديدة" ، إلا أن فرنسا لم تستطع تحقيق هذا الحلم كله في القــرن التاسع عشر. بسبب معارضة الدول الاستعمارية الأخرى مثل إنجلترا وإيطاليا وأسبانيا وألمانيا.

وفــي القرن العشرين، وبعد أن استولت فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ وتونــس عام ١٨٨١، ومن أجل استكمال المشروع بالسيطرة

على مراكش اتجهت على عقد سلسلة من الاتفاقيات مع الدول المعنية بشئون مراكش، حتى لا تجد فرنسا من هذه الدول معارضة لسيطرتها علـى مـراكش، وفـي عـام ١٩٠٢ عقدت فرنسا اتفاقاً مع إيطاليا وبمقتضـاه اتفقت الدولتان على أن تطلق إيطاليا يد فرنسا في مراكش مقابل إطلاق فرنسا يد إيطاليا في ليبيا، وكانت إيطاليا تحقد على فرنسا لاحـتلالها تونـس عام ١٨٨١، التي كانت إيطاليا تطمع في السيطرة عليها، وعلى الرغم من أن فرنسا ـ منذ احتلت إنجلترا وحدها مصر عـام ١٨٨٢ ـ كانت تعارض الاحتلال الإنجليزي، وتطالب إنجلترا بالانسـحاب. وقـد أخذت هذه المعارضة شكل التحدي عندما حاولت فرنسـا عام ١٨٩٨ أن تسيطر على جنوبي السودان، وكادت القوات الفرنسية (مارشان) تصطدم بالقوات الإنجليزية (كتشنر) عند فاشودة، فقـد أيقنت فرنسا أن من مصلحتها التفاهم مع إنجلترا، خصوصاً وأن للدولتيـن عـدواً واحداً مشتركاً في أوربا، هو الإمبراطورية الألمانية الجديـدة التي نزلت مؤخراً ـ بعد تكوينها عام ١٨٧١ ـ إلى ميدان الاستعمار، فكان أن سحبت فرنسا قواتها من فاشودة عام ١٨٩٩، ولم تلبـث أن توصلت في عام ١٩٠٤ إلى عقد الاتفاق الودي Cordiale Entente مـع إنجلـترا، علـى أساس أن تكف فرنسا عن معارضة الاحـتلال الإنجليزي لمصر، وتطلق يد إنجلترا فيها، مقابل أن تطلق إنجلترا يد فرنسا في مراكش.

وكانـت أسـبانيا ـ مـنذ القرن السادس عشر ـ لها أطماع في مراكش، وبمرور الأيام كانت أسبانيا تدرك مدى المصالح المتعارضة فـي المغـرب: مصـالح فرنسـا ومصالح ألمانيا، فدخلت أسبانيا في

مفاوضات مع فرنسا منذ عام ١٩٠٢، بقصد الوصول إلى اتفاق يحقق أطماع كلتا الدولتين في مراكش، إلا أن الدولتين لم يتوصلا إلى اتفاق نهائـي إلا بعـد توصـل إنجلترا وفرنسا إلى عقد الاتفاق الودي عام ١٩٠٤، وعلـى هذا توصلت فرنسا وأسبانيا إلى اتفاق في أواخر عام ١٩٠٤، وكان الاتفاق ينص في مواده العلنية على أن تحترم الدولتان، وتحافظا على وحدة الإمبراطورية المغربية في ظل سيادة السلطان، إلا أنـه ألحـق بـه اتفاق سري يعطي الحكومة الأسبانية حق التصرف والعمـل فـي المـنطقة الساحلية التي حددتها الاتفاقية، إذا ما أصبح استمرار الوضع السياسي القائم في المغرب متعذراً، إما بسبب ضعف الحكومـة الشريفية، أو بسبب عجزها عن فرض القانون والنظام، أو لأي سبب آخر يقبله الفريقان المتعاقدان.

وبذلـك لم يبق من الدول المهتمة بالمغرب إلا ألمانيا، التي كانت ــ بعـد أن أتمت وحدتها في عام ١٨٧١، ودخلت ميدان التصنيع ــ تـريد أن تحصـل علـى مناطق نفوذ ذات موقع استراتيجي، وتخدم مصـالحها الـتجارية والصناعية، ومن هذه المناطق التي لفتت أنظار الألمان مراكش، فعينت منذ عام ١٨٧٣ مقيماً لدى الحكومة المراكشية، وعدت إليه بالعمل على تنمية التجارة الألمانية مع مراكش، كما تقدمت بطلب إلى السلطان مولاي الحسن تطلب منحها ميناء يصلح كمستودع للفحم يعمل في خدمة الأسطول التجاري الألماني.

وحين تم الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤، خشيت ألمانـيا أن يؤدي الاتفاق إلى الإضرار بمصالحها في مراكش، ولذلك شرعت في العمل لحماية هذه المصالح، فقام الأمبراطور غليوم (ولهلم

ــ ولــيام) الثانــي بزيارة طنجة في مارس عام ١٩٠٥، وصرح في خطاب ألقاه فيها بأن ألمانيا لا تسمح لأية دولة أجنبية بأن تمس سلطة الحاكم الشرعي، وأنه يأمل أن تفتح مراكش ــ في ظل السيادة الكاملة للســلطان ــ المنافســة الــتجارية الحرة لجميع الأمم دون احتكار أو استثناء.

واســتناداً إلــى تأيــيد ألمانيا، دعت الحكومة المراكشية إلى عقد مؤتمر دولي للنظر في شئون مراكش، على أمل أن يؤدي هذا المؤتمر لمســاندة الدول للحكومة الشرعية في مراكش في موقفها من الأطماع الفرنسية التي صارت واضحة جلية، ورغم معارضة فرنسا لعقد مثل هذا المؤتمر، على أساس أنها لا تقبل وساطة أحد بينها وبين الحكومة المراكشــية، فقــد اضطرت الحكومة الفرنسية إلى الموافقة على عقد المؤتمر.

وعقد المؤتمر في مدينة الجزيرة (Algeeiros) بأسبانيا في يناير ــ أبريل عام ١٩٠٦، وحضره مندوبون عن اثنتي عشرة دولة: فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا وهولندا والسويد، وعلى الرغم من أن الدول اتفقت علــى احترام سيادة السلطان واستقلاله ووحده مملكته، وعلى الحرية الــتجارية في موانيه دون تفرقة، فإن الضمانات التي أعطيت للمغرب بموجــب الاتفاقــية كانت عديمة القيمة، بل وجاءت قرارات المؤتمر مدعمــة للنفوذ الفرنسي، فقد تقرر أن يتولى فرنسيون الإشراف على البولــيس المراكشي في المدن الواقعة على ساحل الأطلنطي، ويشرف الأسبان على بوليس تطوان، بينما يوضع بوليس الدار البيضاء وطنجة

تحت إشراف دولي، وتقرر تأسيس مصرف دولي لمراكش ساهمت فيه فرنسا بأكبر نصيب.

وقد اتخذت فرنسا من إشرافها على البوليس المراكشي في الموانى الهامة الواقعة على المحيط الأطلنطي فرصة لتقوية نفوذها في هذه المنطقة، ولذلك لم تلبث ـ قبل مضي عام على توقيع ميثاق الجزيرة ـ أن قامت فرنسا عام ١٩٠٧ باحتلال المناطق الحيوية بالنسبة لها، مثل وجدة الواقعة على الطريق إلى الجزائر، والدار البيضاء ذلك الميناء الهام على المحيط الأطلنطي، وأراضي الشاوية الخصبة، وكان من الطبيعي أن تتقدم أسبانيا أيضاً لتأخذ نصيبها، فاحتلت في عامي ١٩٠٨ و١٩٠٩ بعض المناطق الهامة في إقليم الريف.

وتطورت الحوادث، فاحتلت فرنسا الرباط ثم العاصمة فاس في عام ١٩١١، بدعوى حماية السلطان من القبائل الثائرة ضده، ثم احتلت فرنسا مكناس، وتبع ذلك احتلال أسبانيا للقصر الكبير بدعوى ثورة الرأي العام المغربي واضطراب الأمن بسبب التدخل الأجنبي.

أثارت هذه الأحداث ألمانيا، التي توشك أن تخرج من مراكش صفر اليدين، فأرسلت إحدى سفنها البحرية الحربية إلى ميناء أغادير عام ١٩١١ إظهارا لقوتها، وبدعوى حماية مصالح الرعايا الألمان، وقام سفير المغرب في باريس بإبلاغ الحكومة الفرنسية بأن الطراد الألماني سيغادر ميناء أغادير عندما تعود الحالة في مراكش إلى هدوئها السابق، ويلاحظ أن ألمانيا لم يكن لها رعايا في أغادير بالذات، ولكنها كانت أصلح موانى مراكش على الأطلنطي، ولقربها من منطقة

مـــناجم كانت ألمانيا تطمع في وضع يدها عليها، إلا أن ألمانيا لم تلبث أن وصلت إلى اتفاق مع فرنسا على تسوية المسائل بينهما عام ١٩١١ ورضـــيت فرنسا بالتنازل لألمانيا عن منطقة جرداء تقع شمال الكنغو الفرنسي، مقابل أن توافق ألمانيا على إطلاق يد فرنسا في مراكش، فلا تعارض إقامة حماية فرنسية على مراكش.

وبإزالـــة هـــذه العقبات جميعاً من وجه فرنسا، قررت الحكومة الفرنسية إرغام السلطان عبد الحفيظ على توقيع شروط المعاهدة، وفي نفـــس العـــام وقعت فرنسا وأسبانيا اتفاقاً لتسوية المسائل بين البلدين، المترتبة على إعلان فرنسا الحماية على المغرب.

اتخذت الحركة الوطنية في مراكش طابعاً إسلامياً سلفياً، رداً على تعـــاون معظـــم الطرق الصوفية مع الاستعمار الأجنبي، ومن زعماء الحـــركة الوطنـــية الأوائل علال الفاسي، خصوصاً بعد إصدار فرنسا الظهـــير الـــبربري عام ١٩٣٠، الذي كان يهدف إلى تنصير البربر، فأســـس علال الفاسي الكتلة المراكشية، التي صار لها فروع أيضاً في مـــنطقة الريف الخاضعة لأسبانيا، ثم تحولت الكتلة إلى حزب رسمي باسم الحزب الوطني.

وكان السلطان محمد الخامس ابن السلطان يوسف قد تولى الحكم عـــام ١٩٢٧، وقـــد كـــان للحرب العالمية الثانية أثرها على الحركة الوطنية في مراكش أيضاً، فقد تأسس حزب الاستقلال الذي اعتمد على بقايـــا الحـــزب الوطني، وطالب بضرورة إسقاط الحماية فوراً كشرط مسبق للتفاوض مع فرنسا، وعمت المظاهرات أنحاء البلاد، وتعاطف السلطان مع مبادئ الحزب، مما دفع الفرنسيين إلى خلعه عام ١٩٥٢، ونفيه إلى جزيرة مدغشقر.

وأصــر زعمــاء المقاومة ــ وهم من حزب الاستقلال ــ على ضرورة عودة السلطان، مما اضطر الحكومة الفرنسية للتفاوض معهم على هذا الأساس، ولكنها ماطلت في إسقاط نظام الحماية مما أدى إلى اســتمرار جــيش التحرير في نشاطه، وأخيراً اضطرت فرنسا لإلغاء الحماية عام ١٩٥٦، وبذلك حصلت مراكش على استقلالها السياسي.

فرنسا في أفريقيا الغربية:

يطلــق لفــظ أفريقيا الغربية على تلك المنطقة الواقعة في شمال غــرب القارة، ويحدها من الغرب والجنوب المحيط الأطلنطي، ومن الشرق خط ممتد من بحيرة تشاد إلى الساحل المقابل لجزيرة فرناندوبو أمــا في الشمال فتضيع الحدود في الصحراء الكبرى، وقد كان للعرب ممــالك زاهــرة في هذه المنطقة التي كانت على اتصال ببقية أجزاء القارة في الشرق والشمال خصوصاً بسبب الحج والتجارة.

وبعــد أن كشف البرتغاليون النقاب عن ساحل غينيا بقليل، بدأت السفن الفرنسية تبحر إلى أفريقيا الغربية للتجارة، رغم أنها لم تبذل في بدايــة الأمــر محاولات لإقامة أي مراكز، لأنه في ذلك الوقت المبكر كانت فرنسا متخلفة في هذا المجال عن البرتغال وهولندا وإنجلترا.

١ـ السنغال:

ومــع ذلك فإنه في عام ١٦٣٧ رحل شاب فرنسي مغامر يدعى دي روشــفور de Rochefort علــى سفينة عليها بعثة بقيادة الكابتن لأمبــير إلــى السنغال حيث كشفوا نهر السنغال، وساروا فيه صعوداً لمسافة ١١٠ أميال من مصبه، وبعد الحصول على بعض الامتيازات

من الوطنيين وإنشاء حصن سان لويس عادت البعثة إلى فرنسا، ولكن هذه الحملة الرائدة لم تستمر بسبب عداء الوطنيين، وفي عام ١٦٦٧ ــ وكانت فرنسا وقتئذ في حرب مع هولندا ــ استولى الأسطول الفرنسي علــى الموانى الهولندية على ساحل السنغال، وفي عام ١٦٩٧ أوفدت شــركة الســنغال الملكــية الفرنسية رجلاً كفئاً هو أندريه دي بروي Andre de Brua أتخذ من قلعة سان لويس ــ التي أنشأتها جماعة دي روشــفور ــ مركــزاً له، وكان له فضل وضع أسس الإمبراطورية الفرنســية فــي غــرب أفريقيا، وظل الفرنسيون يعملون على تنمية مراكــزهم فــي الســنغال إلى أن شغلتها الأحداث في أوربا (الثورة ونابليون)، التي ضاعت في أثنائها ممتلكات فرنسا في السنغال، وبعدها أستأنف الفرنسيون كشوفهم في المنطقة، وفي عام ١٨١٨ كشفوا منابع نهــر غامبيا، وفي عام ١٨٢٧ وصل كاييه Caillie إلى تمبكتو على النــيجر، ومنها شق طريقه عبر الصحراء إلى المغرب، إلا أن ذلك لم يفــد الفرنســيين فــي الــتقدم صوب النيجر، لأن الحاج عمرو زعيم الفولانــي كــان يقف في وجههم، بل ويهدد الوجود الفرنسي ذاته في السنغال.

إلا أنــه مــنذ عام ١٨٥٤ أخذ الجنرال فيدرب Faidherbe الذي عيــن في عهد الإمبراطورية الثانية حاكماً على السنغال ــ يعمل بعد هــزيمة الفولا على ضم الأراضي على طول السنغال، وفيما بين سان لويس ومصب غامبيا عبر الرأس الأخضر.

وعلــى ســاحل العــاج بــذل الإمبراطور نابليون الثالث خلال الســتينيات مــن القــرن التاســع عشر جهوده لزيادة النفوذ الفرنسي

التجاري والسياسي في خارج بنين، وفي عام ١٨٦٨ فرضت الحماية الفرنسية على بورتو نوفو.

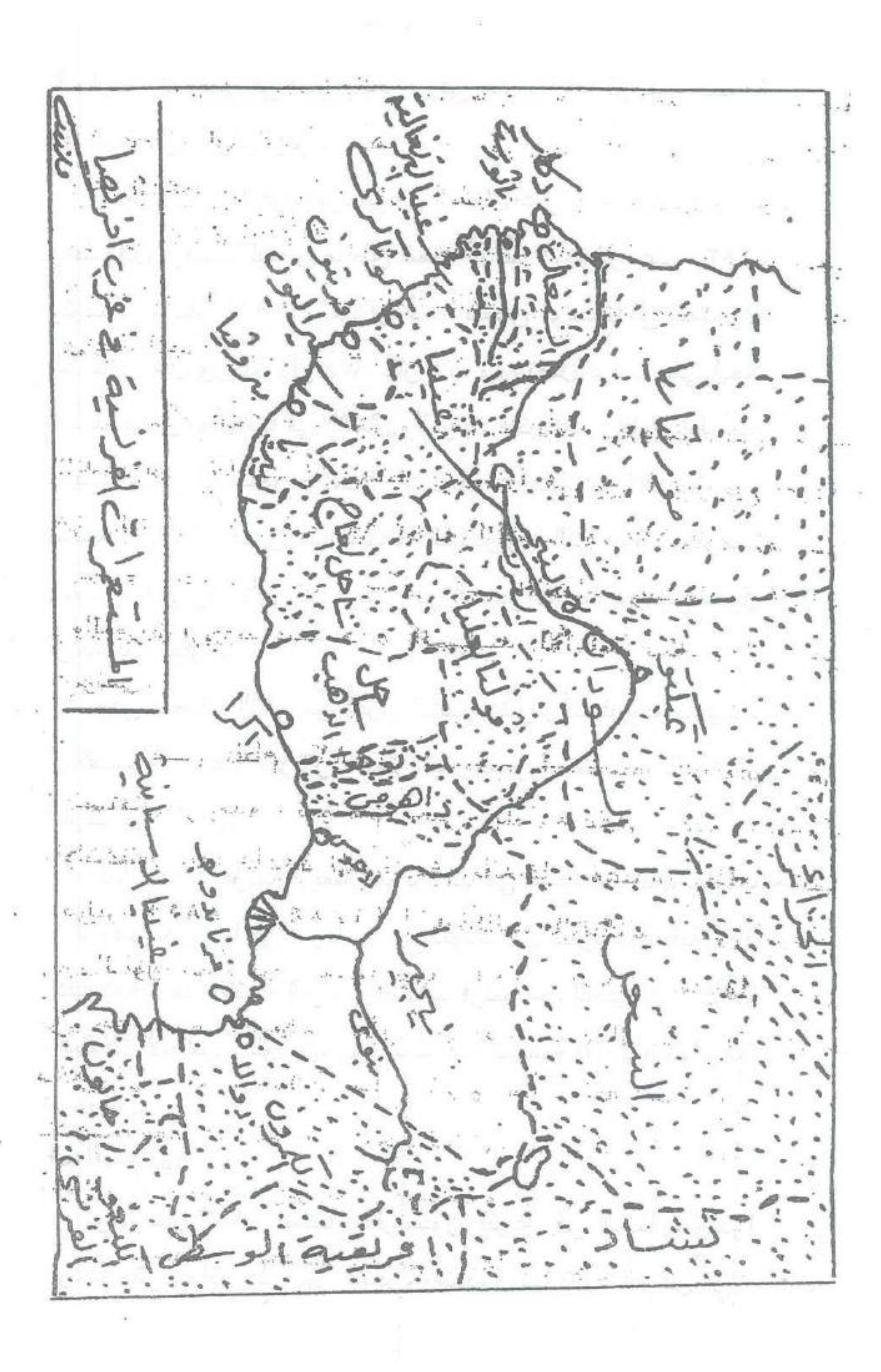
وبعد أن امتد النفوذ الفرنسي في السنغال على يد الجنرال فيدرب، واحتلال فرنسا لبعض مناطق شمال أفريقيا (الجزائر عام ١٨٣٠، وتونس عام ١٨٨١) واحتلالها أيضاً لبعض الواحات في الصحراء الكبرى مثل ورجلة Wargla، كان لابد وأن تعمل فرنسا على إيجاد صلة بين ممتلكاتها في الشمال والغرب، ففكرت في إقامة خط سكة حديد عبر الصحراء Saharian Chemin de Fer Trans، لولا ضخامة التكاليف وجذب المنطقة الصحراوية التي سوف يخترقها، وعداء الطوارق لأي تقدم فرنسي في الصحراء، مما أدى إلى عدول فرنسا عن الفكرة.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر رأت فرنسا أنه يجب أن تقيم من هذه المراكز المبعثرة إمبراطورية تمتد عبر القارة من الغرب إلى الشرق..

كما أنه بعد هزيمة فرنسا أمام بروسيا في حرب السبعين، حاولت أن تعوض هزيمتها في أوربا بتوسيع نفوذها في القارة الأفريقية، وقد أيدت ألمانيا هذا الاتجاه الفرنسي لصرف فرنسا عن التفكير في الانتقام واستعادة الألزاس واللورين، ووضحت هذه السياسة الألمانية كما رأينا في تونس.

٢- النيجر:

وفي عام ١٨٨٣ استطاع الفرنسيون التوغل في السنغال، ومدوا نفوذهم حتى باماكو على نهر النيجر، واتخذوا منها قاعدة للتوغل في


المستعمرات الفرنسية في غرب افريقيا
الجزائر
موريتانيا
تمبكتو
الصحراء
السودان
النيجر
تشاد
السنغال
دكار
باثورست
فولتا العليا
غينيا
غينيا البرتغالية
كوناكري
فريتون
سيراليون
ليبريا
منروفيا
ساحل العاج
ساحل الذهب
اكرا
نيجيريا
الكمرون
دوالا
فرنانديو بو
غينيا الاسبانية
جابون
الكنغو الفرنسي

الداخـل، وعـندما أطلق مؤتمر برلين (١٨٨٤ـ١٨٨٥) إشارة البدء بالتكالـب على أفريقيا بين الدول الأوربية، وسمح لهذه الدول بإعلان حمايـتها على أي جزء من أفريقيا، على أن تؤيد هذه الحماية باحتلال فعلي لها، سارعت فرنسا ـ شأنها شان بقية الدول الأوربية ـ لتدعيم نفوذهـا فـيما كانـت تحتله في غرب القارة، بل والتوغل في الداخل لتوسيع الرقعة الخاضعة لها.

فتقدمت القوات الفرنسية على طول النيجر، ووصلوا إلى تمبكتو وحاصـروها عام ١٨٩٣، وتصدت قبائل الطوارق للفرنسيين وكبدتهم خسـائر فادحة، وحاول الطوارق ـ دون جدوى ـ الاستنجاد بسلطان مـراكش، ولكن استطاع الفرنسيون تعزيز قواتهم حتى سقطت تمبكتو فـي أيديهـم، وأسرت الزعيمين الأفريقيين: أحمدو شيخو وساموري ونفـتهما إلـى جـابون، وبذلك فتح أمام الفرنسيين الطريق إلى نهر النيجر.

أمـا أحمدو شيخو فكان زعيم قبائل التكولور الزنجية المسلمة في مـرتفعات فوطاجالون وعلى ضفاف نهر السنغال، وكان أحمد شيخو أبناً للحاج عمر الذي تعلم في الأزهر ثم عاد لبلاده عام ١٨٣٣، وعمل على نشر الإسلام بين قبائل الفولا، وأصبح له نفوذ في غرب السودان حيـث أصـبح زعـيم الطريقة التيجانية، ووقف في وجه الاستعمار الفرنسي، كما وقف بعده ابنه أحمدو شيخو.

أمـا ساموري فهو زعيم قبيلة الماندنجو، وهي أيضاً قبيلة زنجية مسلمة، واستطاع ساموري تكوين مملكة قوية في المنطقة التي يرويها النـيجر الأعلى وروافده، وقد وقف هو أيضاً في وجه تقدم الفرنسيين إلى أن أسر مع أحمدو شيخو .

وبعد ذلك تقدم الفرنسيون في النيجر حتى ساي ومنها إلى بوصا، مما أدى إلى اصطدامهم بالإنجليز الذين كانوا في هذا الوقت يدعمون نفوذهـم في نيجيريا من الجنوب، وقد تم تسوية الخلاف بين الدولتين باتفاق عقد في باريس، فأخلت فرنسا بوصا وانسحب الفرنسيون إلى ما وراءها.

كمـا انطلـق الفرنسيون من مراكزهم القديمة في غينيا، وكذلك بسـطوا نفـوذه علـى إقليم ساحل العاج عام ١٨٩١ المجاور لساحل الذهـب (غانـا)، الـذي كان منطقة نفوذ إنجليزية، وفي عام ١٨٩٣ سيطروا على داهومي، وبذلك أصبحت مناطق نفوذ فرنسا في داهومي وحوض النيجر الأعلى كتلة متصلة.

٣ـ تشـاد:

وفـي عـام ١٨٩٨ وجهت فرنسا ثلاث حملات ، إحداها من الجزائر، والثانية من الكونغو الفرنسي، والثالثة من السنغال، واستولت الحمـلات الـثلاث على مدينة Zinder الواقعة شمال كانو ثم تابعت القـوات الفرنسـية تقدمها شرقاً صوب بحيرة تشاد، حيث كان رابح الزبير ــ بعد أن رفض الاستسلام لغوردون ــ قد كون مملكة سودانية قويـة عند بحيرة تشاد، وقد وقفت هذه الدولة السودانية في وجه تقدم الفرنسـيين، إلا أن الحملات الفرنسية تكتلت ضد رابح الزبير وهزمته وقتلـته فـي الحرب، كما اصطدمت القوات الفرنسية في زحفها شرقاً تجـاه السودان بالسنوسيين، الذين كانوا قد استقروا في شمال أفريقيا، واتخـذوا مـن واحة جغبوب مركزاً لدعوتهم، خصوصاً وقد ارتبطت بالسنوسـيين السلطات الحاكمة في واداي، التي قاومت الفرنسيين عند

نهـر شاري حتى عام ١٩١١، حين استطاع الفرنسيون هزيمة قوات واداي بعد أن خسروا خسائر فادحة.

كمـا عقـدت فرنسا معاهدات حماية مع رؤساء وشيوخ البربر والقـبائل العربـية الواقعة شمال السنغال في المنطقة المعروفة باسم موريتانيا، ثم انتهزت فرنسا فرصة مصرع أحد رجالها على يد بعض القبائل، فغزت موريتانيا عام ١٩٠٨ــ١٩٠٩.

وهكـذا أصـبح لفرنسا في غرب أفريقيا سبع مستعمرات، هي: السنغال وغينيا والسودان الفرنسي وساحل العاج وفولتا العليا وداهومي والنيجر.

وقـد قـاوم الوطنـيون السيطرة الفرنسية، الأمر الذي أثر على محاولات الاستغلال الاقتصادي.

فرنسا في أفريقيا الوسطى الاستوائية:

قـبل القـرن التاسع عشر كانت فرنسا قد أبدت اهتماماً بالمنطقة الساحلية القريبة من نهر الكونغو، فأرسلت إليها بعثات تنصيرية، وبعد أن هدأت أحوال فرنسا عقب فترة الحروب النابليونية، عاودت الاهتمام بالمـنطقة، فكان لها نشاط تجاري تنصيري في جابون، التي وضعها ملكهـا تحت النفوذ الفرنسي، وفي عام ١٨٤٨ أنزل الفرنسيون على السـاحل شحنة من العبيد المحررين، صاروا نواة المدينة التي سميت ليبرفيل، التي أصبحت محطة لتموين السفن.

ومنذ عام ١٨٨٠ أخذت فرنسا توسع نفوذها في جابون على طول السـاحل، وفـي الداخل في اتجاه الكمرون، وجنوباً في اتجاه مصب

الكونغو، وكانت أبرز شخصية ساعدت على تحقيق أهداف فرنسا في هـذه المـنطقة هـو دي بـرازا الذي أوفدته الشعبة الفرنسية لجمعية الدراسات الأفريقية لكشف المناطق الممتدة من جابون إلى بحيرة تشاد، بيـنما كـان الشعبة البلجيكية ـ كما رأينا ـ قد أوفدت ستانلي لكشف حوض الكونغو.

فـنجح دي بـرازا في عقد معاهدات مع الزعماء الوطنيين بسط بمقتضـاها حمايـة فرنسا على مناطقهم، وأسس قرب مصب الكونغو وعلى ضفته اليمنى محطة، هي التي صارت تسمى باسم برازافيل.

وقـد استطاع دي برازا أن يكسب بنشاطه الرأي العام الفرنسي، الـذي اعتبر هذا النشاط رداً لكرامة فرنسا التي أهدرت نتيجة انفراد إنجلترا باحتلال مصر عام ١٨٨٢.

وعقـب مؤتمـر برلين لم توافق فرنسا على اتجاه الدول لإنشاء دولـة الكونغو الحرة تحت سيادة ملك بلجيكا، إلا بعد الاعتراف بنفوذ فرنسـا فـي شمال الكونغو وعلى ضفته اليمني في المنطقة المعروفة باسـم الكونغـو الفرنسي، إلى جانب التعهد بأنه في حالة ما إذا رأت السـلطات البلجيكية التنازل عن سلطتها في الكونغو الحرة، فإن فرنسا ـ دون أية دولة أخرى ـ تكون صاحبة الحق في هذه المنطقة.

وقـد عقـدت فرنسا عدة اتفاقات مع الدول الاستعمارية الأخرى صاحبة المصالح في المنطقة، وذلك لتحديد مناطق نفوذها مثل المعاهدة مـع حكومـة الكونغو التي نصت على أن يكون نهر أوبانجي (فرع الكونغـو) حداً فاصلاً بين الكونغو الحرة والمنطقة الفرنسية، ومعاهدة مع ألمانيا، وكذلك مع إنجلترا، وهكذا استطاعت فرنسا أن تحصل على

موافقـة الـدول الأوربية على إمبراطوريتها الممتدة من الجزائر إلى ساحل الكونغو، ومن داكار إلى حدود سودان وادي النيل.

ولـم يكـتف الفرنسيون بذلك، بل حاولوا مد نفوذهم إلى أعالي النـيل، خصوصـاً بعد انسحاب مصر من السودان الذي أصبح يعتبر أرضاً بلا صاحب Rea Nulliua، مما شجع البلجيك أيضاً للامتداد من الكونغـو صوب أعالي النيل عند وادلاي، خصوصاً وأن فرنسا كانت لها أيضاً في ذلك الوقت ممتلكات في شرق أفريقيا (الصومال الفرنسي وجيبوتـي)، وأرادت ربـط ممتلكاتها في غرب أفريقيا بممتلكاتها في شـرق القـارة، ولذلك أوفدت قوة بقيادة مارشان وصلت إلى فاشودة، ولكن رأينا كيف أن كتشنر رفع العلم المصري، وأرغم الفرنسيين على الانسحاب، وكانت الظروف في أوربا ذاتها حافزاً للفرنسيين على عدم إغضاب إنجلترا لكسبها ضد ألمانيا.

وبعـد هـزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، انتزعت منها مسـتعمراتها وعهدت عصبة الأمم بإدارة هذه المستعمرات إلى بعض الـدول المنتصـرة تحـت إشراف العصبة، وهو ما عرف باسم نظام الانتداب، وعلى ذلك قسمت توجو إلى قسمين، الأكبر منها وضع تحت الانتداب الفرنسي، فضمته فرنسا إلى داهومي، بينما ضم القسم الآخر إلى ساحل الذهب الإنجليزي.

أمـا الكمـرون فقـد قسمت أيضاً إلى قسمين: قسم وضع تحت الانـتداب الفرنسـي، فضمته فرنسا إلى أفريقيا الاستوائية الفرنسية، والقسم الآخر ضمته إنجلترا إلى نيجيريا.

فرنسا في شرق أفريقيا:

يرتبط نشاط الفرنسيين على سواحل أفريقيا الشرقية بالطريق إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح، شأنه شأن نشاط كل من البرتغاليين والإنجليز في هذه المنطقة، ففي عام ١٦٦٤ تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية، ونجحت هذه الشركة وغيرها من الشركات الفرنسية في توطيد علاقات فرنسا بشرق أفريقيا والهند، حتى لقد كانت اللغة الفرنسية معروفة في بعض جهات شرق أفريقيا مثل زنجبار وكلوة عندما نزل بها الإنجليز.

ولم تكد فرنسا تفرغ من مشاكلها الداخلية المترتبة على ثورتها الكبرى وحروب نابليون، حتى عادت إلى الاهتمام بساحل أفريقيا الشرقي على البحر الأحمر والمحيط الهندي، إلا أن الإنجليز ــ الذين احتلوا عدن عام ١٨٣٩ ومسقط ــ كانوا لفرنسا بالمرصاد، ولو أن فرنسا نجحت في عقد معاهدة تجارية مع السلطان السيد سعيد سلطان زنجبار، إلا أن هذه المعاهدة لم تؤد إلى توطيد نفوذ فرنسا السياسي فيها بسبب وقوف مصالح إنجلترا وألمانيا في وجه مصالح فرنسا، وقد رأينا من قبل كيف اقتسمت إنجلترا وألمانيا أملاك سلطان زنجبار (أفريقيا الشرقية الألمانية، وأفريقيا الشرقية البريطانية).

ولكن نشاط الفرنسيين ظهر في منطقة أخرى، فقد كانت فرنسا قد اشترت في عام ١٨٦٢ ميناء صغيرا على خليج تاجورة هو ميناء أوبوك من أحد الزعماء المحليين، واحتلت فرنسا هذا الميناء احتلالاً عسكرياً عام ١٨٨٢، عندما أثارتها الأحداث في مصر، كما تنازل لها السلطان المحلي ــ تحت تأثير الضغط ــ عن بقية ممتلكاته المحيطة

بالميناء، وامتدت حدود المنطقة التي وضعت فرنسا يدها عليها في الداخل حتى قرب ميناء هرر، كما استولت فرنسا بنفس الطريقة (الضغط) على ميناء جيبوتي، وهذه المنطقة الفرنسية تقع بين إرتريا وأثيوبيا والصومال البريطاني، وترجع أهميتها إلى أنها قريبة من منافذ البحر الأحمر، كما يمكن استخدامها كمنفذ لتجارة الحبشة.

وفي عام ١٨٩٦ صدر مرسوم فرنسي بوضع هذه المناطق التي استولت عليها فرنسا في شرق أفريقيا تحت إدارة واحدة عرفت باسم الصومال الفرنسي، واتخذت جيبوتي قاعدة لها، وهي المنطقة التي حاولت فرنسا ربطها بمستعمراتها في غرب أفريقيا، وتتمثل هذه المحاولة في حادثة فاشودة.

اهتمت فرنسا بمدغشقر منذ القرن السابع عشر، وأسست هناك حصن دوفان Fort Dauphin، واستقر فيها بعض الفرنسيين ولكن الوطنيين أبادوهم، وفي القرن الثامن عشر استعاد الفرنسيون الحصن.

وفي القرن التاسع عشر دعا الاستعماريون الفرنسيون حكومتهم إلى وضع يدها على مدغشقر والساحل الشرقي لأفريقيا المواجه لها، بل وعلى الحبشة، وفي عام ١٨٨٣ أرسلت فرنسا أسطولاً هاجم الجزيرة واحتل ميناء ناماتاف، وفي عام ١٨٨٦ عقدت معاهدة بين فرنسا وبين حكومة مدغشقر الوطنية، اتفق فيها على أن تدفع حكومة الجزيرة للفرنسيين جزية سنوية. وأن تحسن معاملة الرعايا الفرنسيين (معاملة خاصة ممتازة).

وفي عام ١٨٩٠ اعترفت إنجلترا بحماية فرنسا على مدغشقر، مقابل اعتراف فرنسا بحماية إنجلترا على زنجبار، وفي عام ١٨٩٦ أصبحت مدغشقر مستعمرة فرنسية.

نظم الحكم في المستعمرات الفرنسية :

نجحــت فرنسا في تاريخها الاستعماري الطويل أن تفوز بنصيب الأسد من القارة الإفريقية، فلقد نجحت في فترة مبكرة من القرن التاسع عشــر وأعني عام ١٨٣٠ عندما احتلت الجزائر وبعدها توسعت حتى احتلــت تونــس عــام ١٨٨١ ومراكش عام ١٩١٢، وامتدت أنظار الفرنســيين إلى غرب القارة حيث بسطوا نفوذهم على ما أطلق عليه أفريقيا الفرنسية الغربية وشملت موريتانيا والسنغال والسودان الفرنسي (الآن مالي) والنيجر وداهومي (الآن بنين) وساحل العاج وغينيا وفولتا العليا.

ومــد الفرنســيون نفوذهم أيضاً إلى ما سمي بأفريقيا الاستوائية الفرنسية وتضم تشاد ووسط أفريقيا والكونغو والجابون، أما في شرق القــارة، فــإن الفرنسيين سيطروا فقط على منطقة الصومال الفرنسي بالإضــافة إلــى جزيرة مدغشقر التي استقلت عام ١٩٠٨ تحت اسم مالاجاشي.

ولقــد اعتمد نظام الحكم الفرنسي بصفة عامة على نظام الإدارة المباشــرة أي نظام الحكم المباشر الذي يعد سمة النظم الحكومية التي أقامــتها فرنسا في القارة الأفريقية وهي بذلك لا ترى ضرورة لوجود زعامات أو تنظيمات قبلية أو محلية تقوم بين إدارتها وبين الأفريقيين في حياتهم اليومية، فلقد حطم الفرنسيون هذه الزعامات وانتزعوا منها كل سلطة أو نفوذ بل وحاربوا ولاء الناس لها.

ولقــد اختلفت العلاقات بين فرنسا والأراضي الواقعة فيما وراء البحار من عهد إلى عهد خلال المائة عام الماضية ولكنها تميزت دائماً

بــإدارة مركــزية صارمة مقرها باريس وقد اخترعت فرنسا تمويلها لاســتعمارها ، كلمة زمالة تطلقها على علاقاتها مع مستعمراتها وذلك مــنذ منتصــف هذا القرن ، وكانت فرنسا قد جعلت رسم السياسة من سلطة الفرنسيين وحدهم حيث شغلوا جميع الوظائف وتولوا تنفيذ أوامر الحكومــة وعينوا أنفسهم قضاة وكتبة ورجال تعليم وصحة وزراعة، وبهذا الشكل تم الإبقاء على الجيش باعتباره أساس الوجود الفرنسي في أفريقــيا، وكانــت الــثورة الفرنســية إحدى القوى التي ساعدت على استمرار سياسة الحكم المباشر وما تفرع عنه من سياسة الاستيعاب.

وتعني سياسة الاستيعاب فرض الثقافة الفرنسية ونظم المؤسسات السياسية والاجتماعية على الإفريقيين حتى يستوعبوها فيصبح كيانهم النفسي والثقافي متفرنساً تماماً كالفرنسيين الأوربيين أنفسهم وتتم هذه العملــية عن طريق تثقيف وتربية وتعليم طويلة الأمد، وبعبارة أخرى محاولــة قطــع كــل صلة للأفريقي بتاريخ قومه وحضارته الإفريقية بمختلف مظاهرها ومقوماتها ثم يبدأ تدريجياً في تسرب الثقافة الفرنسية بكــل تقاليدها ومظاهرها الحضارية ثم ما يتبع ذلك تلقائياً من ارتباطه اجتماعياً وسياسياً وتاريخياً بالأم الكبرى فرنسا.

وبعــد الــثورة الفرنسية كان الاعتقاد الفرنسي السائد بأن أعظم مــنحة يقدمها الفرنسيون للمستعمرات الإفريقية هي تلك الثقافة واللغة الخاصة بهم وقد حاول الفرنسيون تطبيق سياسة الاستيعاب هذه أو ما يطلــق عليه الاستعمار الثقافي في المستعمرات التي خضعت للسيطرة الفرنسية بالرغم من وجود أوضاع سياسية وحضارية متفاوتة بين هذه المستعمرات والبلدان.

واعتقد الفرنسيون في سياسة إنسانية مؤداها أنه يجب على أهالي المستعمرات معرفة مآثر ومحاسن النظم الفرنسية وأن كل تقدم ورقي يصيبهم لن يأتي أو يتحقق إلا عن طريق الثقافة واللغة الفرنسية والمستويات الروحية التي أتت بها هذه الثورة، ولكن هذه السياسة كان الإيمان بها في باريس والتطبيق كان في أفريقيا بالاستيلاء على مستعمرات جديدة يقوم بها القواد العسكريون والجيش الفرنسي.

وظاهر هذه الفلسفة المساواة وعدم التفرقة القائمة على لون أو عنصر ولكن ظهرت تفرقة قائمة على أساس الاستيعاب أو عدمه حيث ميز الفرنسيون بين الإفريقيين الذين خضعوا لقانون الأحوال الشخصية الفرنسي في الزواج والطلاق والميراث وبين الذين لم يخضعوا لهذه القوانين حيث ترتب على ذلك وضع قانون (الأنديجينا)(Indigenaant) وهو مجموعة من الأوامر الإدارية والعرفية التي يطبقها الضباط والحكام العسكريون والمدنيون وتنطبق على الرعايا الأفريقيين الذين لم يرتفعوا إلى مستوى الاستيعاب والاندماج في البيئة الاجتماعية الفرنسية.

ويرى الفرنسيون أن هذه المحاولة هي عمل إيجابي لإدخال الحضارة الفرنسية إلى المستعمرات ورفع أهالي هذه المستعمرات إلى مرتبة الفرنسيين مع تجاهل الفروق الجنسية والعقلية والمادية والثقافية أي أنها محاولة من جانب فرنسا لرفع الوطنيين إلى مرتبة من الحضارة الأوربية داخل الإطار الإفريقي. وبعبارة أخرى الاستعانة بالثقافة الإفريقية الأولى ومحاولة تطويرها إلى أسلوب عصري يلائم العقلية الإفريقية.

وكـــان هدف الفرنسيين هو فرنسة جماعية لكل الإفريقيين وكانت أية مقاومة لهذه الفرنسة الجماعية جريمة بشعة وعدم اعتراف بالفضل والرقـــي الفرنســـي لكن هذه السياسة لم تحقق الغرض المطلوب وبدأ الكتاب الفرنسيون ابتداءً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر يوجهون الـــنقد لهـــذه السياسة وبدأت تظهر أفكار جديدة ضد سياسة الاستيعاب وتبنـــي يولـــيوس هارماند (Jules Harmand) نظرية السياسة القائمة على المشاركة.

وتهـــدف هذه النظرية الجديدة إلى تكوين مجموعة من الإفريقيين قـــادرة على استيعاب الثقافة الفرنسية، وأطلق على هذه المجموعة اسم النخـــبة والهدف من هذه السياسة أن يتم التعاون بين الإدارة الحكومية الفرنســـية وبين هيئات وأفراد محليين في سبيل خلق زعامات أفريقية تقود الشعوب والمجتمعات إلى طريق الحضارة والمدنية أي أن هدف هـــذه السياسة يكون فرنسة هذه الزعامات والقيادات بدلاً من الفرنسة الإجماعية للشعب.

وكـــان هـــدف الفرنسيين تكوين نخبة تستوعب التراث الفرنسي وتتشـــكل أفكارها وثقافتها بالقيم الفرنسية ولا تنفصل هذه النخبة عن المجـــتمع المحلي وتبقى على اتصال وثيق به وتكون بمثابة حبل بين هذه الثقافة الفرنسية والشعوب الإفريقية.

وهكـــذا نـــرى أن الاســـتيعاب الاندماجي كان يهدف إلى فرنسة إجماعية للإفريقيين لكي يذوبوا في كيان فرنسا الأوربية ويعيشوا كما يعيش الفرنسيون في القارة الأوربية، أما المشاركة فهي سياسة فرنسية تهـــدف إلى خلق زعامات أو قيادات تستوعب الثقافة الفرنسية ولكنها

تعيش في ظل الإطار الأفريقي وتقود جموع الشعب على أساس عاداته وتقاليده الإفريقية لكن سياسة المشاركة أو فرنسة النخبة لم تنجح في خلق زعامات أو قيادات إفريقية تتفق وأهواء الفرنسيين لأنهم لم يهدفوا إلى تطبيق نظام الحكم غير المباشر الذي يطبقه الإنجليز في غرب أفريقيا ذلك لأن السلطة التي رغبت فرنسا أن تمنحها لهذه الزعامات الإفريقية إنما هي سلطة مظهرية فقط لأن السلطة الحقيقية كانت في أيدي الفرنسيين.

أما عن النظام الإداري للمستعمرات الفرنسية فنجد أن كل مستعمرة فرنسية تخضع لحاكم فرنسي يتلقى أوامره مباشرة من وزير المستعمرات في باريس ولكن مع مرور الزمن ظهرت مساوئ هذا النظام المركزي البيروقراطي مما جعل الفرنسيين يفكرون في تجميع المستعمرات في وحدات فيدرالية حتى تسهل عملية الحكم والإدارة وعلى هذا ظهرت أفريقيا الفرنسية العربية التي ضمت موريتانيا والسنغال، ومالي، والنيجر، وداهومي، وساحل العاج، وغينيا، وفولتا العليا. وظهرت أيضاً أفريقيا الاستوائية الفرنسية التي تضم مستعمرات تشاد وأوبانجي شاري وإفريقيا الوسطى والجابون وجمهورية الكونغو الديمقراطية.

ويتكون الاتحاد الفيدرالي في كل منطقة من عدة وحدات تخضع كل منها لحاكم يخضع بدوره للحاكم العام للاتحاد، ويمثل هذا الحاكم العام الجمهورية الفرنسية وهو مسؤول أمام وزير المستعمرات الفرنسي وقد ساد نظام الحكم المباشر في كل وحدات الاتحاد عدا السنغال التي كان لها تمثيل في البرلمان الفرنسي، كما ظهر فيها نظام

البلديات وقد أصبح السنغاليون مواطنين فرنسيين في عام ١٩١٦ وتكون فيها مجلس وسيط بين مستوى البلديات وبين مستوى البرلمانات كما ضم كل اتحاد مجلس وحكومة يعين أعضاءه بحكم وظائفهم أو بحكم عضويتهم في مجالس الوحدات المكونة للاتحاد.

وظل التشريع للمستعمرات في يد رئيس الجمهورية الذي لا يستشير الجمعية الوطنية أو مجلس الشيوخ إنما يتم التشريع للمستعمرات بناء على إعداد وزير المستعمرات وإمضاء رئيس الجمهورية وتبلغ هذه التشريعات للحاكم العام بوصفه ممثل الجمهورية وليقوم الحاك العام بدوره بإبلاغ هذه القرارات والتشريعات لمساعديه وعلى الحاكم إصدار القرارات والأوامر التنفيذية.

ويعتبر وزير المستعمرات المرجع الرئيسي في إدارة المستعمرات وهو الذي يعين الحاكم وعلى هذا فإن الضغط السياسي أو الاقتصادي يوجه إليه أو إلى حزبه ولم تحاول الحكومات الفرنسية بين الحربين وضع سياسة طويلة الأمد تجاه المستعمرات ولم تحاول حكومة فرنسية تمثيل الإفريقيين في مجالس تشريعية أو تنفيذية ولكن بعد قيام فرنسا وتحالف حكومة فيش مع ألمانيا النازية وبرز فيلكس أبويبي ذلك الأفريقي الذي وصل إلى منصب الحاكم العام في إفريقيا الاستوائية الفرنسية وأيد ديجول والحلفاء وأصدر نشرة في عام ١٩٤١ تدعو إلى رفض فكرة الاستيعاب الاندماجي واحترام المؤسسات القبلية والنظم والعادات الوطنية.

وتمشياً مع هذه التطورات رأت حكومة فرنسا الحرة أن تقابل هذا الموقـف الناشـئ في أفريقيا بشيء من الحكمة فبدأت تدعو إلى عقد مؤتمر برازافيل في فبراير عام ١٩٤٤.

مؤتمر برازفيل ١٩٤٤:

انعقـد هذا المؤتمر في مدينة برازافيل بالكونغو ولم يحضره أي أفريقـي وحضره حكام المستعمرات الفرنسية ورجال الإدارة وبعض أعضـاء الـبرلمان وتوضح قرارات هذا المؤتمر الخطوط العريضة لسياسـة فرنسـا الاسـتعمارية بعد الحرب العالمية الثانية ولم يصدر المؤتمـر توصيات محددة ومفصلة عن كيفية تمتع الإفريقيين بتكوين الجمعـيات التشـريعية لكن طالب المؤتمر بنظام اللامركزية وإنشاء جمعـيات تمثيلـية مـن المسـتعمرات تضـم في عضويتها الأفارقة والفرنسيين وأصر المؤتمر على إلغاء قانون العمل الإجباري وأعترف بحق الأفارقة في حياة أفضل وبالفعل كان هذا المؤتمر بداية سلسلة من الجهود توجت بمنع السخرة في المستعمرات الفرنسية.

واستبعد المؤتمر كل اتجاه نحو تحرير المستعمرات من الارتباط بفرنسـا حـتى فـي المسـتقبل القريب كما أشار إلى ضرورة تمثيل المسـتعمرات علـى نطـاق واسع في الجمعية الوطنية وفي المجالس المنتخبة تقديراً لتلك التضحيات التي قدمتها المستعمرات خلال الحرب وظهرت فكرة ارتباط فرنسا مع مستعمراتها في اتحاد فيدرالي الهدف منه تدعيم وحدة فرنسا الكبرى.

واتخذ المؤتمر قرارات هامة تتعلق بإصلاح أحوال التعليم وعلاج المشـكلات الاجتماعـية والاقتصـادية واحترام حرية العمل وتطوير

القوانيــن لمــنع الظلــم الواقع على الأفريقيين بالإضافة إلى النهوض بالصناعات الإفريقية.

ولقد استعانت الجمعية التأسيسية التي وضعت دستور عام ١٩٤٦ بقرارات هذا المؤتمر حيث نص الدستور على تكوين الاتحاد الفرنسي من الجمهورية الفرنسية (فرنسا الأوربية ومديريات الجزائر ومديريات مــا وراء البحار) وأقاليم ما وراء البحار (مستعمرات أفريقيا) والدول الشريكة (مراكش وتونس ودول الهند الصينية والأقاليم الشريكة مناطق الوصايا الفرنسية في الكاميرون وتوجو).

ونــص الدستور على اعتبار جميع الأفراد مواطنين فرنسيين كما نص على تمثيل الأقاليم الإفريقية في الجمعية الوطنية الفرنسية.

لكن انتشار القومية الإفريقية وهزيمة فرنسا في الهند الصينية عام ١٩٥٤ واضطرارها إلى التسليم باستقلال المغرب وتونس بعد ذلك ثم انــدلاع بــركان الثورة الجزائرية، كان السبب في انهيار هذا الشكل الجديــد مــن الاســتعمار الفرنسي وكانت النتيجة تقديم مشروع عام ١٩٥٦ الــذي نــص على تمتع المستعمرات بمجالس تشريعية وبحكم ذاتــي محدود تشرف عليه مجالس وزارية يرأسها رئيس الجمهورية الفرنسية وفشل هذا النظام أيضاً.

دستور ديجول:

وعندما سقطت الجمهورية الفرنسية الرابعة في مايو عام ١٩٥٨ كانت حركة التحرر الإفريقي قد بلغت أشدها ولم يعد مشروع الاتحاد الفرنســي كافــياً ولما جاءت الجمهورية الخامسة حلت نظام الجماعة الفرنســية محل الاتحاد الفرنسي، وفور انتخاب ديجول رئيساً للوزراء

في أول يونية ١٩٥٨ أعلن وضع دستور جديد في أغسطس من نفس العام وفيه تقرر:

١- أن تكون فرنسا مع الجمهورية الإفريقية التي تقبل هذا الدستور رابطة الجماعة الفرنسية وهو اتحاد فيدرالي بين جماعات مستقلة.

٢- تتكون حكومة الجماعة الفرنسية من رئيس الجمهورية الفرنسية ومندوب عن كل من جمهورية من جمهوريات الجماعة وسكرتير عام ومستشار فني وتعتبر حكومة الجماعة مسئولة عن السياسة الخارجية للجماعة وعن شئون الدفاع وإصدار العملة والشئون الاقتصادية العامة والتعليم العالي.

٣- للجماعة مجلس تنفيذي من رؤساء حكومات الجماعة لدراسة المسائل الكبرى التي سبق أن بحثها مجلس الوزراء.

٤- نص الدستور على أن يكون للجماعة مجلس شيوخ من مندوبين عن برلمانات الدول الأعضاء.

٥- تقدم فرنسا المعونة الفنية والإدارية لأعضاء الجماعة.

لكن هذه الجماعة الفرنسية التي ابتكرتها الجمهورية الفرنسية الخمسة اصطلاح غير محدد وتعريف ليس بدقيق حيث تتألف الجماعة الفرنسية الخامسة من فرنسا واثنتي عشر دولة، وقد أجريت فيها الانتخابات في ديسمبر ١٩٥٨ واختارت كل دولة الاسم الذي ارتأته مناسباً لها ثم قامت بوضع دستور خاص اشترك فيه الفرنسيون وبعد ذلك أجريت انتخابات عامة لتكوين المجالس التشريعية.

وواضـــح مـــن تشـــكيل المجالس التشريعية في نظام الحكم في الجماعة أن فرنسا لم تترك جانباً إلا وصبغته بالصبغة الفرنسية وألغت الشخصـــية الإفريقية تماماً حيث ركز دستور الجماعة جميع السلطات في يد رئيس الجمهورية الفرنسية وهو رئيس الجماعة والاختصاصات بهـــذا الشـــكل ووضعها في أيدي رجل واحد إنما توضح الدكتاتورية الشاملة وأن قرارات رئيس الجماعة لا مرد لها.

وقام ديجول في الفترة من (٢١ــ٢٦ أغسطس ١٩٥٨) بجولة في المستعمرات الإفريقية لشرح أهداف دستوره، وأعلن أن الذين يرغبون فـــي الاســـتفادة مـــن مـــزايا نظام الجماعة الفرنسية عليهم التصويت بالإيجـــاب، أما الذين يرغبون الحرية فعليهم التصويت بالنفي، وعندما طرح الدستور وافقت عليه جميع المستعمرات أي البقاء في المجموعة الفرنســـية عـــدا مستعمرة غينيا بسبب نفوذ سيكوتوري القوي فأعلن استقلالها في عام ١٩٥٨.

لكن نظام الجماعة الفرنسية وما شابه من عيوب ديكتاتورية كان ولابـــد أن يؤدي إلى انفجار جديد يطيح بالجماعة الفرنسية في شكلها الراهن حيث لم يستمر هذا النظام سوى عامين، وفي عام ١٩٦٠ بدأت موجـــة الاســـتقلال الإفريقية حيث استقلت معظم الدول التابعة لفرنسا فاستقلت كل من داهومي، وساحل العاجل، والنيجر، والسنغال، ومالي، وموريتانـــيا، وتوجـــو، وفولتا العليا، وملاجاش، والكونغو برازافيل، والجابون، وجمهورية أفريقيا الوسطى، وتشاد.

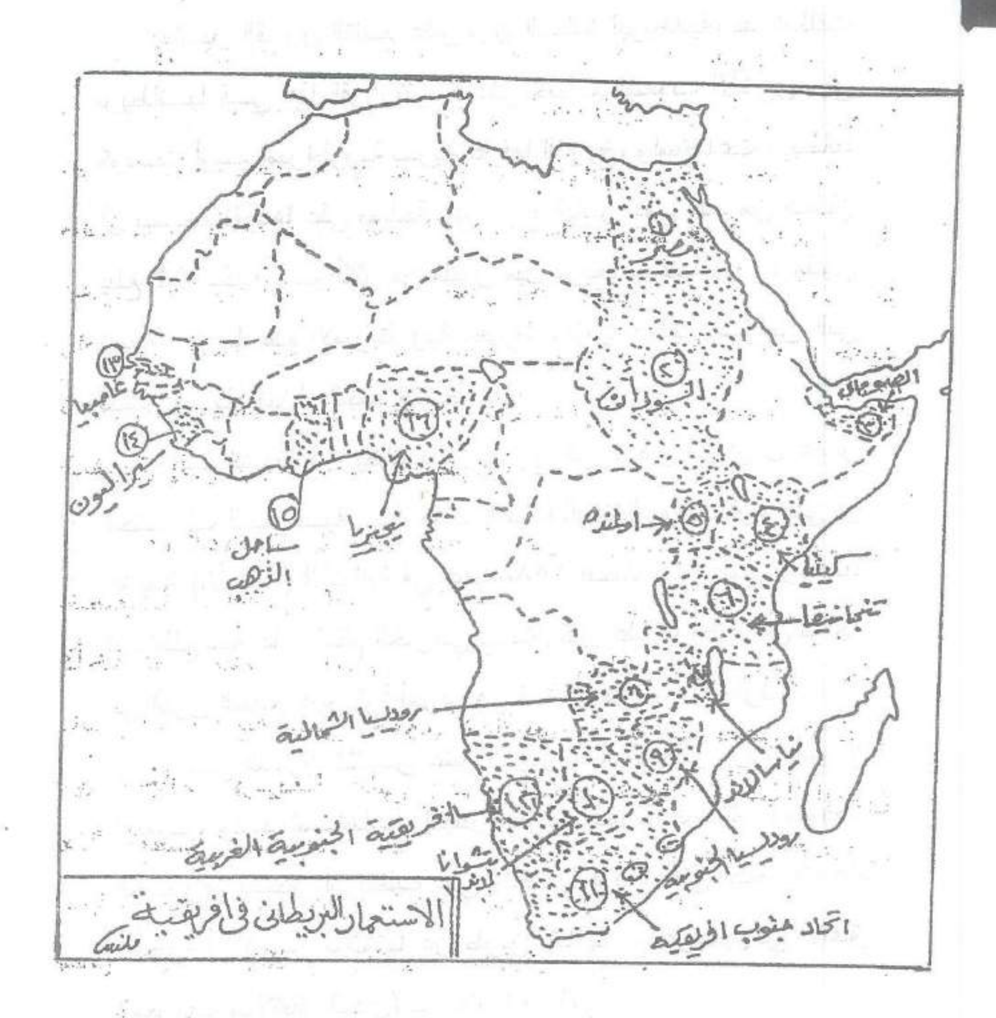
وكانـــت دول شمال أفريقيا التابعة لفرنسا قد استقلت على فترات متقطعة حيث استقلت تونس ومراكش في عام ١٩٥٦، أما الجزائر فقد

استقلت عام ١٩٦٢، وأما آخر هذه المستعمرات فكانت جيبوتي التي استقلت عام ١٩٧٧ لينتهي بذلك آخر موقع استعماري لفرنسا في القارة الإفريقية.

الفصل الثامن

الإنجليز في أفريقيا

- في غرب أفريقيا
- في جنوب أفريقيا
- في وسط أفريقيا (روديسيا)
- في شمال أفريقيا
- في شرق أفريقيا


الاستعمار البريطاني في افريقية
مصر
السودان
الصومال
اوغندة
كينيا
تنجانيقا
روديسيا الشمالية
نياسالاند
روديسيا الجنوبية
بتشوانا لاند
افريقية الجنوبية الغربية
اتحاد جنوب افريقية
نيجيريا
ساحل الذهب
سيراليون
غامبيا

يعتـــبر القـــرن التاسع عشر قرن السيادة البريطانية، فقد انطلقت بريطانـــيا فـــي هذا القرن تتوسع على حساب الشعوب الأخرى حتى كونـــت أوسع إمبراطورية بحرية عرفها التاريخ، واستطاعت بريطانيا أن تبســط نفوذها على مساحة تقدر بربع اليابس على عدد من السكان يبلغ ثلث سكانه (نحو أكثر من مليون ميل مربع، يسكنها ١٠٠٠ مليون نسمة) وتربط هذه الإمبراطورية خطوط ملاحية بمثابة الشرايين التي تنتشر في كل أجزاء الجسم وتربط بينها.

ولــم تســتطع بريطانــيا أن تخرج إلى البحار في أوائل عصر الكشــوف الجغرافــية حيث كانت السيادة للبرتغال والأسبان، على أن هزيمة (الأرمادا) الأسبانية في عام ١٥٨٨ فتحت الباب أمام بريطانيا لتــتطلع منه على العالم الخارجي ــ لكن كان على بريطانيا أن تواجه في القرن السابع عشر قوة أخرى هي قوة كل من هولندا وفرنسا.

وفـــي القـــرن الثامـــن عشر لم يتبق أمام الإنجليز من منافس إلا فرنســـا، وقـــد اســـتطاعت إنجلترا بقوتها البحرية الضخمة وبموقعها الجـــزري الممتاز أن تتغلب على منافستها فرنسا حتى اضطرت هذه الأخيرة أن تضمن سلامتها عن طريق اتفاقها مع غريمتها في الاتفاق المعروف (بالاتفاق الودي) في عام ١٩٠٤.

وأتـــاح هذا لإنجلترا الفرصة لتكون إمبراطوريتها الضخمة التي وصفت في وقت من الأوقات بأنها لا تغيب عنها الشمس.

وقد استطاعت أن تفرض نفوذها في المناطق التالية:

إنجلترا في غرب أفريقيا

أ ـ جمبيا وسيراليون:

امتد نفوذ إنجلترا في غرب أفريقيا إلى جمبيا وسيراليون، وساحل الذهــب، ونيجيريا، وترجع علاقة إنجلترا بسواحل القارة الغربية إلى أوائل القرن السادس عشر حين بدأ بعض البحارة البريطانيين يصلون إلــى غينيا وساحل الذهب وخليج بنين، ومن الذين ذاع صيتهم في هذا المجال الرحالة البريطاني جون هوكنز (J. Kowekens) الذي قام بعدة رحلات لغرب أفريقيا في السنوات بين ١٥٦٢ ــ ١٥٦٧.

وقــبل خــتام القــرن الســادس عشر كانت هناك شركة تجارية بريطانــية تزاول نشاطها في غرب أفريقيا، وكانت لها مراكز تجارية ساحلية في المنطقة بين جمبيا وسيراليون.

وفــي أثــناء الحــروب النابليونية استولى الإنجليز على مراكز الفرنسيين وحصونهم في غرب القارة ــ لكنهم أعادوا لفرنسا بعد ذلك فــي عام ١٨١٧ مما أدى إلى اهتمام الإنجليز بمراكزهم التجارية في غينيا بالذات حيث أقاموا حصناً قرب مصب النهر ثم بسطوا سيطرتهم على جمبيا وعينوا حاكماً لحكمها.

ويــرجع نشاط الإنجليز في منطقة **سيراليون** إلى القرن السادس عشر حين زارها جون هوكنز فأصبحت السفن الإنجليزية ترسو على الساحل في هذه المنطقة في انتظار وصول الرقيق الذي يجبلهم الجلابة أو مــتعهدو جمــع الرقيق من داخل القارة ليرسلوا لمناطق العمل في العــالم الجديد أو للأسواق للاتجار بهم، وفي القرن السابع عشر أسس

الإنجليز قلعة في هذه المنطقة الساحلية لحماية سفنهم وتزويدها بحاجاتها، وفي عام ١٧٨٧ تأسست شركة بريطانية سميت (شركة سيراليون) ومنحتها الحكومة البريطانية امتيازاً لتأسيس مستعمرة في سيراليون يسكنها على الأخص الزنوج الذين حاربوا في صف إنجلترا إبان حرب الاستقلال الأمريكية حتى لا يُنكل بهم الأمريكان بعد انتهاء هذه الحرب، ولما أصدرت إنجلترا في عام ١٨٣٣ قراراً يحرم الرق في كل أنحاء أملاكها ـ أرسل عدد من الرقيق المحررين إلى سيراليون، هذا بالإضافة إلى من وفدوا للمنطقة من الأوربيين الآخرين بأمل الهجرة والاستقرار في هذه المنطقة الأفريقية. وهكذا أصبح سكان المستعمرة خليطاً غريباً من الزنوج المحررين، بالإضافة إلى الأفريقيين الذين وفدوا من المناطق المجاورة والأوربيين المهاجرين إليها.

وفي عام ١٨٢٠ ضمت إنجلترا مناطق نفوذها في (جمبيا وسيراليون).

ب ـ وفيما يتعلق بساحل الذهب:

فقد كان البرتغاليون أيضاً من أوائل الأوربيين الذين وصلوا لهذه المنطقة وأطلقوا عليها اسم (ساحل الذهب) باعتبار أن الذهب كان من أهم المواد التي تتاجر فيها القبائل التي تسكن هذه المنطقة.

وبعد البرتغاليين جاء الهولنديون والفرنسيون ليشاركوا في هذا النشاط التجاري، واستطاع البريطانيون قبل القرن الثامن عشر أن يسهموا بنصيب وافر في تجارة هذه المنطقة من أفريقيا، ويتحكموا في هذه التجارية عن طريق حصونهم في ساحل الذهب.

وكانــت إنجلترا ــ كما رأينا ــ تمارس نشاطها هنا عن طريق (الشركات التجارية)، وكانت شركة أفريقيا الملكية (Royal African) أكبر هذه الشركات.

علــى أن الإنجليز لم يلبثوا أن اصطدموا بمملكة الأشانتي القوية التي كانت تتخذ من مدينة خوماسي (kumasi) عاصمة لها ــ خاصة أن إنجلــترا لجأت لمساندة قبائل الفانتي في حربها ضد قبائل الأشانتي عملاً بمبدأ فرق تسد.

ولمــا كــثر تعرض البريطانيين لاعتداءات قبائل الأشانتي لجأت الحكومة البريطانية في عام ١٨٥٠ إلى تعيين حاكم عام يقيم في ساحل الذهب نفسها.

ولكــن لــم تلبــث أن نشــبت الحرب من جديد من البريطانيين والأشــانتي اســتمرت لفترات متقطعة طوال خمس سنوات، وفي سنة ١٨٩٠ أرســلت الحكومة الإنجليزية إلى ملك الأشانتي تنصحه بقبول الحمايــة البريطانية على مملكته وقبول ممثل بريطاني في (خوماسي) تكــون له بعــض الحقوق والامتيازات التي يتفق عليها، ولما ترددت حكومة الأشانتي في قبول الحماية البريطانية عليها أرسلت إنجلترا في عام ١٨٩٩ حملة دخلت خوماسي واعتقلت ملك الأشانتي وعدداً كبيراً من زعمائهم وأرسلتهم إلى جزيرة سيشل في المحيط الهندي، وأصبح الطــريق ممهــداً للإنجلــيز لتوطيد سلطانهم في هذه البلاد ففرضوا حمايتهم عليها في عام ١٩٠٢.

جـ - وفيما يتعلق بنجيريا :

فإن اسمها يرتبط باسم نهر النيجر وقد أطلق المستعمرون الأوائل مــن الــبرتغال وغــيرهم على هذا النهر مجموعة الأنهار والنهيرات

المتصــلة بــه والأنهار المجاورة اسم (أنهار الزيت) لأن هذه المنطقة اشتهرت بإنتاج أحسن أنواع زيت النخيل وأضخمها كمية.

كمــا يرتبط اسم نيجيريا بأرض الزنوج وهي تسمية أطلقها أيضاً على هذه المنطقة الأوربيون الأوائل.

ولم تكن تسكن هذه المنطقة مجرد قبائل بل ضمت عدداً كبيراً من الممــالك كان لها نظمها الحكومية وتاريخها المعروف من زمن بعيد، فقــد ضــمت ممــالك كانم، برنو، وإمبراطورية اليوربا (Yorupa)، وممــالك بنين (Benin) بالإضافة إلي قبائل الهوسا (Hausa) القوية المنتشرة في شمال نيجيريا خاصة في مقاطعات سوكوتو وكانو وقبائل (الإيمبو) في الشرق ــ وكان الإسلام قد إنتشر منذ القرن الحادي عشر بيــن الممالك والقبائل، فقامت فيها ممالك متحضرة لها نظمها الإدارية والاقتصادية المستقرة وقد زارها عدد من الرحالة العرب مثل الحسن بــن الــوزان (ليو الأفريقي) وإبن بطوطة، وعبد الرحمن بن عبد الله السعدي، وكتبوا عن هذه الجهات.

وكانــت الــبرتغال قد وصلت منذ القرن الخامس عشر إلى خليج غينــيا وتبعــتها سفن الدول الأوربية الأخرى التي أخذت تفد إلى هذا الساحل سعياً وراء الحصول على، العاج، وزيت النخيل والرقيق الذي ظل لمدة ثلاثة قرون السلعة الهامة التي تصدر لأمريكا بالذات.

وبدأت الرحلات الأولى للسفن الإنجليزية إلى خليج غينيا في عام ١٥٥٣ وحتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، ولم تكن للبريطانيين ســلطة رســمية تحمي مصالحهم التجارية وغيرها في سواحل خليج غينــيا ــ لكــن استطاعت إنجلترا أن تتفق مع أسبانيا في عام ١٨٢٧

على السماح لمندوب بريطاني ليتخذ من جزيرة فرناندوبو (Fernando Po) الأسـبانية المواجهـة في خليج غينيا مقراً له ليستطيع أن يرعى المصـالح البريطانية في المنطقة المواجهة لهذه الجزيرة بالإضافة إلى مراقبة تنفيذ قرار تحريم تجارة الرقيق.

ولـم تبسـط إنجلـترا نفوذها على نيجيريا دفعة واحدة فبسطت سـلطانها علـى منطقة (لاجوس) الساحلية في عام ١٨٦١، ثم أخذت الشـركات التجارية الإنجليزية تضاعف نشاطها في المنطقة المحيطة بدلـتا النـيجر ومجراه الأدنى خاصة بعد أن أصبحت هذه الشركات تحـتكر التجارة في هذه الجهات في زيت النخيل بالذات، بعد انسحبت الشركات الفرنسية والأوربية الأخرى من هذا الميدان.

واسـتطاعت (الشـركات البريطانية) أن تمد نفوذها على طول حـوض النيجر وفرعه (بنوي) وحتى (سلطنات الهوسا الإسلامية) في الداخل وشمالاً حتى سلطنة (سوكوتو).

وانـتهى الأمر بأن حلت الحكومة البريطانية محل هذه الشركات فبسـطت حمايتها على الأقاليم الساحلية والوسطى من نيجيريا وسميت باسـم (محمية نيجيريا الجنوبية) ثم على الأقاليم الشمالية من نيجيريا باسم (محمية نيجيريا الشمالية) وانضمت هذه الأقاليم الثلاثة (لاجوس والمحميتين) في عام ١٩١٤ مكونة محمية نيجيريا.

وعيـن فـردريد لوجارد (F. Lugard) لخبرته السابقة في هذه الجهـات مـندوباً سامياً بريطانياً لنجيريا كلها بالصورة التي تخيلتها إنجلـترا والتي حددت بالاتفاق بينها وبين القوى الاستعمارية الأوربية الأخرى التي كان لها نشاط في المنطقة.

وواجهــت إنجلترا عدة ثورات بين قبائل الفولة لكنها استطاعت إخضــاعها وبعد أن استقرت الأمور لبريطانيا في نيجيريا اتجهت إلى اتخاذ الوسائل الكفيلة باستغلالها على أحسن وجه.

وهكــذا استطاعت إنجلترا في فترة ١٤ عاماً منذ أن حلت سلطة الــتاج البريطاني في عام ١٨٠٠ محل شركة النيجر الملكية حتى عام ١٩١٣ـــ أن تبســط ســلطانها كــاملاً على هذه المساحة الشاسعة من أفريقيا.

جـ ـ جنوب أفريقيا:

وقد تم تناول الاستعمار الإنجليزي لجنوب أفريقيا ـــ أثناء الحديث عــن الاســتعمار الهولــندي فــي الفصل الخامس ـــ أما عن مصير المســتعمرات الأخــرى التي استولت عليها بريطانيا أثناء تقدمها من الجنوب إلى الشمال فهو كالآتي:

أصبحت بتسوانا محمية بريطانية، واشتدت الحركة الوطنية فيها، ممــا اضطر إنجلترا إلى الاعتراف باستقلالها في سبتمبر عام ١٩٦٦ تحت اسم "بتسوانا".

كمــا صارت سوازيلاند محمية بريطانية بعد أن هزم البوير عام ١٩٠٢، كما اتجهت أنظار الإنجليز إلى أرض الباسوتو (باسوتولاند)، وقــد فرضــت إنجلترا الحماية عليها عام ١٨٦٨، وألحقت بعد ثلاث سنوات بمستعمرة الرأس، ولكن إزاء ثورة الباسوتو اضطرت الحكومة البريطانــية إلى فصلها عن مستعمرة الرأس عام ١٨٨٣، لكي تصبح محمــية بريطانــية قائمــة بذاتهــا. وفي أكتوبر عام ١٩٦٦ حصلت باسوتولاند على استقلالها الكامل باسم ليسوتو.

وسط أفريقيا (روديسيا) :

رأينا كيف تم لرودس قبل عام ١٨٩٣ القضاء على مملكة الميتابلي في شمال شرق بتسوانالاند، وبذلك بسطت شركة جنوب أفريقيا البريطانية سلطتها على هذه المنطقة حتى بحيرة نياسا، والتي كان يطلق عليها اسم زامبيزيا، ثم أطلق عليها منذ عام ١٨٩٥ اسم روديسيا تكريماً لسيسل رودس، إلا أن الأهالي لم يستكينوا، خاصة وقد نزلت بمواشيهم أفدح الخسائر بسبب الحرب والوباء. وفي عام ١٨٩٦ بدأت الثورة، واشترك رودس بنفسه ــ وقد ارتدى الزي العسكري مع قوات حكومة الرأس ــ في إخماد مقاومة الأهالي، وبناء على تعليمات رودس استخدمت الشركة وقواها منتهى القسوة مع من وقع في أيديها من الأفريقيين، ولكن الثوار اعتصموا بالجبال، وبدءوا حرب عصابات أرهقت الإنجليز وأقلقت رودس، الذي فكر في التفاهم مع القبائل وعقد اتفاق معها، إلى أن تمكن الإنجليز من تدعيم صفوفهم ثم القضاء على الثورة في عام ١٨٩٧.

وكانت رحلة لفنجستون الثانية قد لفتت الأنظار إلى أهمية الجهات الواقعة غرب بحيرة نياسا، وكانت البرتغال تدرك أهمية هذه المناطق باعتبارها حلقة اتصال بين مستعمراتها: موزمبيق في شرق أفريقيا، وأنجولا في غرب أفريقيا، ولكن الأطماع البريطانية وقفت في وجه أطماع البرتغاليين، وأسست إنجلترا في عام ١٨٨٣ قنصلية لها في بحيرة نياسا، ومن العوامل التي شجعت الاستعماريين الإنجليز على التمسك بهذه المناطق، ما كانت تحويه من ثروة معدنية، علاوة على صلاحية أرضها لزراعة كثير من الغلات، بالإضافة إلى موقع

نياســالاند الجغرافــي، الــذي جعل رودس يعتبرها قناة السويس إلى الشمال، لأنها مفتاح يفتح الطريق أمام الإنجليز صوب الشمال.

وتأســست شــركة بريطانــية باســم شركة البحيرات الأفريقية لاستغلال هذه المنطقة، التي فتحت أيضاً أمام البعثات التنصيرية،و أخذ رودس يحث الحكومة البريطانية لإعلان حمايتها على نياسالاند، وفي عام ١٨٩١ نجحت هذه المساعي، وأعلنت بريطانيا حمايتها على هذه الأقالــيم التــي عرفت في ذلك الوقت باسم "وسط أفريقيا البريطانية"، وتغير هذا الاسم في عام ١٩٠٧ إلى نياسالاند.

وكــان الوضــع فــي روديسيا الجنوبية يختلف عن الوضع في روديســيا الشــمالية وفــي نياسالاند، فقد أخذت تتدفق على روديسيا الجنوبــية بــالذات أعــداد كبيرة من المهاجرين الأوربيين للعمل في التعديــن، ممــا أدى إلى زيادة عدد المستوطنين فيها، وزيادة نفوذهم الاقتصادي والإداري.

أما المستوطنون في روديسيا الشمالية ونياسلاند فلم يكن لهم دور فــي الشئون الداخلية، فقد كان المهاجرون الأوربيون قليلي العدد، كما كــانوا متخلفين سياسياً واقتصادياً عن زملائهم في روديسيا الجنوبية، ولذلــك فــإنهم لم يطالبوا بتصفية إدارة الشركة ومنحهم الحكم الذاتي، مثلما حدث في روديسيا الجنوبية عام ١٩٢٣، فظلت روديسيا الشمالية ونياسلاند تحت الحماية البريطانية.

وأخــذت تجول في خاطر المستعمرين البريطانيين فكرة اندماج روديســيا الشمالية والجنوبية، ولكن المستوطنين في روديسيا الجنوبية كــانوا يعارضــون الفكرة ، إلى أن كشف معدن النحاس في روديسيا

الشمالية عام ١٩٢. وبدأ سيل المهاجرين البيض يتدفق عليها، فارتفعت أصـوات المناديـن بتكويـن اتحـاد من روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند، وكان هؤلاء يستندون إلى عدة عوامل، أهمها:

١- تحقيق التكامل الاقتصادي بين الأقاليم الثلاثة، فالفحم يوجد في روديسيا الجنوبية، والنحاس في روديسيا الشمالية، كما تحتاج روديسيا الجنوبية إلى الأيدي العاملة اللازمة للمناجم والمزارع والمصـانع مـن روديسـيا الشـمالية ونياسلاند، كما تحتاج روديسـيا الشـمالية في تصدير منتجاتها إلى السكك الحديدية الموجودة في روديسيا الجنوبية والمؤدية إلى ميناء بيرا.

٢- تحقـيق الاستقلال السياسي لأن الاتحاد في نظر هؤلاء يتيح الفرصـة لـنقل السلطة من أيدي المسئولين البريطانيين إلى حكومة محلية يسيطر عليها المستوطنون.

وفـي عـام ١٩٥١ و ١٩٥٢ عقد المؤيدون لفكرة الاتحاد عدة اجتماعات مهددين بانضمامهم إلى اتحاد جنوب أفريقيا ـ حيث تمارس الـتفرقة العنصرية على نطاق واسع ـ إذا لم تخرج فكرة الاتحاد إلى حـيز الوجـود، وكان الأفريقيون يعارضون فكرة الاتحاد لأنهم كانوا يرون أنها محاولة لزيادة سيطرة الأقلية البيضاء وتمكينها من استغلال خـيرات البلاد الأفريقية بطريقة أفضل، وفي أبريل عام ١٩٥٢، عقد مؤتمـر مـن حكام روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسلاند ، وحضره وزيـر المستعمرات البريطاني، وفي هذا المؤتمر تقرر قيام الاتحاد، واصـبحت سالسبوري ـ وهي عاصمة روديسيا الجنوبية ـ عاصمة الاتحاد.

ومما يلاحظ على توزيـــع ممثلي الولايات في البرلمان الاتحادي (٣٥عضـــواً) أن الأفريقيين كان يمثلهم ــ على أساس عددهم ــ ٣٤ عضـــواً، أمـــا الأوربيـــن فقد كان يمثلهم ١٦ عضواً، بينما كانوا لا يستحقون ــ بالنسبة لعددهم ــ إلا مقعداً واحدا، ومنذ ذلك الوقت أصبح الاتحـــاد حقـــيقة واقعـــة تحت اسم "اتحاد وسط أفريقيا"، وفرض هذا الوضـــع بالقوة على الأفريقيين، حتى لقد قدمت بعض الدول الأعضاء فـــي الأمم المتحدة ــ وعلى رأسها الهند ــ اعتراضاً على فرض هذا الوضـــع بـــالقوة على الوطنيين، إلا أنه أمام معارضة بريطانيا رفض الاقتراح الهندي.

ومـــنذ أعلـــن قـــيام الاتحـــاد، ظهرت سيطرة الرجل الأبيض، وأصـــبحت كـــل المشروعات توجه لخدمة مصالح البيض، واختصت روديسيا الجنوبية بالذات بأكبر قدر من المشروعات الإنشائية الكبرى، مـــثل إنشاء سد كاريبا على نهر الزمبيزي، الذي سيعود على روديسيا الجنوبية بالنفع، إلى جانب ما سيؤديه من شدة ارتباط روديسيا الشمالية ونياســـالاند بروديسيا الجنوبية لحاجتها إلى الطاقة الكهربائية من هذا السد.

وقـــد عـــارض الأفريقيون فكرة الاتحاد وساد التذمر، ولم تنجح محـــاولات الاعتقال في إخماد صوت الأفريقيين الذين أخذوا يطالبون بحـــل الاتحـــاد وإعطاء الأفريقيين حق الانتخاب العام دون شرط أو قيود، وعلى الرغم من انعقاد مؤتمر في لندن عام ١٩٦٠ قرر إدخال تعديـــلات بسيطة على دستور الاتحاد، ليسمح بتمثيل الوطنيين بنسبة أكـــبر مما هي عليه، فقد قاطع الوطنيون انتخابات عام ١٩٦٢، مثلما

قـــاطعوا مؤتمـــر لـــندن عـــام ١٩٦٠، ولما لم تجد وسائل الإرهاب اضطرت بريطانيا لأن تعلن في آخر ديسمبر عام ١٩٦٣ حل الاتحاد، وبعد حل الاتحاد استقلت روديسيا الشمالية تحت اسم "جمهورية زامبيا" في يوليو عام ١٩٦٤، واستقلت نياسالاند تحت اسم "جمهورية مالاوي" فـــي أكـــتوبر عام ١٩٦٤، واستطاعت الأقلية العنصرية البيضاء في روديسيا الجنوبية (٢١٨ ألف من جملة السكان ٢,٥٨٠,٠٠٠)، وأعلن إيـــان ســـميث رئـــيس حكومة الأقلية البيضاء في نوفمبر عام ١٩٦٥ اســـتقلال روديســـيا الجنوبية، وكان هذا يعني تسلط الأقلية العنصرية علـــى مقالـــيد الأمور، مما أثار الشعور العالمي كله عامة، والشعوب الأفريقية خاصة.

ولم تجد الإجراءات والقرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة ودول مـــنظمة الوحـــدة الأفريقية لإسقاط حكم الأقلية العنصرية البيضاء في روديســـيا الجنوبـــية، وتطالب الدول الأفريقية استخدام القوة للمحافظة على حقوق الوطنيين الأفريقيين في وطنهم.

شمال أفريقيا (مصر والسودان):

بـــدأت إنجلترا تهتم بمصر منذ أوائل القرن التاسع عشر، عندما غـــزت فرنسا مصر عام ١٧٩٨، ورأت إنجلترا أن سيطرة أية دولة سواها على مصر يعتبر تهديد للإمبراطورية البريطانية في الهند. التي تقـــع مصر على أقصر طريق إليها، ولذلك اشتركت إنجلترا في طرد الفرنسيين من مصر، ثم عادت لغزوها في عام ١٨٠٧، ولكنها فشلت بسبب مقاومة الشعب عند رشيد، كما وقفت موقف المعارضة من

محمـد علي، عندما صارت له إمبراطورية واسعة تضم ـ إلى جانب مصر والسودان ـ شبه الجزيرة العربية والشام وجزر البحر المتوسط والمورة ، وبذلك أصبح أقصر طريق إلى الهند تحت رحمته، خصوصاً وأنه كان من المعروف أن محمد علي كان يميل إلى فرنسا، ويستعين بخبرائها في مشروعاته، ولذلك فقد تزعمت إنجلترا الدول الأوربية في عام ١٨٤٠ لإرغام محمد علي على التخلي عن ممتلكاته والاقتصار على مصر والسودان.

وعلى الرغم من أنه كان من مصلحة بريطانيا التجارية تقصير المسافة بين الشرق والغرب، بشق قناة ملاحية في برزخ السويس لتصل ما بين البحرين المتوسط والأحمر، فقد كانت إنجلترا تعارض المشروع لأنه يعود على فرنسا بفائدة عظمى لأنها تطل على البحر المتوسط، وكانت فرنسا تسعى لدى محمد علي ثم لدى ابنه سعيد لشق القناة، وبذلك تنافس إنجلترا في تجارة الهند.

ورغم معارضة إنجلترا لمشروع القناة وضغطها على والي مصر محمد سعيد وعلى السلطان العثماني للحيلولة دون تنفيذه، فقد خرج مشروع قناة السويس إلى حيز الوجود وافتتحت القناة في عام ١٨٦٩، وأصبحت أمراً واقعاً صار على إنجلترا أن تقبله وترضى به، ولكن إنجلترا رأت أنه مادامت القناة قد صارت حقيقة رغم إرادتها، فقد أخذت تسعى للسيطرة على القناة، بل وعلى مصر ذاتها، فيصبح الطريق إلى الهند تحت سيطرتها.

وساعدتها ظروف مصر على تحقيق هذا الهدف، خصوصاً الإفلاس الذي وقعت فيه مصر أيام إسماعيل، فأخذت إنجلترا ـ ومعها

فرنسا ــ تتدخلان في شئون مصر باسم المحافظة على حقوق الدائنين، وشــهدت مصــر منافسة بين إنجلترا وفرنسا على إحراز النفوذ فهيا، وأخيراً انتهى هذا الصراع بانفراد إنجلترا بالعمل دون فرنسا، فاحتلت إنجلــترا مصر في عام ١٨٨٢، وإن كانت إنجلترا تجنبت ضم مصر إلــى ممتلكاتها واكتفت بالاحتلال، حتى لا تفتح باب المسألة الشرقية، فتــتدخل الــدول الأوربية الأخرى لتحصل على نصيبها من ممتلكات الــرجل المــريض (الدولة العثمانية)، ومع ذلك فقد كانت مصر تحت ســيطرة إنجلــترا فــي كافة الشئون السياسية والاقتصادية، ثم أعلنت إنجلترا الحماية على مصر عام ١٩١٤، عندما دخلت الدولة العثمانية الحــرب العالمــية الأولــى ضــد إنجلترا وحلفائها، الأمر الذي أثار المصــريين عــام ١٩١٩ مطالبين بالاستقلال، واضطرت إنجلترا في تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ أن تعلن انتهاء الحماية البريطانية على مصــر، وبذلك تصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة مع بعض القيود التي حاولت مصر إلغاءها.

ورغــم أن إنجلترا عقدت مع مصر معاهدة صداقة وتحالف في عــام ١٩٣٦، فإن مصر لم تكن تتمتع باستقلالها التام، لتدخل الإنجليز فــي شئونها استناداً إلى قواتهم التي ظلت موجودة وبخاصة في منطقة قناة السويس، الأمر الذي جعل السخط ينتشر بين أفراد الشعب. وظل الحال على هذا المنوال حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، فبدأت بحــل مشــكلة السودان التي كانت تعتبر الصخرة التي تتحطم عليها المفاوضــات بين إنجلترا ومصر. فعقدت بين الدولتين اتفاقية السودان في عام ١٩٥٣، وفي العام التالي عقدت اتفاقية الجلاء التي تقرر فيها

جــلاء القــوات البريطانية عن مصر في مدة أقصاها عشرون شهراً، ومع ذلك فقد حاولت إنجلترا في عام ١٩٥٦ العودة إلى سيطرتها على مصر، فدبرت عدوانها مع فرنسا وإسرائيل على مصر، ولكن الشعب استطاع أن يدحر العدوان.

أمــا فــي السودان فإنه بعد أن فتحه محمد على في عام ١٨٢٠، أخــذت مصــر في عهد الخديو إسماعيل تعمل على مد نفوذ الإدارة المصــرية في السودان إلى حدوده الطبيعية شرقاً وغرباً وجنوباً، إلى مــناطق لــم يكن النفوذ المصري قد وصل إليها في عهد محمد على، ففتحــت دارفور وإقليم بحر الغزال، كما عمدت مصر في عهد الخديو إسماعيل أيضاً إلى تثبيت أقدامها في المناطق الهامة على ساحل البحر الأحمر الغربي وساحل أفريقيا الشرقي، فامتدت الإدارة المصرية إلى موانــئ ســواكن ومصوع وبربرة وزيلع، كما امتدت إلى هرر، كما أرسلت حملة في عام ١٨٧٥ إلى بلاد الصومال، فوصلت الحملة إلى رأس حــافون وبراوة وقسمايو، ولكن إنجلترا وقفت في وجه الامتداد المصري، وأجبرت مصر على سحب حاميتها، وعقدت معاهدة ١٨٧٧ بيــن مصــر وإنجلترا، اعترفت فيها إنجلترا بسلطان مصر على بلاد الصومال حتى رأس حافون.

أما امتداد الإدارة المصرية جنوباً، فقد كلف به أولاً كل من السير صــمويل بيكر الذي تعاقدت معه الحكومة المصرية لمد سلطانها إلى مــنابع النيل، ثم غودون الذي أصبح مديراً لمديرية خط الاستواء، كما قــام شــاييه لونــج الضــابط الأمريكي الذي كان في خدمة الحكومة المصــرية بعقــد معــاهدة مع الملك أمتيسة ملك أوغندا، وضع الملك

بموجـبها مملكـته تحت حماية مصر، كما امتد النفوذ المصري إلى مازندي عاصمة أونيورو.

وكـان آخر مدير عينته مصر لمديرية خط الاستواء هو الطبيب الألماني إدوارد شنيتزر، الذي اعتنق الإسلام وتسمى باسم أمين باشا.

إلا أن تدهور أحوال مصر السياسية والاقتصادية منذ أواخر عهد إسـماعيل، أتاح الفرصة للدول الاستعمارية كي تستولي على الجهات التي امتد إليها النفوذ المصري، وكانت في مقدمتها إنجلترا ذاتها التي رفضـت ــ بعـد أن احتلت مصر عام ١٨٨٢ ــ أن تسمح باستخدام الجـيش المصـري فـي إقرار النظام في السودان، وأرسل الجنرال غـوردون لتنفيذ هذه المهمة، وقد قتله الدراويش أتباع المهدي في عام ١٨٨٥، وهكذا انسحبت مصر من السودان.

كما اقتسمت الدول الاستعمارية أملاك مصر في السودان الشرقي وشـرق أفريقـيا، وحصلت فرنسا وإيطاليا ــ بتأييد إنجلترا ــ على نصيب الأسد، فأخذ الإيطاليون يتوسعون في منطقة عصب، ثم احتلوا مصـوع، وأخذ نفوذهم في هذه المنطقة يتسع ويمتد، وفي عام ١٨٩٠ صدر مرسوم إيطالي نظم هذه الممتلكات الإيطالية على البحر الأحمر، التي سماها المرسوم باسم أرترية، كما سمحت إنجلترا لإيطاليا باحتلال كسـلا والمناطق المجاورة لها حتى نهر عطبرة بصفة مؤقتة، وكذلك سـمحت إنجلـترا لإيطاليا بالسيطرة على موانئ براوة ومقديشو التي أرغم المصريون على إخلائها ليتكون منها الصومال الإيطالي.

أمـا إنجلـترا فقـد كان من نصيبها أملاك مصر المقالة لعدن، فأرغمت مصر على إخلاء بربرة وزيلع في عام ١٨٨٤، لكي يتكون

منها الصومال البريطاني، أما هرر فقد أجبرت إنجلترا مصر على إخلائها في عام ١٨٨٥، وتسليمها للأمير عبد الشكور ابن أمير هرر السابق، ويبدو أن إنجلترا اتخذت هذا الإجراء مؤقتاً حتى تتاح لها فرصة وضع يدها عليها، لولا أنه في عام ١٨٨٧ زحف منليك ملك شوا ـــ الذي صار ملك الحبشة بعد ذلك ـــ على هرر واستولى عليها، وأصبحت منذئذ جزءاً لا يتجزأ من مملكة الحبشة.

أما فرنسا فإنها بعد أن حصلت على أوبوك وعلى مضيق باب المندب، أخذت في التوسع في هذه المنطقة حتى كونت فيها ما يعرف باسم الصومال الفرنسي.

ولما كانت مصر قد انسحبت من السودان تحت ضغط إنجلترا، فقد صارت الدول الأوربية التي تمتلك مستعمرات في أفريقيا تعتبر السودان أرضاً بلا صاحب، فحاولت فرنسا التوغل من مستعمراتها في غرب أفريقيا إلى إقليم بحر الغزال، وأرسلت حملة بقيادة الكابتن مارشان، ووصل إلى قرية فاشودة على النيل الأبيض.

كما كان ليوبولد ملك بلجيكا يطمع هو الآخر في التوسع في حوض النيل، فأرسل في عام ١٨٩٠ حملة وصلت إلى النيل واحتلت عدة مراكز.

وإزاء هذه الأطماع الأوربية في أملاك مصر السابقة، فقد تغير موقف إنجلترا، وعلى الرغم من أنها هي التي أرغمت مصر على الانسحاب من السودان. فإنها في عام ١٨٩٦ قررت إرسال حملة لاسترجاع السودان. وتكونت الحملة من جنود مصريين وضباط إنجليز وقائد إنجليزي هو كتشنر سردار الجيش المصري، الذي كلف

بالوصول إلى فاشودة قبل وصول مارشان الفرنسي إليها، ونجح كتشنر فـــي الانتصـــار على المهديين واسترجاع السودان، والإسراع جنوباً ليصـــل إلى فاشودة، ولكنه وجد أن مارشان قد سبقه إليها ورفع عليها العلم الفرنسي، فاستخدم كتشنر العلم المصري وحق مصر الشرعي في إرغـــام مارشان على الانسحاب، بعد أن كاد القتال ينشب بين القوتين الإنجليزية والفرنسية.

وبعد استعادة السودان ، تم الاتفاق بين إنجلترا ومصر ــ المغلوبة على أمرها ــ على أن يحكم السودان حكماً ثنائياً (اتفاق الحكم الثنائي في ١٩ يناير ١٨٩٩)، ولكنه كان يحكم حكماً ثنائياً من الناحية النظرية فقط، لكن السيطرة الكاملة على شئون السودان كانت في أيدي إنجلترا، وفـــي عام ١٩٢٤ انتهزت إنجلترا فرصة اغتيال سير لي ستاك باشا ســـردار الجـــيش المصـــري وحاكم عام السودان في القاهرة، فأمرت مصر بسحب جنودها وموظفيها، وبذلك صارت إنجلترا وحدها تنفرد بحكـــم السودان، إلى أن عقدت معاهدة عام ١٩٣٦، فتقرر العودة إلى نظام الحكم الثنائي.

وعملت إنجلترا منذ عام ١٨٩٩ على استغلال السودان في إنتاج القطن اللازم لمصانع المنسوجات في بريطانيا، كما عملت على فصل جنوب السودان عن شماله، وتوجيه هذا الجنوب صوب أوغندا وغيرها مـــن مـــناطق الـــنفوذ البريطانـــي في شرق ووسط القارة الأفريقية، فأصـــدرت قانون المناطق المغلقة، وأصبح جنوب السودان مغلقاً تماماً فـــي وجه أهل الشمال، بينما فتح في وجه نشاط الجمعيات التنصيرية الأجنبية، وظلت إنجلترا متمسكة بالسودان حتى لقد فشلت المفاوضات

بينها وبين مصر بسبب الاختلاف على مصير السودان، إلى أن جاءت ثـورة عـام ١٩٥٢ وقررت حل مشكلة السودان أولاً قبل حل مشكلة الجـلاء، فـتم الاتفاق في اتفاقية السودان في فبراير عام ١٩٥٣ على انسـحاب القوات المصرية والإنجليزية من السودان، ومنح السودانيين حـق تقرير مصيرهم، وفي ديسمبر عام ١٩٥٥ أعلن قيام الجمهورية السودانية.

شرق أفريقيا:

ذكـرنا فـي موضـع سـابق أن عرب شبه الجزيرة العربية ــ وخاصـة عـرب عمان ــ وفدوا على الساحل الشرقي لأفريقيا، حيث كونوا إمارات عربية، وفي أوائل القرن التاسع عشر أصبح السيد سعيد إماماً على عمان وحاكماً على مَسقط، بالإضافة إلى زنجبار. وفي عام ١٨٤٠ اتخذ السلطان السيد سعيد زنجبار مقراً له. وترك أحد أبنائه في مسـقط، وشـهدت زنجـبار منذ نزوحه إليها ازدهاراً اقتصاديا نتيجة التجارة مع بلاد العرب وأقاليم أفريقيا الداخلية.

وبعد وفاة السلطان السيد سعيد، وحدوث نزاع بين أفراد الأسرة، انفصلت سلطنة زنجبار نهائياً عن مسقط في عام ١٨٦١.

وقد بدأ النفوذ البريطاني يتغلغل في زنجبار منذ عام ١٨٣٩، حين عقـدت الحكومـة البريطانـية مع سلطانها معاهدة، تعهد فيها باتخاذ إجـراءات أكثر حزماً ضد تجار الرقيق، كما أعطى السفن البريطانية حـق تفتـيش السفن في الموانى التابعة للسلطان للتأكد من خلوها من الرقيق، كما عينت إنجلترا ممثلاً لدى السلطان بعد نزوحه إلى زنجبار، وكان مندوب إنجلترا هو اليد المحركة للسلطان السيد سعيد.

وقد ازدادت أهمية زنجبار في نظر إنجلترا بعد فتح قناة السويس للملاحة في عام ١٨٦٩، فأصبحت إنجلترا في حاجة إلى محطات تخدم الملاحة على الطريق إلى الهند عبر قناة السويس، خصوصاً وأن أغلب التجارة الخارجية في زنجبار كانت في أيدي رعايا هنود، ولذلك كان العلاقات بين الهند وزنجبار قوية.

وأخذ نفوذ إنجلترا في زنجبار في الازدياد، حتى أصبح قنصلها في زنجبار هو القوة المحركة للسلطان، بل أصبح يقوم بدور رئيس وزراء السلطان بصفة غير رسمية، كما أغرى السلطان بتكوين قوة حربية، ورشح ضابط بريطاني لتدريبها، ولم يلبث هذا الضابط أن عين رئيساً لوزراء زنجبار من عام ١٨٩٩ ــ ١٩٠١.

ولما كان للألمان نشاطهم في تلك الجهات من شرق أفريقيا، وقد استطاع دكتور كارل بيترز عقد معاهدات مع شيوخ القبائل، فقد قامت منافسة بين إنجلترا وألمانيا في هذه الجهات، انتهت بعقد اتفاقية بين الدولتين في عام ١٨٨٦، اقتسمت الدولتان بموجبها أملاك سلطان زنجبار، فوضعت إنجلترا يدها على الجزء الشمالي من أملاك السلطان ــ وهو الجزء الذي صار أساس مستعمرة أفريقيا الشرقية البريطانية (كينيا) ــ علاوة على جزيرتي زنجبا وبمبا. كما تأسست شركة شرق أفريقيا البريطانية الإمبراطورية Imperial British East, Africa Company. التي صارت تتحكم في تلك المساحة الواسعة الممتدة من ساحل ممبسا حتى بحيرة فيكتوريا (كينيا).

أما ألمانيا فقد كان نصيبها في الجزء الجنوبي من أملاك سلطان زنجبار، وأصبحت منطقة النفوذ الألمانية ــ أفريقيا الشرقية الألمانية

(تنجانـيقا) ــ تمتد من الساحل حتى جبال كلمنجارو والطرف الشرقي لبحيرة فكتوريا.

ومن أجل إرضاء الدول ضم جزء من أملاك سلطان زنجبار إلى الصومال الإيطالي، ولإرضاء فرنسا وافقت إنجلترا على أن تطلق يدها في جزيرة مدغشقر.

وعقـب الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا، وضعت إنجلترا يدهـا على أفريقيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا)، بمتقضى صلح فرساي عام ١٩١٩.

وفي عام ١٩٦٢ حصلت زنجبار وبمبا على استقلالهما، ثم قامت ثـورة أعلـن على أثرها قيام النظام الجمهوري فيها. وفي أبريل عام ١٩٦٤ اتحدت تنجانيقا وزنجبار تحت اسم جمهورية تنزانيا.

أمـا بالنسـبة لـــ **كينيا** التي تدفق عليها المهاجرون الأوربيون والآسيويون، وخاصة الهنود ــ فقد شارك الوطنيون فيها بنصيب غير قلـيل في صفوف الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، خصوصاً وقد تعرضـت كينيا ذاتها لهجوم إيطالي من الصومال، وبعد الحرب صار أهـل كينـيا يتطلعون إلى التمتع بحقوقهم كاملة في بلادهم، بينما كان المسـتوطنون الأوربيون يطالبون بالسيطرة التامة على شئون البلاد، أسـوة بما كان يجري في جنوب أفريقيا، مما أدى إلى اشتعال الحركة الوطنـية، وفي عام ١٩٥٠ وصلت ثورة قبائل الكيكويو إلى ذروتها، واسـتمرت هذه الثورة التي عرفت باسم ثورة الماوماو عدة سنوات، شن فيها الثوار حرب العصابات من الغابات على المستعمرين، وتزعم الحركة جومو كينياتا، مما اضطر الحكومة البريطانية إلى إقامة نظام

دستوري في كينيا عام ١٩٥٤، وزاد عدد الوطنيين في المجلس التشريعي، وفي يناير عام ١٩٦٠ عقد في لندن مؤتمر حضره ممثلون عن الأفريقيين والأوربيين والهنود، وتقرر فيه منح كينيا الاستقلال بعد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات، وفي ديسمبر عام ١٩٦٣ أعلن استقلال كينيا، وتلا ذلك قيام النظام الجمهوري فيها.

أما بالنسبة لـ **أوغندا**، فقد رأينا من قبل امتداد الإدارة المصرية في السودان جنوباً إلى المديرية الاستوائية (منطقة البحيرات الاستوائية) وكيف أن الملك أمتيسة ملك أوغندا عقد معاهدة مع مصر قبل فيها وضع بلاده تحت حمايتها، وعندما نشبت الثورة المهدية في السودان، كان أمين باشا هو الحاكم المصري للمنطقة الاستوائية، ولما كانت إنجلترا تنظر بعين القلق إلى أطماع الدول الاستعمارية في هذه الجهات، وتريد أن تمد نفوذها إليها تحقيقاً لما كان ينادي به بعض الاستعماريين الإنجليز أمثال سيسل رودس، بربط الممتلكات البريطانية في جنوب القارة الأفريقية بالممتلكات البريطانية في شمالها، فقد قررت إنجلترا مد نفوذها على هذه المنطقة، فبدأت أولاً بتدبير التخلص من أمين باشا الذي ظل موالياً لمصر ورفض الانسحاب، فأشاعت إنجلترا في أوربا أنه في خطر، وأنه يجب إرسال حملة لإنقاذه، وأسهم في هذه الحملة الإنجليز والبلجيك وقادها الرحالة ستانلي، ولما رفض أمين باشا مغادرة البلاد مع البعثة، قام ستانلي بخطف أمين باشا ونقله إلى شرق أفريقيا، ورفع العلم البريطاني على قلعة وادلاي، وقد عهدت إنجلترا إلى شركة شرف أفريقيا البريطانية الإمبراطورية بتدعيم نفوذها في المنطقة، ولكن الشركة وهي تحاول دعم السيطرة على أوغندا،

صادفت عقبات حتى فكرت بالانسحاب، لولا أن بعض المنظمات التي كان لها نشاط في تلك الجهات، مثل جمعية الكنيسة التنصيرية وجمعية منع تجارة الرقيق، عارضت فكرة الانسحاب من أوغندا، فقامت الشركة بالضغط على ملك أوغندا حتى وقع على معاهدة تنازل بمقتضاها عن بلاده لإنجلترا عام ١٨٩٢.

وفي يونيو عام ١٨٩٤ أعلنت إنجلترا حمايتها على أوغندا، وقد اتبعت بريطانيا في حكم أوغندا طريقة الحكم غير المباشر، فتركت إدارة كل مملكة بيد ملكها، لكنها جعلت كل الإدارات خاضعة للمندوب السامي البريطاني، وكانت بوجندا أقوى هذه الممالك، وكان ملكها يلقب بالكاباكا، وكان الشعب يعرف باسم الباجندا.

وقد اهتمت إنجلترا بالإنتاج الزراعي في أوغندا، كما نفذت في عام ١٩٥٤ مشروع خزان مساقط أوين، كما قامت بإتمام مشروع الخط الحديدي الممتد من الساحل عند ممبسا حتى يصل كمبالا.

وعقب الحرب العالمية الأولى فكرت إنجلترا في إدماج مستعمراتها في شرق أفريقيا (أوغندا، وكينيا وتنجانيقا) في اتحاد واحد يسمى اتحاد شرق أفريقيا، ولكن برلمان أوغندا عارض الفكرة فعدلت عنها، وبعد الحرب العالمية الثانية قامت حركات تطالب بالاستقلال، وحصلت أخيراً أوغندا على استقلالها عام ١٩٦٢، وأعلن قيام النظام الجمهوري بها.

ومما يلاحظ أن بريطانيا في حكم مستعمراتها في أفريقيا تتبع نظام الحكم غير المباشر ــ بعكس فرنسا ــ وكان يقوم على عدة أسس:

١- تعـاون الـزعماء الوطنيين والمؤسسات القبلية والمحلية مع الإدارة الحكومية، على أن يصبح هؤلاء جميعاً جزءاً من هذه الإدارة الحكومية.

٢- السـلطة النهائية في المستعمرة في يد الحاكم العام البريطاني في الضرائب والتشريع والتصريح بحلم السلاح والموافقة على من يختار خليفة للرئيس المتوفى.

ومن فوائد هذا النظام:

١- عـدم التضـارب بين السياسة البريطانية والحياة الاجتماعية للأفريقيين.

٢- الاستفادة من هؤلاء الزعماء في الاتصال بالأهالي.

٣- تقليل نفقات ومتاعب الإدارة.

٤- اخـتفاء الإدارة وراء الـزعماء كواجهة من شأنه عدم إثارة الأهالي رغم أن البلاد خاضعة تماماً للحكم البريطاني، إلا أن السلطة الظاهرية في أيدي الزعماء الوطنيين.

الفصل التاسع

الاستعمار الإيطالي في أفريقيا

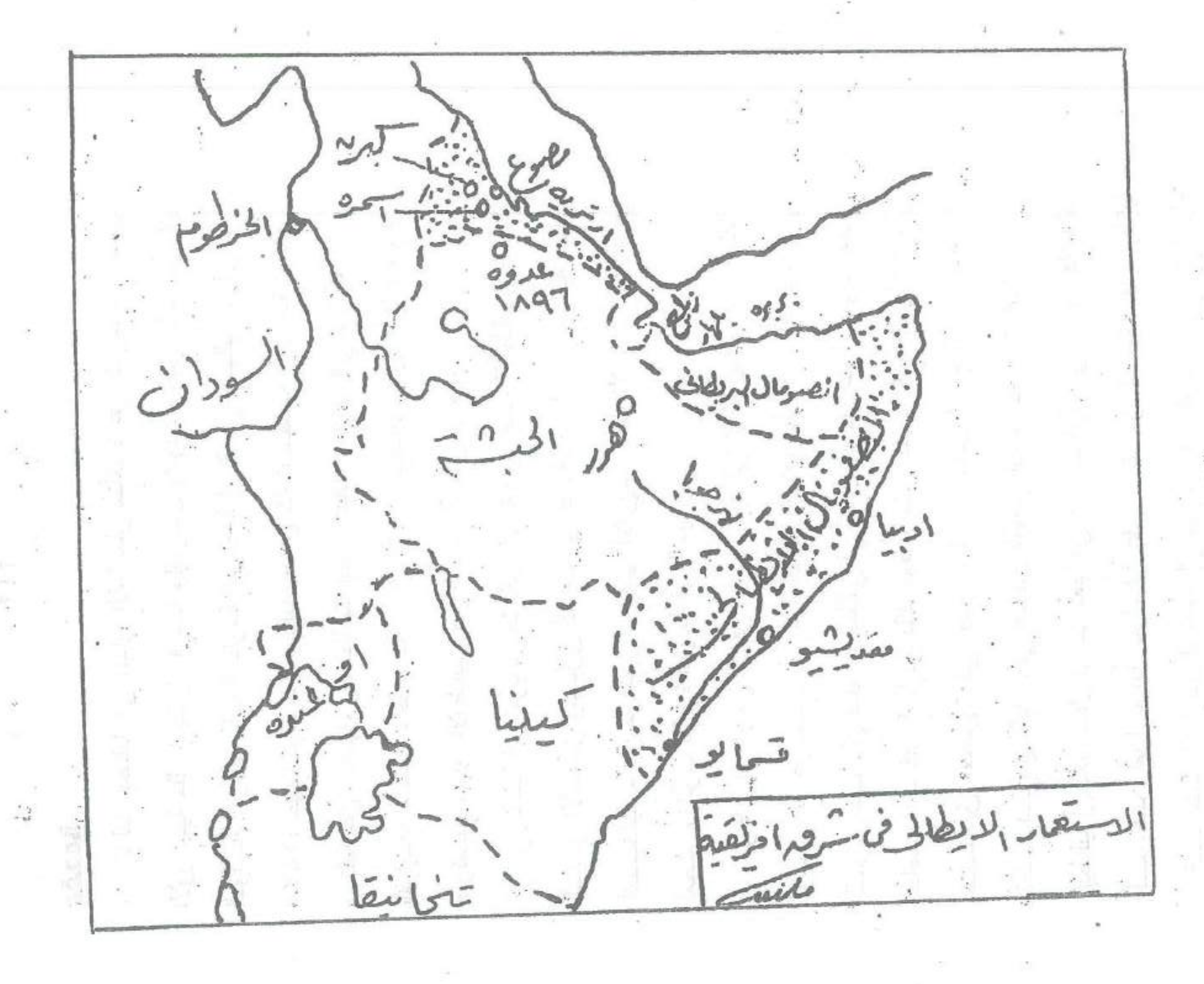
- مقدمة
- أرترية
- الحبشة ومعركة عدوه

أ ـ الصراع الإنجليزي الفرنسي على أعالي النيل بعد معركة عدوه.

ب ـ نتائج معركة عدوه

جـ ـ الغزو الإيطالي للحبشة عام ١٩٣٥.

- الصومال الإيطالي
- ليبيا


الاستعمار الايطالي في شرق افريقية
الخرطوم
السودان
كرن
أسمرة
مصوع
ارتريا
عدوة
١٨٩٦
هرر
الحبشة
الصومال البريطاني
الصومال الايطالي
أوبيا
مقديشو
قسمايو
كينيا
تنجانيقا

مقدمة:

نزلت إيطاليا إلى ميدان الاستعمار متأخرة عن غيرها من الدول الأوربـية مثل إنجلترا وفرنسا والبرتغال وهولندا، ومرد ذلك إلى أن الدولـة الموحدة ذات الحكومة المركزية لم تقم في إيطاليا إلا في عام ١٨٧٠، حينما تم توحيد إيطاليا بعد أن كانت منقسمة إلى عدة دويلات مستقلة عن بعضها، وقد تطلعت إيطاليا عقب وحدتها إلى امتلاك تونس القريـبة مـنها، وخاصـة مـن جزيرة صقلية، ولكن رأينا كيف أن الفرنسيين سبقوا الإيطاليين إلى الاستحواذ على تونس.

ورغـبة في تعويض ما فاتهم في تونس، اتجه الإيطاليون صوب الـبحر الأحمـر وشـرق أفريقـيا، وقد كانت الظروف مواتية بسبب انسـحاب مصر من إمبراطوريتها الأفريقية عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر ونشوب الثورة المهدية في السودان.

وعلى الرغم من أن فرنسا ــ رغبة في تهدئة إيطاليا بعد احتلال تونـس ــ عرضـت أن تقوم إيطاليا باحتلال طرابلس الغرب، وعلى الـرغم مـن أن النفوذ الإيطالي في شمال أفريقيا عامة ــ وفي مصر خاصـة ــ كان قوياً في ذلك الوقت بدليل انتشار اللغة الإيطالية على صـناديق الخطابات في مصر، ونفى إسماعيل إلى إيطاليا، وابنه فؤاد تعلـم فـي إيطاليا، حتى لقد قال البعض أنه لو عرضت إنجلترا على إيطاليا أن تحل محل فرنسا معها في عمل مشترك في مصر، فإن ذلك لـم يكـن أمراً غريباً. نقول أنه على الرغم من كل ذلك، فإن إيطاليا عقـب ضـياع تونس لم تتجه إلي ليبيا، ويعلل البعض ذلك بأن الدولة العثمانـية أرسلت إلي ليبيا عشرة آلاف جندي لحمايتها من أي عدوان

مماثل للعدوان الذي وقع علي تونس، ولكن يمكن أن نغزو ذلك أيضاً إلي أنه عقب احتلال فرنسا لتونس، حدث تقارب بين ألمانيا وإيطاليا ـــ التي انضمت إلي التحالف الثنائي ــ وكانت ألمانيا ترتبط وقتئذ برابطة الصداقة الوطيدة مع تركيا، ولذلك لم يكن معقولاً أن تهاجم إيطاليا ليبيا الـــتابعة للدولـــة العثمانـــية صديقة ألمانيا، يضاف إلي ذلك أن إيطاليا وجـــدت أن النشـــاط في أفريقيا لن يصادفه صعوبات بسبب انسحاب مصر.

أرترية:

ترجع صلة إيطاليا الأولي بإقليم أرترية إلي رغبة شركة روباتينو الإيطالـــية للملاحـــة في تأسيس محطة علي الخط المزمع إنشاؤه بين البندقـــية وموانى الهند والشرق عبر قناة السويس والبحر الأحمر، وقد وفـــق المـــندوب الإيطالي في أن يستأجر من بعض الزعماء المحليين بعض جهات خليج عصب ورفع عليها العلم الإيطالي.

وقد احتجت مصر، إلا أن الحكومة الإيطالية ساندت الشركة، ولـــو أن إيطالـــيا لم تتخذ إجراء فعلياً لاحتلال هذه المنطقة حتى عام ١٨٨٢، عندما احتلت إنجلترا مصر، واضطرب (اختل) ميزان النفوذ الأوربـــي فـــي أفريقيا، فاشترت الحكومة الإيطالية ميناء عصب من الشركة الإيطالية، وبذلك أصبح لإيطاليا ركيزة تستطيع أن تتوسع منها علي بقية الساحل الأفريقي.

وقد أيدت إنجلترا إيطاليا في البداية لعدة أسباب: لتتخذ من إيطاليا حلـــيفاً لهـــا فـــي المسألة المصرية، ولتتخذ منها درعاً لمقاومة توسع

حكومـــة الدراويش في السودان، وأيضاً لمقاومة الأطماع الفرنسية في هـــذه المـــناطق، وهكـــذا ولدت إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية عبر البحار، فإنه لم تكد إيطاليا تثبت أقدامها في عصب، حتى أسرعت بمد ســلطانها شــمالاً وجنوباً، فاحتلت بيلول في عام ١٨٨٥بعد انسحاب المصـــريين منها، بدعوى أن الفوضى فيها تهدد وضع الإيطاليين في عصـــب، ثم اتجهت أنظار الإيطاليين لميناء مصوع الهام، خصوصاً وقد علمت بأن في نية المصريين إخلاء الميناء، وتذرعت إيطاليا بمقتل الـــرحالة الإيطالي بيانكي، فأرسلت سفنها إلي مصوع، وشجعها علي ذلك تخاذل العثمانيين وتشجيع الإنجليز، واحتل الإيطاليون مصوع في فبراير عام ١٨٨٥، ورفعوا عليها العلم الإيطالي.

وعللـــت الحكومة الإيطالية هذا التصرف بإخلاء مصر للسودان، وانســـحاب قواتهـــا مـــن تلـــك البقاع، ومعني ذلك في نظر الحكومة الإيطالـــية تخلـــي مصـــر عن حقوق السيادة في هذه المناطق، وبذلك تصـــبح مصوع ــ شأنها شأن بقية ممتلكات مصر في أفريقيا ــ ملكاً مـــباحاً أو أرضاً بلا صاحب Res Nullius، وترتيباً علي ذلك يحق لإيطاليا احتلالها.

وبعـــد ذلك توغلت القوات الإيطالية في الأراضي الداخلية غربي مصـــوع، وشـــمالاً حتى أصبحت علي بعد مائة ميل جنوبي سواكن، وجـــنوباً حـــتى جـــاورت الفرنسيين في أوبوك. ثم أصدرت الحكومة الإيطالـــية مرســـوماً في عام ١٨٩٠ بتوحيد الممتلكات الإيطالية على ســـاحل البحر الأحمر في مستعمرة واحدة باسم ارتريه، وكان الفضل فـــي تكويـــنها يرجع إلى إنجلترا، وموقفها الذي ذكرنا أسبابه ، والذي

يمكـن أن نضـيف إلـيه أن إنجلترا كانت تتوقع أن إيطاليا ـ نتيجة توسـعها في شرق أفريقيا ـ لابد وأن تصطدم بالحبشة، مما سيؤدي إلـى إضـعاف القوتين، وفي هذا مصلحة لإنجلترا لتتمكن من تحقيق أغراضها في شرق أفريقيا بما فيها الحبشة والممتلكات الإيطالية عندما تسنح لإنجلترا الفرصة.

الحبشة ومعركة عدوه:

مـنذ أن وضـعت إيطاليا أقدامها على الساحل الأفريقي، اتجهت أنظارهـا إلى الحبشة، فأخذت يعونها تستكشف المناطق الواقعة على الطريق إلى الحبشة، وعلى الرغم من أن إنجلترا كانت عقدت معاهدة مـع الإمبراطور يوحنا ملك الحبشة عام ١٨٨٤، تعهدت فيها إنجلترا بضمان حرية نقل التجارة بين الحبشة ومصوع، وإعادة إقليم بوغوص فـي الشـمال إلـى الأحباش ـ وكان المصريون قد احتلوه ـ مقابل مساعدة الأحباش على إخلاء المصريين لحامياتهم في شرق السودان.

ولكن لم يكد يمضي عام على هذه المعاهدة حتى سمحت إنجلترا لإيطالـيا باحـتلال مصوع، ذلك الميناء الذي كان يعتبر منفذاً طبيعياً للحبشة على البحر الأحمر.

ورسـمت إيطالـيا سياسـتها إزاء الحبشة بعد ذلك على أساس مسـاعدة منليك حاكم إقليم شوا الحبشي والمنافس للإمبراطور. وأمدته بالسلاح. كما انتهزت إيطاليا فرصة انشغال الإمبراطور يوحنا بالحرب ضـد الدروايـش ثـم موتـه، واشـتداد الخلافات الداخلية بين حكام المقاطعـات، فاحتلـت مناطق كيرن وأسمرة ومعظم مقاطعة تيجرة، وبذلك أصبحت تتحكم في الطرق المؤدية إلى الحبشة.

وبعـد أن آل العـرش فـي الحبشة إلى منليك. فإن ذلك لم يخدم الإيطاليين، لأنه وإن كان قد أظهر صداقته لإيطاليا ليحصل منها على المســاعدة اللازمة له لإخضاع جميع أنحاء الإمبراطورية لنفوذه، فإنه بعـد أن أســتتب له الأمـر وقف في وجه أطماع الإيطاليين، ولكنها إيطاليا ــ من ناحية أخرى ــ استمرت في تنفيذ سياستها التوسعية في الحبشة، استناداً إلى أن منليك مدين لهم بسلطته واستناداً أيضاً إلى تأييد إنجلترا.

وفـي ٢ مـايو عـام ١٨٨٩ أبرمـت إيطاليا مع منليك معاهدة أوتشيالي Uecialli، وتلاعبت الحكومة الإيطالية بالألفاظ، فبينما نصت المـادة ١٧ من النص الأمهري (الحبشي) على أن لإمبراطور الحبشة الحـرية فـي الاستعانة بالحكومة الإيطالية في علاقاته مع الحكومات الأخـرى، وردت هـذه المادة في النص الإيطالي بأن على إمبراطور الحبشـة أن يسـتعين بالحكومـة الإيطالية في علاقاته مع الحكومات الأخـرى، أي أنه من وجهة النظر الإيطالية أصبح ملك الحبشة موافقاً علـى قـيام الحكومة الإيطالية بإدارة جميع شئون الحبشة الخارجية، ومعـنى هـذا أن الحبشة صارت محمية إيطالية، ولم يعلم إمبراطور الحبشـة بحقـيقة الخلاف بين النصين إلا عندما نبهته فرنسا، وعندما احـتج ادعـت إيطاليا أن النص الإيطالي هو الصحيح، وأن سكرتير الإمبراطور أخطأ عندما ترجمة إلى اللغة الأمهرية.

إلا أن إيطالـيا لم نعبأ باحتجاج إمبراطوري الحبشة، لأنها كانت مطمئـنة إلـى موقف إنجلترا وتأييدها لها. خصوصاً وقد عقدت بين الدولتين ــ إيطاليا وإنجلترا ــ اتفاقية عام ١٨٩١ اعترفت فيها إنجلترا

بمنطقة نفوذ إيطالية تمتد من ساحل أترية وتنتهي على ساحل المحيط الهندي في الصومال الإيطالي، وتشمل منطقة النفوذ هذه الحبشة.

ويلاحـــظ أن إنجلترا عند تحديد منطقة النفوذ الإيطالية حرصت على أن تكون هذه المنطقة بعيدة إلى حد ما عن وادي النيل. كما كانت إنجلــترا تحــرص على أن تكون منطقة النفوذ الإيطالية سداً في وجه الفرنسيين إذا حاولوا التوغل غرباً من الصومال الفرنسي.

ولكن إمبراطور الحبشة صمم على مقاومة الإيطاليين، وكان يجد التأييد من روسيا وفرنسا، وقد فتحت الأخيرة

ميــناء جيبوتي لتوصيل الأسلحة إليه وعندما بدأت إيطاليا غزو الحبشة عسكرياً في عام ١٨٩٤ ، ورغم نجاح الحملة في بداية الأمر فــي هزم الإيطاليون هزيمة ساحقة في عدوة في مارس ١٨٩٦وحيث اســتطاع الإمــبراطور منليك أن يأسر أربعة آلاف إيطالي بينهم أحد القــادة الكــبار وكثــير مــن الضباط، وأن يستولى على كل المدفعية الإيطالـــية، هذا بالإضافة إلى فقد إيطاليا لستة آلاف جندي وجرح ما يقرب من ألف ونصف. واضطرت إيطاليا في معاهدة أديس آبابا إلى إلغاء معاهدة أوتشيالي والاعتراف باستقلال أثيوبيا استقلالاً تاماً

وقــد كانــت معــركة عدوة حاسمة الأثر، فقد أرغمت الحكومة الإيطالـــية عن التخلي عن سياسة التوسع الاستعماري في الحبشة، ولم تبعث أطماع إيطاليا في الحبشة مرة أخرى إلا في عام ١٩٣٥.

أ ـ الصراع الإنجليزي الفرنسي على أعالي البحار بعد معركة عدوة:

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت إنجلترا تسعى من أجــل تنفــيذ مشروع الكاب ــ القاهرة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف

تباطأت في الرحيل عن مصر، واستمر احتلالها إلى أجل مسمى، ويعني تنفيذ هذا المشروع في ذلك الوقت إبعاد النفوذ الفرنسي عن وادي النيل، هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تسعى لإقامة مشروع مماثل يرمي إلى إقامة حزام فرنسي عبر القارة الأفريقية من الشرق إلى الغرب وذلك بالتوسع من ممتلكاتها في الشرق والغرب صوب نهر النيل، وقامت إنجلترا بتشجيع إيطاليا على تأسيس مناطق نفوذ لها على طول ساحل البحر الأحمر الغربي حتى تمنع فرنسا من الوصول إلى حوض نهر النيل.

ورغم هذا فإن السياسة البريطانية في حوض النيل لم تضع حداً لأطماع فرنسا للوصول إلى النيل عن طريق تدعيم نفوذها في الحبشة.

فلقد وقفت فرنسا إلى جانب الحبشة في حربها ضد إيطاليا وازداد النفوذ الفرنسي في الحبشة لدرجة أن الإمبراطور منح مستشاره الخاص المهندس السويسري الفريدالج (Alfred Alg) تصريحاً بتنظيم شركة لدراسة مشروع الخط الحديدي من الميناء الفرنسي جيبوتي ويسير في مقاطعات هرر وكافا وأينتوتو إلى النيل الأبيض، ورسمت فرنسا سياستها واستراتيجيتها على أساس التسلل إلى حوض النيل من الغرب ابتداء من مستعمرتي تشاد والكونغو الفرنسي ومن الشرق ابتداء من مستعمرة جيبوتي مروراً بالأقاليم الحبشية.

وعقب هزيمة عدوة ــ وجهت فرنسا نظرها نحو أديس أبابا أسوة ببقية الدول الأوربية الأخرى ــ ففي خريف عام ١٨٩٦ قررت حكومة فرنسا الدخول في مفاوضات مع منليك لتجديد معاهدة ١٨٤٣ التي كان قد وقعت لتخطيط الحدود بين الحبشة والصومال الفرنسي، في ديسمبر

عـام ١٨٩٦، قـررت الحكومة الفرنسية إيفاد ليون لاجارد (Leon Lagrade) حاكم الصومال الفرنسي في بعثة إلى أدريس أبابا من أجل الوصول إلى اتفاق سياسي مع الإمبراطور منليك يخدم أغراض فرنسا وذلـك بتسهيل مرور حملتين فرنسيتين في بلاده بهدف الوصول إلى النيل، وكانت فرنسا تأمل أن تحرز نجاحاً كبيراً عندما يتم إنجاز الخط الحديدي بين جيبوتي والنيل الأبيض.

واسـتطاع (لاجارد) أن يوقع معاهدة سرية مع الأمبراطو منليك في ٢٠مارس سنة ١٨٩٧بخصوص السيطرة علي حوض النيل الأعلى فـي نفـس الوقت الذي تم فيه توقيع الإتفاق الفرنسي الأثيوبي بشأن الحـدود بين المنطقة الفرنسيةوبين الحبشة وقد تعهدت فرنسا في هذه الإتفاقية بتأييد الإمبراطور ليتمكن من السيطرة علي منطقة النيل وجاء في البند الثاني من هذه الإتفاقية الموافقة علي رفع العلم الفرنسي علي الشاطئ الأيسر للنيل كما يرفع الأمبراطور علمه علي الشاطئ الأيمن. وجـاء فـي البند الثالث أنه لا يحق للفرنسيين احتلال أي منطقة من شـرق النيل الأبيض، كما لا يحق لهم دخول تلك المنطقة إلا إذا دعت الضرورة لذلك.

واعتـبرت فرنسا هذا الاتفاق مع منليك بمثابة تحالف حقيقي بين فرنسا وأثيوبيا.

وبمجرد أن عاد لاجارد إلى فرنسا أرسلت فرنسا ثلاث بعثات إلي أثيويـبا بهـدف الوصـول من الشرق أي من أثيوبيا إلي أعالي النيل بمسـاعدة الأحباش ـ في نفس الوقت الذي اتجهت فيه فرنسا لارسال حملة أخرى من مستعمراتها بغرب القارة لنفس الهدف.

ففي ٢٤فبراير ١٨٩٦أصدر وزير المستعمرات الفرنسي تعليمات نهائـياً إلي مارشان (Marchand) ليقود حملة علي النيل ويرفع العلم الفرنســي علــي فاشودة وكانت بريطانيا تراقب الوضع في السودان وتمنع أية دولة أوروبية منافسة لها من الاستيلاء علي هذه المناطق.

وقــد تعثرت الحملات الآتية من الشرق (من إثيوبيا) بينما وصل مارشــان إلى فاشودة في الخامسة من مساء الأحد الموافق ١٠ يولية ١٨٩٨ ورفع العلم الفرنسي على أنقاض القلعة المصرية القديمة هناك، ولــو نجحت الحملات القادمة من الشرق مع الحملة القادمة من الغرب لتغــير الموقــف في وادي النيل ولتغيرت الخريطة السياسية في هذه المنطقة.

وقــد كانت بريطانيا تعتمد علي إيطاليا في شرق أفريقيا للقضاء علــي أي توغــل فرنسي في وادي النيل من ناحية الشرق، لكن بعد هــزيمة عدوة كان رد الفعل البريطاني سريعاً، ولذلك زحفت القوات البريطانــية نحو دنقلة في ١٢ مارس ١٨٩٦ لتخيف ضغط الدراويش الذيــن بــدأو في التقدم نحو كسلا لطرد الإيطاليين لان انهيار إيطاليا حلــيفة بريطانيا ونجاح الدراويش سوف يعرضان المصالح البريطانية للخطر.

فقــررت أن تسترد السودان فوراً للقضاء علي التحالف الفرنسي الحبشي الذي يمكن أن يؤثر علي أملاك بريطانيا ليس في شرق أفريقيا فقط ولكن في مصر أيضاً.

تقدمــت الحملة إلي مروي جنوباً، واستطاعت هزيمة الدراويش وأعــادت بربروشــندي عام ١٨٩٨م. واستمرت القوات المصرية في

تقدمها حتى قضت علي الخليفة عبد الله التعايشي في واقعة جديدة في ٢٤نوفمــبر ١٨٩٩ وانتهــت الثورة المهدية في السودان ورفع كتشنر الرايتيــن المصرية والإنجليزية علي أطلال سراي الحاكم العام وكان هذا إيذاناً بوضع السودان تحت الحماية البريطانية.

وبعــد ذلــك صــدرت التعليمات لكتشنر لمتابعة السير في النيل الأبيض لإحتلال فاشودة وعليه أن يخبر القائد الفرنسي بأن وجود هذه القــوة الفرنســية في فاشودة وفي أي جزء من وادي النيل يعد بمثابة إعــتداء علي حقوق مصر والحكومة البريطانية وخرج كتشنر من أم درمــان وفي ١٠سبتمبر صار على بعد ١٢ ميلاً من فاشودة ووصلها بالفعل في ٢١من نفس الشهر علي رأس كتيبتين من الجنود السودانيين وبعد مناقشة حامية وافق مارشان علي رفع الراية المصرية عل مسافة ٧٠٠يــاردة من الراية الفرنسية على أن ينتظر أوامر حكومته، وترك كتشــنر قوة سودانية بقيادة الميجور جاكسون وتوجه جنوباً لأنه توقع قــدوم الأحباش إلي نهر السوباط ووصل إلي نقطة تقاطع السوباط مع النيل الأبيض وهناك أقام حامية، وبهذا تأكد كتشنر من أن مارشان قد عزل تماماً في الداخل وأنه محاصر في فاشودة.

واضــطر مارشــان إلــي السفر للقاهرة للإتصال بحكومته التي وجدت أنه من الأفضل ألا تثير حرباً مع إنجلترا بسبب مسألة فاشودة وبــالفعل أرسلت الحكومة الفرنسية في ٤نوفمبر ١٨٩٩ تأمر رجالها بالإنســحاب مــن فاشــودة، وأبحر الفرنسيون إلي بلادهم عن طريق الحبشة في نفس العام.

وأدرك الإنجليز بعد حملة مارشان أن هناك مخططاً فرنسياً يسعى لعـرقلة مشـروع تأسيس إمبراطورية من البحر المتوسط إلي رأس الـرجاء الصـالح ولـذا قـرر الإنجليز العمل على منع أية دولة من الاسـتيلاء علـي مـنطقة أعالـي النيل التي تعتبر حجر الزاوية في الإمبراطورية البريطانية في أفريقيا.

وهكـذا كان قرار بريطانيا بالزحف نحو دنقلة واسترداد السودان بـأي ثمـن وتطبيق سياسة جديدة نحو السودان هو الذي حمل اللورد كتشـنر فـي النهاية إلي رحلة الألف ميل من حدود مصر إلي القلعة الصـغيرة فـي فاشودة وكان عاملاً أساسياً وقوياً في إحباط المخطط الفرنسـي الأثيوبـي للوصول إلي النيل والتوسع عل حساب الأملاك المصـرية هـناك، ولقـد نجحت بريطانيا في استبعاد فرنسا والقوى الأخرى عن أعالي النيل، وأثبتت أنها القوة العظمي في وادي النيل بعد إقصـاء الفرنسـيين عن حادثة فاشودة، ولم يبق أمامهم من منافس إلا الإمـبراطور منليك الذي كانت له أطماع واسعة في حوض النيل بعد هـزيمة الإيطاليـن في عدوة عام ١٨٩٦ تمتد إلى الخرطوم وبحيرة فكتوريا (حدود أثيوبيا القديمة).

ب- نتائج معركة عدوه:

١- أحدثـت هذه المعركة تقارباً بين الإمبراطور منليك والخليفة عـبد الله التعايشـي فـي السـودان، حيث بدأت سلسلة من المراسلات بين الطرفين كان الهدف منها تحسين العلاقات بين الدولتين، وإظهار الرغبة المستمرة في العمل من أجل السلام،

وقـد اتفق الطرفان بعد المعركة على أن الرجل الأبيض هو عدوهمـا وأنـه لابـد مـن التحالف بينهما للوقوف ضد هذا المخطـط الاستعمـاري، وحـذر الإمبراطور منليك الخليفة عـبد الله من الفرنسيين والإنجليز، بل وطالبه بالتشدد معهم، وهكذا كانت هزيمة عدوة عاملاً قوياً في تحسين العلاقات بين الحبشة والسودان، وتبودلت البعثات الدبلوماسية بينهما، وكان فـي الإمكـان أن تسفر هذه البعثات عن المزيد من العلاقات الطيبة لولا وقوف القوى الأوربية في وجه هذا التحالف والذي لم يصل إلى الدرجة المرجوة منه بسبب تدخل بريطانيا السافر وإجبارها منلك على إنهاء علاقاته بالخليفة التعايشي وفي نفس الوقـت عجلـت الأحـداث بالقضاء على الدولة المهدية في السـودان حـتى لا تـترك السـودان فريسة للقوى الأوربية الأخرى.

٢- كانـت معـركة عدة فاتحة التكالب الاستعماري على منطقة القرن الأفريقي بصفة عامة وعلى وادي النيل بصفة خاصة، والحقـيقة هـي أن مخططـي السياسية البريطانية قد رسموا سياسـتهم الأفريقـية على أساس امتداد النفوذ البريطاني من القاهرة شمالاً حتى الكان جنوباً، وفي نفس الوقت بنى سياسيو فرنسا استراتيجيتهم على أساس التوسع من قاعدة (أبوك) في القرن الأفريقي حتى المحيط الأطلسي غرباً، ووجدت بريطانيا من إيطاليا خير حليف لها يقف أمام التوسع الفرنسي في وادي النـيل والقـرن الأفريقي، وفي نفس الوقت وجدت فرنسا في

الحبشـــة الحليف الذي يمكن أن يقوض المخططات البريطانية ووقفـــت بجانـــبه تشد أزره وتمده بالسلاح والعتاد حتى جاء النصر الكبير للأحباش على الإيطاليين في عدوة ولما وجدت بريطانيا أن حليفها قد هزم في هذه المعركة وأن فرنسا بدأت تخطـــط للتوســـع فـــي وادي النيل ــ كان هذا من شأنه خلق المـــزيد مـــن الصراع بين القوى الأوربية حول أعالي النيل ومنطقة القرن الأفريقي وظهر هذا جلياً في حادثة فاشودة التي تمـــثل قمة التنافس الأوربي في وادي النيل بعد معركة عدوة، حيـــث التقـــت آمال الإمبراطور منليك الذي كان يسعى نحو الســـيطرة على أجزاء من السودان مع آمال الفرنسيين التي كانـــت تســـعى للتوســـع في أعالي النيل وقد وضحت سياسة الطرفين في الزحف الفرنسي بالاتفاق مع أثيوبيا نحو فاشودة وفي الحملات العديدة التي أرسلها الإمبراطور منليك إلى النيل الأزرق بعد هزيمة الإيطاليين في عدوة.

٣- أحدثت هذه المعركة تغييراً كبيراً في السياسة البريطانية تجاه وادي النيل، فلقد رسمت بريطانيا سياستها منذ إخلاء السودان علـــى التريث والتمهل في عملية السيطرة على المنطقة حتى تكون الفرصة سانحة لذلك واتخذت من إيطاليا حارساً لها في المـــنطقة، واعتبر صانعوا السياسة البريطانية أن إمبراطورية منلـــيك مـــا هـــي إلا مجال نفوذ إيطالي ــ لكن بعد هزيمة الإيطاليين في عدة، وجدت بريطانيا أن حليفها قد تهاوى وأن المـــنطقة صارت نهباً للقوى الأوربية التي اعتبرتها أرضاً لا

صاحب لها، وأحست بريطانيا أن منليك بالتعاون مع الفرنسيين يسعى للاستيلاء على مناطق في أعالي النيل وأن هناك تنسيقاً بين حملات حبشية وفرنسية تلتقي في أعالي النيل، فقامت بريطانيا بتغيير سياستها، وعملت باسترداد السودان بأسرع ما يمكن حتى لا تقع منطقة أعالي النيل في أيدي دولة أجنبية معادية، فكان قرار الزحف نحو دنقلة في ١٢ مارس ١٨٩٦ لتخفيف الضغط على الإيطاليين، ثم إعداد حملات استرداد السودان والقضاء على الدولة المهدية ثم مواجهة الفرنسيين في فاشودة وإجبارهم على الانسحاب منها والمحافظة على منطقة أعالي النيل بعيدة عن القوى الأوربية المتنافسة في المنطقة، وبالطبع حدثت كل هذه التحولات والتغييرات في السياسة البريطانية بعد هزيمة عدوة، وبعبارة أخرى كانت هزيمة الإيطاليين في عدوة سبباً في تعجيل بريطانيا في استرداد السودان والوقوف ضد الأطماع الفرنسية والإثيوبية في وادي النيل.

٤- أحدثت هذه المعركة تغييراً في موازين القوى في المنطقة بدلاً من اعتماد بريطانيا على إيطاليا ووقوفها بجانبها وتمكينها من بسط سيطرتها ونفوذها على مناطق من القرن الإفريقي وبعض المناطق التي كانت خاضعة للسيادة المصرية اتجهت بريطانيا للحبشة.

فبعد هزيمة عدوة وظهور الإمبراطور منليك على مسرح الأحداث السياسية في المنطقة أخذت بريطانيا تتقرب إليه

وتسعى للتحالف معه وبالفعل كانت بعثة رينيل رود إلى بلاط منليك بعد هزيمة عدوة حلقة من حلقات السياسة البريطانية للتودد نحو منليك وللقضاء على التحالف بينه وبين الخليفة في السودان، وحتى تضمن وقوفه على الحياد في الحرب المرتقبة بين بريطانيا الدراويش، وباختصار فإن معركة عدوة كانت عاملاً قوياً في تغيير دفة السياسة البريطانية واتجاهها نحو التحالف مع الإمبراطور منليك أسوة بالتحالف الذي حدث بين منليك والفرنسيين كما كانت عاملاً قوياً في تقلص الأطماع الإيطالية في المنطقة إلى حين.

٥- ترتب على هزيمة عدوة أن صارت الحبشة دولة ذات بأس وحول، وأخذت وفود الدول الأوربية تسعى من أجل التحالف مع الإمبراطور الحبشي، وفي نفس الوقت أحس منليك أن الوقت حان وأن الفرصة التي كان ينتظرها قد جاءت إليه بعد نكسة الإيطاليين في عدوة وكسر شوكة غطرستهم وتوسعهم في ممتلكاته، فراح يبحث عن تحقيق حلمه القديم في بسط سطوته وتوسيع مجال نفوذه حتى الخرطوم والنيل الأبيض، وبدأ بالفعل في مشاركة الدول الأوربية في عمليات التقسيم وبسط النفوذ لكن أحلام الإمبراطور لم تلبث أن تحطمت على صخرة الواقع عندما قضت بريطانيا على الدولة المهدية، وحاولت استرداد كل ما كانت الأيدي المصرية قد امتدت إليه وهنا حدث التعارض بين منليك والبريطانيين الذين قلصوا نفوذ هذا الإمبراطور وحرموه من التوسع في وادي النيل

وقضوا على نشوة النصر التي كان الإمبراطور يسعى وراءها لتحقيق الآمال والأحلام.

٦- ساعدت هزيمة الإيطاليين في عدوة على تحقيق الاستقرار والسكينة في هذه المنطقة نحو أربعين عاماً عاشت فيها منطقة القرن ووادي النيل في هدوء وسلام، ولكن الهزيمة النكراء التي لحقت بالإيطاليين جعلتهم في حالة من الخزي والعار ولم يهنأ بال الإيطاليين إلا بعد زحف الجيوش الإيطالية على إثيوبيا لغسل عار هزيمة عدوة، وقد اكتسحت القوات الإيطالية إقليم تيجري وأنفتح الطريق إلى أديس أبابا والتي دخلتها القوات الإيطالية في مايو ١٩٣٦ وهرب الإمبراطور هيلاسلاسي إلى بريطانيا التي وعدته بإعادته إلى العرش ومساندته في ترسيخ حكمه على كل إمبراطوريته، وقد ترتبت على هذه الأحداث تعرض منطقة وادي النيل إلى خطر هذا الغزو الإيطالي، فقد كانت هزيمة عدوة وما لحق بإيطاليا من ذل ومهانة سبباً جوهرياً في الهجوم على أثيوبيا عام ١٩٣٦ وكأن معركة عدوة التي ضمنت الاستقرار والأمان لفترة من الزمان لم تنقذ المنطقة من ويلات الحرب مرة أخرى.

٧- كانت هزيمة عدوة عاملاً فعالاً وقوياً في تدعيم علاقات فرنسا مع أثيوبيا، كما كانت فرصة لتحقيق حلم الفرنسيين في الوصول إلى النيل وتحطيم فكرة ربط المستعمرات بين القاهرة والكاب، وكانت فكرة إرسال حملات من أثيوبيا بعد هزيمة عدوة لملاقاة حملة مارشان القادمة من الغرب إحدى

النتائج الهامة التي ارتبطت بهزيمة عدوة ولو تم التنسيق بين هـذه الحمـلات لتغيرت الخريطة السياسية في حوض وادي النيل.

جـ- الغزو الإيطالي للحبشة عام ١٩٣٥:

فـي العهد الفاشي كانت إيطاليا تريد مد خط حديدي بين إرترية والصـومال الإيطالي ماراً بالحبشة، وكانت تؤيدها إنجلترا التي كانت تريد بناء خزان على بحيرة تانا لمصلحة أرض الجزيرة في السودان، لكن إمبراطور الحبشة عارض الدولتين، فقررت إيطاليا غزو الحبشة عـام ١٩٣٥، فدخلت جيوشها عدوة لمحو الإهانة التي لحقت بهم فيها عام ١٨٩٦، واكتسحت إقليم تيجرة، ثم دخلت أديس أبابا في مايو عام ١٩٣٦، واسـتخدمت إيطالـيا كل الأساليب الوحشية من أجل تحقيق النصـر (غازات سامة وقتل جماعي وتخريب) واضطر الإمبراطور هيلاسلاسـي الأول إلـى الالـتجاء إلى إنجلترا والإقامة فيها، وأعلن موسوليني قيام الإمبراطورية الإيطالية في شرق أفريقيا.

إلا إن انضـمام إيطاليا إلى ألمانيا في الحرب العالمية الثانيةجعل إنجلترا وفرنسا تساعدان الإمبراطور هيلاسلاسي على استرجاع ملكه. فوصـل إلى الخرطوم واتخذها مركزاً لتجميع قوة حبشية، استخدمها لاسـتعادة أثيوبـيا بمعونة الحلفاء، حتى دخل أديس أبابا عام ١٩٤١، ومـنذ عـام ١٩٤٣ أخذت أثيوبيا تسعى لضم أرترية إليها. وفي عام ١٩٤٩ اتخـذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً بتأليف لجنة للتأكد مـن رغـبات أهالي ارترية وإعداد تقرير للجمعية العامة، وفي العام

التالـــي وافقت الأمم المتحدة على أن تكون أرترية وحدة ذات استقلال ذاتي، على أن تضم إلى أثيوبيا في اتحاد فيدرالي تحت التاج الأثيوبي، وفـــي عـــام ١٩٦٣ تحـــول الاتحاد الفيدرالي إلى اتحاد كامل، إلا أن أرتـــرية قاومت بزعامة جبهة تحرير أرترية، وانتهى الأمر باستقلال ارتـــرية الـــتام عن الحبشة، وانضمت عام ١٩٩٣ إلى منظمة الوحدة الأفريقية والأمم المتحدة.

الصومال الإيطالي:

اهتمـــت إيطاليا بساحل أفريقيا المطل على المحيط الهندي، شأنها شأن ألمانيا وإنجلترا، وفي عام ١٨٨٥ أوفدت مندوباً للبحث عن ميناء قـــرب من نهر جوبا يمكن أن يكون نقطة ارتكاز لمشروعات إيطاليا هـــناك، وعقـــد المندوب الإيطالي معاهدة مع السلطان برغش سلطان زنجبار، وبمقتضاها حصل الإيطاليون على بعض الامتيازات، ولكنهم لـــم يقنعوا بذلك، خصوصاً بعد أن تم الاتفاق بين ألمانيا وإنجلترا عام ١٨٨٦ علـــى اقتســـام أملاك سلطان زنجبار، فتطلعت إيطاليا إلى أن يكـــون لها نصيب، وهنا اعتمدت إيطاليا على تأييد إنجلترا التي كانت تخشـــى أطمـــاع فرنسا، فلعل وجود إيطاليا في المنطقة يقف في وجه الفرنسيين.

واســـتطاعت إيطالـــيا أن تحصل من بعض شيوخ المنطقة على توقـــيعات بوضـــع بلادهم تحت الحماية الإيطالية، وبناء على قرارات مؤتمـــر برليـــن أبلغت الحكومة الإيطالية في عام ١٨٨٩ الدول ببسط حمايتها على الصومال، فيما بين الصومال الإنجليزي وأراضي سلطان

زنجبار، ثم سعت إيطاليا لمد نفوذها إلى ميناء قسمايو وغيرها من الموانى الهامة على المحيط الهندي مثل مقديشو وبراوة، واستمر تأييد إنجلترا التي وعدت بأنها عندما تحصل شركة شرق أفريقيا البريطانية على حق إدارة موانئ سلطان زنجبار، فإن الشركة الإنجليزية تسلم للحكومة الإيطالية ـ أو إحدى الشركات الإيطالية ـ الموانى الواقعة شمال نهر جوبا، وتحتفظ الشركة الإنجليزية لنفسها بإدارة الموانئ الواقعة جنوب هذا النهر. على أن تكون لإدارة ميناء وقسمايو مشتركة بين الشركتين ـ ووفت الشركة الإنجليزية بوعدها، وفي نوفمبر ١٨٨٩ أعلنت إيطاليا حمايتها على الساحل الشرقي لأفريقيا، من شمال قسمايو حتى نهاية سلطنة أوبيا، ولم تلبث إيطاليا بمعونة إنجلترا أن حصلت في عام ١٨٩٢ على ضمان المصالح الإيطالية في موانئ سلطان زنجبار، فصار لإيطاليا حق إدارة موانئ مقديشو وبراوة باسم سلطان زنجبار. كما أصبح لها حق شراء الأراضي وتنظيم الملاحة والتجارة ومد الخطوط الحديدية وإنشاء المصارف وإصدار أوراق النقد، على أن تسري هذه الحقوق لمدة ٢٥ سنة تجدد لمدة أخرى مماثلة، وهكذا آلت هذه الجهات إلى إيطاليا، وظلت تديرها إلى الحرب العالمية الثانية.

وبعد هزيمة إيطاليا في هذه الحرب ظل الصومال تحت الإدارة الإنجليزية حتى عام ١٩٤٩، حين قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن يصبح الصومال دولة مستقلة ذات سيادة. على أن يصبح هذا الاستقلال نافذاً بعد عشر سنوات من الوصاية الدولية، على أن تكون إيطاليا هي السلطة القائمة ويساعدها مجلس استشاري من مندوبي

مصر وكولومبيا والفلبين، وفي عام ١٩٦٠ وافقت هيئة الأمم المتحدة على استقلال الصوماليين ــ البريطاني والإيطالي ــ واتحادهما في دولة واحدة باسم جمهورية صوماليا، أي الصومال الكبير.

ليبيا:

بعد الكارثة التي نزلت بالإيطاليين في عدوة، قررت إيطاليا أن تعدل عن سياسة التوسع في شرق أفريقيا، وتعود للتفكير في شمال القارة، وكانت هناك أسباب أخرى:

١- كان ساحل أفريقيا الشمالي قريبا من السواحل الإيطالية، لذلك فهو أكبر ملاءمة لتوسع إيطاليا التي ليست لديها القوة البحرية لإدارة مستعمرات نائية.

٢- كان من أهداف إيطاليا التوسعية إيجاد مجال للهجرة للإيطاليين وكان من الأفضل تدبير هذا المجال في بيئة مماثلة مناخياً لإيطاليا.

٣- هناك عامل تاريخي، فقد كان الإيطاليون يعتبرون أنفسهم ورثة الإمبراطورية الرومانية القديمة، وكان هذا التفكير يجذبهم إلى شمال أفريقيا، حيث كانوا يعتبرون البحر المتوسط بحيرة رومانية: بحرنا Mara Nostrum.

وبدافع هذه العوامل سبق أن اتجهت إيطاليا إلى تونس، فلما سبقتها إليها فرنسا، اتجهت إيطاليا إلى شرق أفريقيا، ولما هزمت في عدوة تطلعت إلى ليبيا القطر الباقي من الممتلكات العثمانية في شمال أفريقيا، دون أن يمتد إليه الاستعمار الأوربي.

واستطاعت إيطاليا أن تحصل على تأييد من الدول، إنجلترا وفرنسا بعد الاتفاق الودي في عام ١٩٠٤، وروسيا في عام ١٩٠٩، مقابل تأييد إيطاليا لمطالبها في حق سفنها في المرور من المضايق، وقد كانت الأحوال الداخلية في تركيا ذاتها ملائمة عقب ثورة الاتحاد والترقي في عام ١٩٠٨، وفي ليبيا أيضاً من حيث قصر مدة الولاة وعدم كفاءتهم.

وقد سلكت إيطاليا في بداية القرن العشرين عدة طرق إيجابية لتحقيق أهدافا في ليبيا، بفتح المدارس الإيطالية وفتح فروع لبنك روما. وكانت تقوم بإقراض الأهالي بضمان أراضيهم، مما سهل للبنك وضع يده على كثير من أراضي ليبيا، هذا إلى جانب نشاط الجماعات التنصيرية، وعندما أخذت فرنسا عام ١٩١١ تستولي على المدن المغربية بدعوى أن الأوربيين فيها في خطر، تذرعت إيطاليا بنفس الحجة، وأنها مضطرة لأن تصون كرامتها ومصالحها، فأرسلت إنذاراً إلى الباب العالي في ٢٨ سبتمبر عام ١٩١١، وفي ٣ أكتوبر بدأ الأسطول الإيطالي بضرب طرابلس، فكان هذا إيذاناً ببدء الحرب الليبية الإيطالية.

ورغم ضخامة الجيش الإيطالي الغازي، فإن استيلاءه على المدن الساحلية مثل طرابلس وطبرق ودرنة وبني غازي، فقد لقى الغزاة مقاومة عنيفة من الأهالي لضآلة القوات التركية وانشغال تركيا بحرب البلقان، ولم يستطع الإيطاليون السيطرة على المناطق الداخلية، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، انضمت إيطاليا إلى الحلفاء، فقامت إنجلترا بالحيلولة دون وصول الإمدادات من مصر إلى

المجاهديـــن الليبيين، وفي عام ١٩٢٠ عقد اتفاق بين الطرفين قسمت بـــرقة بموجبه إلى قسمين: شمالي يخضع للسيادة الإيطالية، وجنوبي (في الواحات) يكون إدارة مستقلة للسنوسيين، أما في طرابلس فقد قام الزعماء العرب فيها بإعلان استقلالها وقيام حكومة وطنيه فيها.

ولكن بعد أن استولى الفاشيون على الحكم في إيطاليا عام ١٩٢٢، شـــنوا حـــرباً برية وبحرية وجوية على موانى ليبيا، فاضطر الأمير سنوســـي إلـــى الانسحاب إلى مصر تاركاً قيادة الكفاح لعمر المختار، واســـتمرت المقاومـــة طوال فترة ما بين الحربين العالميتين، وترتبط المقاومة في ليبيا باسم المجاهد عمر المختار، الذي تولى قيادتها عندما اضطر السيد محمد إدريس السنوسي لمغادرة ليبيا والإقامة في القاهرة.

ورغم استحواذ إيطاليا ــ بمساندة بريطانيا ــ على واحة جغبوب مـــن مصـــر، وكذلـــك على كثير من الواحات، مما أدى إلى انقطاع الإمـــدادات مـــن مصـــر، وعزلة المجاهدين في الشمال، فقد استمرت المقاومـــة خاصـــة وأنه في عهد موسوليني الفاشي في إيطاليا اتبعت وســـائل القمـــع ضـــد الليبيين، وبوجه خاص عندما تولى جراتزياني منصـــب نائب الحاكم الإيطالي في برقة، حتى لقب بـــ (جزار ليبيا)، وفـــي أثـــناء إحدى عمليات الجهاد وقع عمر المختار في الأسر، وقدم لمحاكمة صورية وحكم عليه بالإعدام عام ١٩٣١، ورغم أن استشهاد عمر المختار كان له أبلغ الأثر في نفوس المجاهدين، إلا أن اليأس لم يتسرب إلى قلوبهم.

وكان للحرب العالمية الثانية أثر كبير على مستقبل ليبيا، ذلك إن إيطالـــيا دخلـــت الحرب إلى جانب ألمانيا، ضد بريطانيا وفرنسا، مما

جعل بريطانيا تساند الليبيين في كفاحهم، حيث كون الليبيون في مصر جمعية وطنية، وقرروا الاشتراك بمجندين ليبيين في الأعمال العسكرية فـــي الصحراء الليبية، حتى استطاع الحلفاء إخراج الإيطاليين من ليبيا عام ١٩٤٣.

ومـــع ذلـــك كـــان هناك تفكير لتقسيم ليبيا بعد الحرب إلى ثلاث مناطق، برقة وتخضع لبريطانيا، وطرابلس وتعاد إلى إيطاليا، وفزان تديـــرها فرســـانا، لولا تمسك الليبيين بالاستقلال التام لبلادهم ووحدة أرضـــيها. خصوصاً عندما عرضت القضية على الأمم المتحدة، التي شكلت لجنة لبحث أحوال المستعمرات الإيطالية السابقة ــ ومنها ليبيا ــ والتعرف على مطالب الأهالي.

وفـــي معاهدة الصلح مع إيطاليا عام ١٩٤٧ تنازلت عن حقوقها فـــي مســـتعمراتها الســـابقة، ووجـــدت لجنة التحقيق تمسك أهل ليبيا باستقلال بلادهم ووحدتها، وعلى ذلك قررت الأمم المتحدة عام ١٩٤٩ اســـتقلال ليبـــيا علـــى ألا يتأخر تحقيق الاستقلال عن أول يناير عام ١٩٥٢.

الفصل العاشر

الاستعمار الألماني في أفريقيا

- أسباب نزول ألمانيا إلى ميدان الاستعمار
- غرب أفريقيا
- جنوب غرب أفريقيا
- شرق أفريقيا
- ثورة الماجي ماجي
- مصير المستعمرات الألمانية في أفريقيا

ظلت ألمانيا حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر لا تمتلك في أفريقيا موطئ قدم، ولو أنه كان للأفراد والمستكشفين والتجار والمنصرين الألمان نشاط في أفريقيا قبل ذلك، وخصوصاً مع غرب أفريقيا، حيث كانت السفن الألمانية تنقل ال سلع، وخاصة الذهب والرقيق، وكذلك في أفريقيا الشرقية، الأمر الذي دعا الكتاب الألمان لأن يطالبوا بضرورة إنشاء مستعمرات لألمانيا تخدم الأهداف الاقتصادية لألمانيا، وقد أنشئت أيضاً في عام ١٨٧٨ الجمعية الألمانية للدراسات الأفريقية، التي كان بها نشاط كشفي في المنطقة بين زنجبار وتنجانيقا، وفي عام ١٨٨٢ أنشئت الجمعية الألمانية للاستعمار.

والأمر الذي يلفت النظر أن الحكومة الألمانية لم تتدخل في هذا النشاط الذي حمل عبئه التجار والمنصرين والمستكشفون، ذلك أن بسمارك مستشار ألمانيا كان يعارض النشاط الاستعماري، حتى يجنب بلاده التورط في مشاكل مع دول قد يحتاج إلى تأييدها في السياسة الأوربية مثل إنجلترا، ومع ذلك فإن ألمانيا لم تلبث أن نزلت إلى ميدان الاستعمار في أفريقيا. **فما الأسباب التي جعلت ألمانيا تنزل إلى ميدان الاستعمار؟**

١- **قوة الرأي العام الألماني:** رغم أن بسمارك كان يعارض الاندفاع في الاستعمار، إلا أنه لم يلبث أن وجد دعاة الاستعمار يتزايدون في داخل البرلمان الألماني وفي خارجه، ممثلين في التجار ورجال المال والإرساليات الدينية، ممن شاركوا من قبل في النشاط الألماني في أفريقيا، خصوصاً وقد صحب ذلك تقدم في صناعة السفن، والحاجة إلى مواد خام،

وأسـواق للمصـنوعات الألمانـية، ولذلـك فإننا نلاحظ أن المستعمرات الألمانية في أفريقيا أقيمت في المناطق التي كانت مسـرحاً لنشاط هؤلاء الرواد الألمان من المستكشفين والتجار والمبشـرين فـي توجو والكمرون وأفريقيا الجنوبية الغربية وأفريقيا الشرقية.

وكانت ظروف ألمانيا الاقتصادية دافعاً إلى ازدياد الاقتناع بين الرأي العام الألماني بأهمية المستعمرات لبلادهم، وذلك بسبب الـتقدم السـريع في الصناعة. ولكن التقدم الصناعي أدى إلى تـراكم المصـنوعات ورخص أثمانها، بل وإلى تعطل العمال وانخفاض الأجور، ووجد الألمان أنه لا حل لهذه المشكلات إلا بالاسـتحواذ على المستعمرات التي يمكنها في الوقت نفسه أن تزود المصانع الألمانية بغلات المناطق الحارة.

٢ــ **العلاقـات الدولية في أوربا:** لقد كانت ألمانيا في بداية الأمر ــ رغبة في عزل فرنسا ــ تحاول ألا تثير إنجلترا بمنافستها علـى المسـتعمرات فـي أفريقيا، إلا أن العلاقات بين ألمانيا وإنجلـترا لـم تلبـث أن تدهورت بسبب النشاط الاقتصادي الألمانـي الذي صار ينافس الاقتصاد الإنجليزي، وازدياد قوة الأسطول الألماني الذي صار يهدد سيادة الأسطول الإنجليزي علـى الـبحار، ثـم اتجـاه ألمانـيا نحو التوسع السلمي في الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي جعل الطريق إلى الهند في خطر.

٣ـ **رغبة الشباب الألماني في الهجرة:** سرت بين الشباب الألماني رغبة في الهجرة إلى الخارج، واتجه في بداية الأمر إلى العالم الجديد واستراليا، حيث تتوفر الخيرات والمناخ المناسب، حتى لقد بلغ عدد المهاجرين الألمان بين عامي ١٨٢٠ ـ ١٨٧٠ نحو مليونين وثلاثة أرباع المليون، ولكن الحكومة الألمانية وجدت أنها تخسر بهذه الهجرة، بينما تستفيد الدول التي سبقت ألمانيا إلى الاستعمار في هذه الجهات. ورأت الحكومة الألمانية أنها لو حولت اتجاه الشباب الألماني إلى الهجرة إلى مستعمرات ألمانية، فإن هذا سيكون أجدى وأنفع لألمانيا، حيث أنه في هذه المستعمرات لن يفقد صلته بالوطن الأم.

٤ـ **استكمال الوحدة الألمانية الداخلية:** من المعروف أن ألمانيا ـ شأنها شأن إيطاليا ـ خرجت إلى ميدان الاستعمار متأخرة عن غيرها من الدول الأوربية، مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال وأسبانيا، ويرجع ذلك إلى تأخر قيام الدولة الوطنية الموحدة، ذات الحكومة المركزية، التي تخضع لها كل الولايات الألمانية حتى السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولذلك كان من الطبيعي بعد أتمت ألمانيا وحدتها أن تتجه نحو الاستعمار، فإنه من المسلم به أن الوحدة في الداخل يتبعها دائماً التوسع في الخارج، وقد رأينا ذلك في أسبانيا وإنجلترا وإيطاليا.

٥ـ **التكالب الاستعماري الأوربي على أفريقيا:** : منذ أخذ ملك بلجـيكا لوبولد الثاني يتبع سياسة السيطرة على الكونغو حتى تفتحت أعين الدول الأوربية الأخرى ـ ومنها ألمانيا ـ حتى تحصل كل منها على نصيب من هذه الأسلاب، خصوصا وأن ألمانـيا كانـت الدولـة الداعية إلى مؤتمر برلين (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥)، ذلـك المؤتمـر الـذي فـتح بـاب التكالـب على المسـتعمرات فـي أفريقيا على مصراعيه، ومن الطبيعي أن تسـعى ألمانيا لكي يكون لها نصيبها وأن يتخلى بسمارك عن سياسـة العزوف المؤقت عن الحصول على مستعمرات حتى تعوض ألمانيا ما فاتها في هذا المجال.

ولذلـك فإنـنا نجد أنه في عام واحد تقريباً بسط الألمان حمايتهم علـى أربعـة أقاليم في أفريقيا، وهي الأقاليم التي كان مسرحاً لنشاط الشركات الألمانية ـ كما ذكرنا من قبل ـ .

غرب أفريقيا:

كونـت ألمانـيا مسـتعمرتي توجـو والكمرون، ويرجع إنشاء مسـتعمرة توجو الألمانية إلى نشاط الدكتور ناختيجال الطبيب بالجيش الألماني، وكان ميالاً للرحلات فاستقال وقام ببعض الرحلات في القارة الأفريقـية، فوصـل في إحدى رحلاته عام ١٨٨٤ إلى المنطقة الواقعة إلى الشـرق مـن مسـتعمرة ساحل الذهب الإنجليزية (بين ساحل الذهب وداهومـي)، حيـث اسـتطاع أن يعقد اتفاقات مع الزعماء المحليين، ويـرفع العلـم الألماني على المدن الهامة فيها مثل لوبي، وأعلن قيام محمية توجو الألمانية.

وبعـد ذلك اتجه الدكتور ناختبجال صوب الكمرون، وحصل من أحـد الزعماء المحليين على تعهد بمنح الألمان حقوقاً فيها مقابل هدية سخية، ورفع العلم الألماني على مدينة دوالا على الساحل. معلناً بسط النفوذ الألماني على تلك الجهات، وقد أثار هذا التوسع الألماني فرنسا، التـي كانت لها ادعاءات في كل من توجو والكمرون، وظل الخلاف بيـن الدولتين حتى عام ١٩١١، حينما وقع اتفاق بين الدولتين، تخلت ألمانـيا بموجـبه عن معارضة بسط نفوذ فرنسا على مراكش، مقابل تـنازل فرنسا عن ادعاءاتها في الكمرون وتوجو. وطبقاً لهذا الاتفاق وسـعت ألمانـيا مسـتعمرتها في الكمرون شرقاً حتى نهر أوبانجي والساحل الشمالي للجابون.

جنوب غرب أفريقيا:

كانـت هـذه المـنطقة مسرحاً للبعثات التنصيرية البروتستانتية الألمانـية، التي تبعها عدد من التجار، وقامت هذه البعثات التنصيرية الألمانـية في عام ١٨٦٤ بشراء بعض الأراضي شمال خليج ولمش، ورفعـت علـيها العلم الألماني، وكانت نواة للنفوذ الألماني في جنوب غـرب أفريقـيا، وأخذت ألمانيا منذ ذلك الوقت (١٨٨٣) تعمل على توطيد وتوسيع نفوذها في جنوب غرب أفريقيا، وتوصلت إلى اتفاقات مع البرتغال وإنجلترا لتخطيط حدود منطقة النفوذ الألمانية، فأصبحت تمـتد شـمالاً إلـى حدود أنجولا البرتغالية، وجنوباً حتى نهر أورانج وشرقاً حتى بتسوانا البريطانية.

شرق أفريقيا:

مــنذ منتصف القرن الثامن عشر كان للتجار الألمان علاقات مع ساحل أفريقيا الشرقي، وخاصة في منطقة زنجبار، ثم شرعت الحكومة الألمانية في الثمانينيات من القرن التاسع عشر في التفكير في السيطرة علــى مــناطق مــن هذه الجهات. تأسيساً على نشاط التجار الألمان، وكذلــك البعــثات التنصيرية الألمانية، ومن هذه البعثات بعثة الدكتور كــرامف فــي عــام ١٨٨٤، الذي سمح له السلطان السيد سعيد بنشر المسيحية بين القبائل الوثنية.

وفــي مــارس عــام ١٨٨٤ أسس الدكتور كارل بيترز وبعض الاستعماريين الألمان جمعية باسم "الجمعية الألمانية للاستعمار"، وأعلن بيــترز صــراحة أن هدفها القيام بمشروعات استعمارية، بعد أن وجد الشــعب الألماني نفسه معزولاً لا يؤخذ برأيه في تقسيم العالم الذي بدأ منذ القرن الخامس عشر.

وبعــد طــول مناقشــة في الجمعية حول المنطقة التي تنفذ فيها مشــروعاتها الاســتعمارية، استقر الرأي على اختيار ذلك الجزء من الســاحل الشرقي الواقع خلف دار السلام. وأرسلت بعثة برئاسة بيترز اســتطاعت أن تحصــل على معاهدات مع بعض الشيوخ والسلاطين الذيــن تنازلوا للشركة الألمانية التي يمثلها بيترز عن مساحات واسعة من الأرض مقابل بعض الهدايا.

وفــي عــام ١٨٨٥ أصدرت الحكومة الألمانية مرسوماً بتأسيس شــركة شرق أفريقيا الألمانية. كما أخطرت ألمانيا الدول الموقعة على معــاهدة برلين بما حصلت عليه الشركة الألمانية من أراض وحقوق

سيادة في شرق أفريقيا. وذلك تنفيذاً لما نصت عليه معاهدة برلين من ضرورة إخطار الدول الموقعة على قرارات المؤتمر بأي احتلال جديد يتم بواسطة أي دولة في المناطق الساحلية من أفريقيا، ورغم احتجاج سلطان زنجبار الذي لم يعترف بمعاهدات الشيوخ المحليين مع الألمان. فـإن ألمانيا لم تعبأ خصوصاً وأنها لم تجد معارضة من إنجلترا التي كانـت ترحـب بالاحتفاظ بتأييد ألمانيا ضد فرنسا التي كانت تعارض الوجود الإنجليزي في مصر، وتطمع في مد نفوذها إلى بعض جهات السودان، وكذلك الأطماع الروسية في وسط آسيا.

وعـندما وجـد السـلطان برغش أن إنجلترا لا تنوي تأييده ضد الأطمـاع الألمانـية، اضطر تحت تهديد الأسطول الألماني إلى عقد معـاهدة تمـنح الألمان امتيازات في أراضيه وتسهيلات في الموانى الـتابعة له. وقـد أدى هـذا إلى مطالبة الدول الأوربية الأخرى ذات المصالح الاقتصادية في المنطقة بامتيازات مماثلة لما حصل علية من الألمان.

وفي عام ١٨٨٦ توصل الألمان والإنجليز إلى اتفاق على تحديد منطقتـي الـنفوذ الإنجليزي والألماني، بحيث تقسم الأراضي الداخلة الواقعـة خلف الشريط الساحلي، والممتدة بين نهري روفوما وتانا إلى منطقتي نفوذ: شمالية لبريطانيا وجنوبية لألمانيا، ويفصلها خط يمتد من السـاحل إلـى جبال كلمنجارو وبحيرة فكتوريا، مع الاعتراف بسلطة سـلطان زنجبار على جزر زنجبار وبمبا وعلى مدن قسمايو وبراوة ومقديشـو، وأبلغـت إنجلترا السلطان بهذا الاتفاق، ونصحته بقبول ما اتفقـت عليه الدولتان، وتهديده بسوء العاقبة إذا عارض، كما أرسلت

ألمانـــيا ســـفينة حربـــية أمام زنجبار، ولذلك اضطر السلطان صاغراً للموافقة على اتفاق الدولتين الأوربيتين، وبذلك تأسست مستعمرة شرق أفريقيا الألمانية (تنجانيقيا).

ثورة الماجي ماجي:

تعتــبر هذه الثورة أكثر الحركات الوطنية أهمية في شرق أفريقيا وكـــان نجاحها المحلي قد ساعد على امتدادها من بحيرة نياسا وساحل كلـــوة وشـــاركت فيها كل القبائل الإسلامية والوثنية في محاولة منها لطـــرد الألمان وقامت عمليات الاغتيال للموظفين الرسميين وأعضاء البعـــثات التبشـــيرية والمزارعيـــن الأوربيين والتجار، وقد شجع هذا النجاح على اندلاع الثورة وزيادة المقاومة ضد المستعمرين الألمان في أماكن مختلفة.

فما الأسباب التي أدت إلى قيام هذه الثورة ضد الألمان في شرق أفريقيا؟

للإجابة على هذا السؤال نشير إلى أن ثورة الماجي ماجي كغيرها من الثورات التي قامت بها القوى الوطنية الأفريقية ضد الحكم الأجنبي قد تعددت أسبابها مع أنها تتفق في المضمون فهي ثورة ضد المستعمر وأســاليبه ووسائله في استغلال الشعوب، فقد ثار الشعب الأفريقي في شـــرق أفريقـــيا ضد وسائل الألمان الاستعمارية في فرض الضرائب وأهمها ضريبة الكوخ (Hut Tax) التي أدخلت عام ١٨٩٥، بالإضافة إلـــى فـــرض نظـــام العمل الجماعي سواء في رصف الطرق أو في المـــزارع الأوربـــية، كما ثار الأفارقة ضد نظم الحكم المحلية التي لم يتقبلها السكان.

ويـرى جوهنستون (Johnston) أن سبب الثورة يرجع إلى سوء الحكـم وإلــى فرض الضرائب وخاصة ضرائب العمل على السكان والتــي لـم يألفها الوطنيون خصوصاً عندما كان العمل الإجباري يتم لصالح المزارعين الأوربيين.

ولخص جوليوس نيريري (Julius Nyerere) أسباب الثورة حينما أشــار إلــى أن السعي نحو الحرية كان من أبرز الأسباب وراء القيام بهذه الثورة.

وخلاصـــة القول أن الثورة قد بدأت كحركة شعبية من الفلاحين الذيــن عانوا من مساوئ الحكم الألماني ثم قوى من خطورتها انتشار المعتقدات الدينية التي وصلت بها إلى الذروة.

وكانت البداية الحقيقية للثورة عندما حاول أحد حكام شرق أفريقيا الألمانية زراعة القطن على نطاق واسع ونظراً لأن هذا المحصول قد فشلت زراعته في الساحل الشمالي فقد اقتصرت التجربة علي الجنوب، وأعــتقد الألمان أن الزراعة الفردية لا تجدي لإنتاج القطن علي نطاق واســع ولــذا فقد أصدر الحاكم الألماني أوامره بوضع خطة لزراعة القطن بتنفيذها في منطقة التجارب بالقرب من نهر (روفيجي)، واحتاج الأمــر إلــي أن يعمــل الســكان مجهدين في هذه المزارع الجماعية الأوروبية علي أن تقوم الإدارات الاستعمارية بتقديم البذور والإشراف علي الزراعة ثم القيام بعمليات التسويق وتقسيم العائد في النهاية بواقع الثلــث لكــل من الرؤساء الحكام والمشرفين علي المشاريع الجماعية والثلث الأخير للعمال.

وطبقاً لهذا المشروع فإن كل قرية أجبرت على زراعة القطن في مساحات مخصصة وكان تمويل المشروع يتم من جانب مجموعة من صناع المنسوجات الألمان الذين كانوا يبحثون عن مصدر بديل للقطن الأمريكي الغالي الثمن.

وابتدأ تنفيذ المشروع في منطقة دار السلام في سبتمبر عام ١٩٠٢ وكان اختيار أرض المزارع يتم بناء عل توصيات الرؤساء والمفتشين وكانت المحاصيل السابق زراعتها في هذه المنطقة هي الذرة والشعير والسمسم والأرز، وهي محاصيل يحتاجها الأهالي للاستهلاك الشخصي وقد رفض الأهالي في البداية العمل في هذه لمزارع الجماعية وفضلوا دفع ضرائب عن أكواخهم وأرسلت الحكومة الألمانية لجنة لتقصي الحقائق واكتشفت هذه اللجنة أن المشروع قد قضى على اقتصاديات الأسر في هذه المناطق وأن الحكام هم المستفيدون فقط.

وليس معنى وجود التوافق الزمني بين بداية تطبيق مشروع القطن وقيام الثورة أن هذا المشروع كان السبب الرئيسي أو الوحيد للثورة ـ لكن يمكن القول بأن هذا المشروع كان من الأسباب الهامة لقيام الثورة وما يؤكد ويؤيد هذا القول:

أولاً: بالرغم من أن مشروع القطن لم يكن منتشراً في كل مناطق الثورة فإنها بدأت حيث ينفذ المشروع.

ثانياً: إن الثورة بدأت في أوائل موسم جني القطن.

ثالثاً: عاني الكثيرون من زعماء الثورة من مشروع القطن وكان عدد كبير منهم على رأس الثوار.

رابعاً: كان القطن في نظر الوطنيين رمزاً للتواجد الأجنبي بدليل أنه في عدة مناطق أحرق الثوار المحصول في الحقول.

وتؤكـد هـذه الشواهد أن مشروع القطن كان سببا جوهرياً لقيام الـثورة ولـذا فقد ذكر بعض الكتاب أن ثورة الماجي ماجي هي في الحقـيقة (ثورة القطن) وعلي هذه فإن اقتلاع جذور القطن كان مجرد إنذار للسلطات الألمانية وإعلاناً لبدء قيام الثورة.

وإذا كانـت الثورة قد قامت أساساً نتيجة لمعاناة الفلاحين وحنقهم علـى الحكم الأجنبي ممثلاً في المزارع الجماعية فسرعان ما ظهرت عوامـل أخـري لتعبئة الناس وحفزتهم علي الثورة، (فالعامل الديني) مـثلاً كـان عاملاً قوياً وراء الثورة ضد الوجود الألماني في تنجانيقا وصار هذا العامل بعيد الأثر في أحداث الثورة حيث تفوق علي عوامل الولاء للقبيلة أو العشيرة.

فالماجـي وهو الماء المقدس الذي قبله كل ثائر كان يوزع باسم الـثورة لكي يحمي الثوار ضد الطلقات الأوروبية وكان يجمع الناس تحـت هدف واحد دون أن تكون لهم وحدة سابقة وكان الاعتقاد السائد أن هذه القوة الدينية كفيلة بوحدتهم وحمايتهم.

وفسـر الألمان هذا الدافع الديني بأنه من السحر وقد ألهم الرجال الشـجاعة وغـرس في نفوسهم شعوراً بالولاء وحباً في التضحية لم يتوفر لدى الألمان أنفسهم.

ويبدو أن الشرارة الأولى بدأت من نجارمبي (Ngarambi) على نهـر روفيجـي حيث توجد عائلة من الأطباء السحرة الذين يدربون

أتباعهم وهم يتلقون الماء ويرشونه على أتباعهم فيمحنهم الحصانة ضد أي سوء وضد الأسلحة الأوربية بالذات.

ومما لاشك فيه أن هذا السحر كان قادراً على تجميع الناس تحت هــدف واحد ونحو غرض معين، واتخذ الثوار من شعور عدم الرضا سبيلاً لتحقيق أغراضهم، وقد نجح الزعماء في التخطيط للثورة بشكل محكــم لدرجــة أنــه لا يمكن القول أنها جاءت نتيجة قرارات فجائية عشوائية.

لقــد نشــأت الــثورة بسبب غضب الفلاحين واتسعت من خلال المؤتمــرات الدينية وظهرت الثقة بالنفس عندما هاجم أكثر من ثمانية آلاف محارب ــ مسلحين بالحراب فقط معسكراً ألمانيا وحاولوا القبض علــي بنادق جنود المستعمر بأيدهم وترتب علي هذا خسائر فادحة في صفوف الثوار العزل أمام الأسلحة الأوروبية الحديثة لكنهم فعلوا ذلك إيماناً بقوة الماجي.

بالإضافة إلى ذلك اشتملت حركة الماجي ماجي على الاعتقاد في عــالم مثالي (Utopia) يحكمه إله جديد سوف يقضي على كل الآثام بين البشر، وهكذا نجد أن الحركة كغيرها من الحركات الأفريقية ضد الحكم الاستعماري المبكر تطلبت مفهوماً جديداً وأيديولوجية من جانب الــزعماء الدينيين لكي تساعد على انتشارها وتعطيها نوعاً من الوحدة الشــاملة لأن الــثورة نشبت بين سكان لا تنظيم لهم وقد صار الماجي (الدمــاء) رمزاً للوحدة والالتزام ومكن الثورة من التوسع والانتشار، ودخلــت في مناطق لها تنظيم قبلي قوى فأفقدها الجانب الديني وتغلب

علـيه الجانـب القبلي وخلاصة القول أن الثورة عكست الأيديولوجية السياسية والمعتقدات الدينية في المنطقة.

أحداث الثورة وتطورها:

شـــهد عام ١٩٠٥ ذروة الكفاح الوطني ضد الحكم الألماني على أرض تنجانـــيقا، ففـــي العقدين السابقين لعام ١٩٠٥ لم تمر سنة دون حدوث مصادمات عسكرية ضد الألمان لكن هذه المقاومة كانت محلية ضـــعيفة ومـــنعزلة داخل مناطقها، أما عام ١٩٠٥ فقد سجل الانفجار الثوري في الجزء الجنوبي ضد الوجود الألماني.

ففـــي الثالث عشر من يولية ١٩٠٥بدأت الثورة في منطقة جبال ماتمبـــي (Matumbi)، ومن هذه النواة انتشرت أعمال العنف شمالاً وجـــنوبا أي أن مركـــز الثورة كان الجزء الأوسط والأعلى من نهر روفيجي ولكنها امتدت شمالاً ثم توسعت تدريجياً.

ولمـــا بـــدأت الثورة أعلن الأهالي الحرب باقتلاع جذور القطن ودقوا الطبول لدعوة جيرانهم للانضمام إليهم وحاصروا منزل الحاكم المواـــي للألمـــان لكنه هرب قبل أن تصل إليه أيدي الثوار وامتدت الثورة بعد ذلك وتطورت بشكل واسع.

وفـــي ٣٠يولية قامت كل عشيرة بمهاجمة مركز السلطة الألمانية المجـــاورة لهـــا وطـــاردوا الحكام الأجانب واتجه السكان إلى المدن الســـاحلية بعد أن اقتلعوا عيدان القطن من المزارع التابعة للمزارعين الألمـــان وبعد أن أحرقوا المستعمرة التجارية الخاصة بالتجار الألمان والأسيويين لجئوا إلى الجبال.

وقد آثار الهجوم السلطات الألمانية التي كانت قد تجاهلت من قبل تحذيـرات الحاكم الموالي لهم فأرسل الحاكم الألماني أحد ضباطه مع قـوة مكونة من مائتي جندي إلى كلوة لمهاجمة وكر الثوار هناك لكن هـذا الضـابط وجد مقاومة عنيفة من الثوار وأحس أن روحاً معنوية قوية غير عادية تسود بينهم. كما جاء في تقريره.

ولمـا انتشـرت أخبار الثورة تحركت عدة قبائل وأعلنت التعبئة وهاجمـت المراكـز التجارية وبرز بين قادة الثوار أحد الوطنيين في تنجانـيقا ويدعي عبد الله مابادا ، وهو ينتمي إلي الأسر العربية ومن القـواد المهـرة الذيـن أظهروا براعة حربية فائقة، وقد حصل على الماجي أي الماء المقدس وأثناء عودته التقى بثلاثة من الجنود الألمان الذيـن كانوا قد كلفوا بعمليات البحث والتقصي عن الثوار، لكنه نجح فـي قتلهم وبعد ذلك أخذ ينظم قواته وبدأ بمهاجمة مراكز الألمان ولم يقتصـر الأمـر عند هذا الحدث بل أخذ يهاجم القوات الألمانية على الساحل وأجبرهم على الانسحاب إلى الداخل.

وانتشـرت أخـبار الحرب ناحية الشمال عبر نهر روفيجي إلى المناطق المحيطة بدار السلام كما امتدت جنوباً.

وفي شهر أغسطس ظهر قائدان آخران من جماعات الموارا هما القـائد سـليمان ممبا، وجومبي جبريل، وقد امتد نشاطهم إلى مراكز الإرساليات في الوادي وأجبروا بعض الجماعات هناك على الانضمام إلـيهم ووصـل القـائد سـليمان إلى مقر الإرسالية الألمانية في ٢٨ أغسـطس ولمـا وجدهـا مهجورة حطم المكان وأجبر الحراس على الإدلاء عـن مخبـأ رجال الإرساليات الذين كانوا قد فروا إلى مالندي (Mldende).

ولما وصلت أخبار تدمير الثوار لمقر الإرسالية إلى الحاكم الألماني في ٣١ أغسطس ١٩٠٥ أرسل إلى الحكومة الألمانية يطلب بعض التعزيزات، وقد أمر القيصر الألماني بإرسال طرادين من الصين ومن المحيط الهادي إلى دار السلام لإثارة الرعب في قلوب الثوار.

وفي ٥ سبتمبر تلقى الحاكم جوتزن أخباراً مثيرة حيث أن الثوار قد استولوا على عدة مدن وامتدت الثورة إلى المرتفعات الجنوبية وتوسع القتال جنوباً وغرباً ووصل الثوار إلى حافة الجبل.

القضاء على الثورة:

اضطرت الحكومة الألمانية أخيراً لإرسال التعزيزات بعد أن وصلت أخبار الثورة إلى هذا الحد وظهر أن الأمر خطير يهدد الوجود الألماني كله في شرق أفريقيا وعندما وصلت التعزيزات في أكتوبر ١٩٠٥ استطاع الحاكم الألماني أن يقضي على الثورة تدريجياً حيث تحركت ثلاث حملات إلى الداخل.

وكانت الأسلحة الأوربية الحديثة واستخدام النظم الحربية التي لم يألفها الثوار عاملاً فعالاً في تشتيت جهود الوطنيين وأرغمتهم على الاستسلام، ولم تكن هناك اشتباكات عسكرية بين القوات الألمانية وجموع الثائرين ذلك لأن الألمان اعتمدوا أساساً على سياسة تدمير المحاصيل مما ترتب عليه انتشار الدمار والخراب والجوع وكان هذا دافعاً قوياً وكافياً أجبر الثائرين على إلقاء ما لديهم من سلاح والاستسلام في النهاية.

لقد قامت خطة الألمان على أساس إحداث مجاعة في كل المناطق الثائرة لأن الثوار كانوا يعتمدون علي الموالين لهم من السكان المحليين في تقديم ما يحتاجون إليه من غذاء وطعام، ولذا قرر الألمان القضاء علـــي كل ما يحتاج إليه الثوار من طعام ومأوي، كما نجح الألمان في محاصـــرة الثوار في اتجاه بحيرة نياسا التي كانت تغلق الطريق نحو الاتجاه غرباً، وفي ١٢إبـــريل ١٩٠٦ أصدر القـــائد الألـــماني يوحنا (Johannes) أوامره لقوة تتكون من ٢,٨٠٠ جندي بالتقدم نحو معاقل الثوار التي كانت تحت قيادة الزعيم الوطني مبيلا (Mbcyela) والذي كـــان قـــد صـــد طابوراً ألمانياً وانتهت المعركة بمصرع هذا الزعيم الإفريقي بعد أن كبد العدو خسائر فادحة وبعد أن قام مقاومة عنيفة.

لكن المجاعة غطت الأرض وأتت على الأخضر واليابس وتساقط الناس من شدة الجوع لدرجة أن الإحصاءات أشارت إلى موت العديد مـــن الســـكان مـــن الجـــوع فقط، ناهيك عن مصرع ما لا يقل عن ٣٠٠,٠٠٠ وطني شاركوا في ثورة الماجي ماجي.

لقـــد كان عنف القضاء على الثورة والقبض على الزعماء الذين قـــادوا جموع الثائرين وإحداث الخراب والدمار وبالتالي المجاعة بين هذه القوى ـــ من أسباب ضعف روح المقاومة عند شعت تتجانيقا.

لقـــد كانت المجاعة سبباً في فشل أي محاولة من جانب الوطنيين لتنظيم الحركة الشعبية التي تستطيع أن تقاوم الألمان وكانت الثورة في حاجـــة إلى قوى تنظيمية أقوى مما كان يتوقعه الأفارقة الذين تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح نتيجة الحرب والمجاعة المدمرة التي أعقبت

هــذه الحرب وأدت في النهاية إلى مصرع ما لا يقل عن ربع مليون أفريقي.

ويقودنا الحديث عن الثورة وعن فظائع الألمان في القضاء عليها إلى دراسة الآثار التي تركتها هذه الثورة الإفريقية المبكرة ضد السلطة الألمانــية وضد نظام السخرة وضد نظام العمل في المزارع الأوربية وضد الضرائب على الأفارقة، ولعل من أبرز الاثار قبل الخوض في تفاصيل ما ترتب على هذه الثورة أن نذكر أن المجاعة كانت أبرز ما خلفــه الألمــان بعــد أن اتبعوا سياسة حرق الأرض بشكل لا يسمح بزراعتها فترة طويلة بعد الحرب.

نتائج الثورة

أولاً: *النتائج السياسية*:

أحدثــت هذه الحرب المدمرة نوعاً من الفوضى وصار الناس في حالة من الهمجية والتوحش. ويعيش كل إنسان حسب قانونه الخاص. وفقــدت تنجانــيقا أعداداً ضخمة من الطبقة الأرستقراطية، واستمرت الــبلاد فترة من الزمان حتى ظهرت قيادات جديدة وبعبارة أخرى فإن الحرب دمرت مجتمعات كاملة وقضت على جيل من القيادات الأفريقية ورغــم فشــل الثورة ونجاح الألمان في القضاء عليها ــ فإنها هزت الإدارة الألمانــية، فلــم يكن ممكناً أن يديروا شؤون المستعمر حسب هواهم وخوفاً من احتمال قيام ثورات أخرى في المستقبل، وخوفاً من تــورط الحكومــة الألمانية في تحمل مسؤليات مبنية علي نتائج سوء

الإدارة ــ فقــد عينت الحكومة الألمانية لجنة لتقصي الحقائق ومعرفة أســباب تذمــر الأهالي ومعاقبة كل من استغل سلطاته ضد الوطنيين وكان ذلك بداية الإصلاحات التي طرأت علي الجهاز الإداري ونصت علي أن يكون عقد العمل مكتوباً، ونظمت العلاقة بين العمال وأصحاب العمل، وحظي العمال الأفارقة بنصيب من العدالة وهكذا تمثل الماجي ماجــي نقطــة تحول في الإدارة الألمانية في شرق أفريقيا لكن الفترة كانت قصيرة لدرجة أن هذه العلاقة الجديدة لم تتضح بالشكل المناسب، وقــبل أن تفقــد ألمانــيا مستعمراتها في الحرب العالمية الأولي قامت بــبعض الإنجازات الفعالة لصالح الأفارقة فقد لجأت ألمانيا إلي تعيين بعــض الزعماء من المثقفين لأن المجاعة والحرب قضت علي الأسر الحاكمــة وكان علي الحكومة الألمانية بعد القضاء علي ثورة الماجي ماجي أن تعين حكاماً آخرين وقامت بالفعل بتعيين زعماء من المثقفين الذيــن تلقــوا تعليمهم في مدارس البعثات التبشيرية كما عينوا بعض المدرسين في وظائف الإدارة المحلية.

وعلــى هذا نجد أنه في الوقت الذي كسب فيه الألمان معركة في المــيدان الحربــي فإن الماجي ماجي جعلت السياسة الإستعمارية تعيد الــنظر فــي الــنظم التي طبقتها قبل قيام الثورة، وأجبر الألمان علي إحــداث تغيرات جوهرية في نظام الحكم بالإضافة إلي قيام السلطات الألمانــية برســم سياســة تنمية طويلة الأجل أطلق عليها "الاستعمار العلمــي" لكــن هذه السياسة لم تحقق الثمار المرجوة منها بسبب قيام الحرب العالمية الأولي وضياع المستعمرات الألمانية.

ثانياً: النتائج الاقتصادية:

ترتــب على هذه الثورة الأفريقية تغير في طبيعة المنطقة فلم نعد نــرى الأشــجار الضــخمة، وعم الجدب والقحط وانتشرت المجاعة وانخفض عدد السكان بشكل أثار دهشة المبشرين الذين جابوا المنطقة قبل الثورة وأحسوا بالفارق الشديد والخلخلة الكبرى في أعداد السكان حيــث مات البعض من المجاعة كما ذكرنا من قبل ومات آخرون من الــبرد والمرض، كما أن الحيوانات المفترسة قد التهمت أناساً كثيرين كــانوا يهيمون على وجوههم بحثاً عن الغذاء والمأوى، وأتت الحرب علــى الأخضر واليابس وتركت المنطقة في حالة من الخراب والدمار وخسرت تنجانيقا معركة في حربها الطويلة مع الطبيعة.

وبعــد القضاء على الثورة بدأ اهتمام البنوك الألمانية والشركات التجارية بتحويل المستعمرة إلى سوق واسعة لصناعتها، هذا بالإضافة إلى اعتبارها مورداً تعتمد عليه في الحصول على المواد الخام وجعلها وسيلة لحل مشكلة ميزان المدفوعات الألماني.

وعلــى هذا قدمت الحكومة الألمانية مساعدات وإعانات لكل من الإدارة الاستعمارية والشركات الألمانية وخاصة (شركة شرق أفريقيا الألمانية) ووصلت هذه الإعانات إلى حوالي مليون فرنك سنوياً.

وبعــد القضاء على ثورة الماجي ماجي عينت الحكومة الألمانية حاكماً جديداً يدعى البارون فون روشنبرج Baron Von Rechenberg كما كلفت أحد رجال البنوك البارزين بإعادة تنظيم الشركات الألمانية في تنجانيقا وقد قام الاثنان في عام ١٩٠٧ بجولة في ربوع المستعمرة الألمانــية يرافقهما عشرة من رجال الأعمال وأبرز رجال الصناعة،

وواجــه الحاكم الجديد عداوة قوية من المستوطنين الألمان لأنه رفض الاســتجابة لكــل مطالــبهم، وبــدأت سياســة اقتصادية تهدف لجعل المستعمرة مكتفية ذاتياً من الناحية الاقتصادية.

ثالثاً: النتائج الدينية والثقافية :

لقــد فقد كثير من الأفارقة الثقة في المعتقدات الوطنية التي كانت ســائدة وكان فشل الماجي (الماء المقدس) في مقاومة الألمان سبباً في تحــول عدد كبير من الزعماء إلى الدين الإسلامي والديانة المسيحية، وقد لاحظ أليفي Iliffe أن الفترة ما بعد ثورة الماجي ماجي كانت فترة توسع في التبشير المسيحي في تنجانيقا.

وينطــبق هــذا بشكل واضح على المناطق الجنوبية التي دمرتها الحــرائق حيث بدأ عدد كبير من الناس يعمد على البعثات التبشيرية، ويحدثنا رونالد أوليفر عن الزيادة السريعة في أعداد الذين بدءوا يقبلون على التعليم المسيحي بعد فشل الثورة فقد ازداد الإقبال على المدرسين الأوروبيــن ورجال الإرساليات الذين ساعدوا على التبشير المسيحي بين هذه الجماعات.

وفــي مــنطقة ماهــنج (Machenge) حــدث تحول نحو الدين الإســلامي خصوصــاً بين الرجال الذين حاربوا الألمان، وازداد عدد الذيــن انتظموا في المدارس الإسلامية وبدأ الرؤساء المحليون يبنون المــدارس فــي القــرى لتعليــم الطــلاب كمــا حــدث في منطقة تابورا (Tabora).

ولقــد بــدأت السياسة الاستعمارية الألمانية تركز على التدريب المهني، ووضح أن ذلك أيضاً في السياسة التعليمية التي طبقتها ألمانيا واعتــبرت أن المدارس التي تمولها الحكومة الألمانية هي مهد الثقافة الألمانــية فــي إفريقــيا. وقد وضحت هذه السياسة في تقرير مارتن Martin الــذي أوضح أن التلاميذ الذين يتخرجون من المدارس التي تمولهــا الإدارة الألمانية يشكلون طبقة خاصة تربط بين المستوطنين الألمــان وبيــن الوطنيين الأفارقة، وأن تعليم الأفريقي يجب أن يكون لخدمــة الأغراض الاستعمارية وتحويل المستعمرة إلى مناطق تابعة لألمانيا ومفيدة من الناحية الاقتصادية.

ومــن الملامح البارزة لسياسة التعليم بعد ثورة الماجي ماجي ما صــدر مــن قرارات تمنع استخدام وسائل العنف والعقاب البدني مع التلامــيذ في المدارس، وفي نفس الوقت حدث تعاون وثيق بين سياسة الحكومــة الألمانية وسياسة رجال الإرساليات في المجال التعليمي بعد ثورة الماجي ماجي.

الخاتمة:

من العرض السابق لثورة ماجي ماجي نجد أنها قد وضعت بداية المقاومــة الحقيقــية والفعالــة للقوى الأجنبية، وكان انتشارها واتساع نطاقها عاملاً فعالاً في استمرارية المقاومة حتى تحقق الاستقلال، ولم تحــدث هذه المقاومة من فراغ بل كانت لها استمراريتها في المجتمع التنزاني وأثرت بدورها على عقول الأجيال القادمة، فلقد ولدت الثورة شعور الولاء، وأحدثت تفاعلاً بين الجماعات المتباينة ثقافياً واجتماعياً،

وكانــت هــذه بداية القومية الجماعية حيث أوجدت المقاومة الأفريقية للــتدخل الألماني شعوراً بالبحث عن الاستقلال المفقود، وكانت عملية القومــية الشــاملة قد قويت بمرور السنين وخلقت كوادر جديدة أخذت تمــارس الكفــاح، واستمرت العملية الديناميكية حتى وجدت الوسيلة الناجحة التي ساعدت على تحقيق الاستقلال الذي وضعت ثورة الماجي ماجي أولى لبناته.

مصير المستعمرات الألمانية في أفريقيا:

ارتبط مصير المستعمرات الألمانية في أفريقيا بأحداث أوربا أثناء الحــرب العالمــية الأولــى (١٩١٤ـ١٩١٨)، إذ تعرضــت هــذه المســتعمرات الألمانــية لهجوم قوات الحلفاء، فهاجم البريطانيون من شــرق أفريقــيا البريطانية (كينيا) القوات الألمانية في أفريقيا الشرقية الألمانــية (تنجانــيقا)، كما سلمت توجو للقوات الفرنسية والإنجليزية، وســلمت جــنوب غرب أفريقيا الألمانية لقوات اتحاد جنوب أفريقيا، ودخلت القوات الإنجليزية والفرنسية مستعمرة الكمرون الألمانية.

وبعد أن هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، تقرر حرمانها مــن جميع مستعمراته عقاباً لها، وأصبحت هذه المستعمرات خاضعة لعصــبة الأمم، التي عهدت بإدارتها إلى بعض الدول المنتصرة طبقاً لــنظام الانــتداب الذي استحدث في ذلك الوقت. والذي يعني أن تقوم الدولــة المنــتدبة بــإدارة الإقليم، وأن تعمل على رفع مستوى سكانه معنوياً ومادياً، وأن تقدم تقارير سنوية إلى لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم توضح فيها مدى ما حققته الإدارة في الإقليم خلال العام، إلا أن نظام الانتداب في الواقع كان استعماراً تحت اسم جديد.

وبمقتضى هذا النظام:

١- وضـــعت أفريقـــيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا) تحت الانتداب البريطانـــي، وتولـــت بلجـــيكا الإشراف على إقليمي رواندا وأوروندي.

٢- قسمت توجود إلى قسمين: ضم القسم الأكبر منها إلى داهومي الفرنسية، والقسم الآخر إلى ساحل الذهب الإنجليزي.

٣- قســـمت الكمـــرون الألمانية إلى قسمين: قسم ضم إلى أفريقيا الاستوائية الفرنسية، والآخر إلى نيجيريا الإنجليزية.

٤- وضعت جنوب غرب أفريقيا تحت انتداب جنوب أفريقيا.

ولمـــا قامـــت هيـــئة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥ عقب الحرب العالمـــية الثانـــية، استحدثت نظام الوصايا ليحل محل نظام الانتداب، وعهـــدت هيئة الأمم المتحدة بإدارة المستعمرات الألمانية لنفس الدول الســـابقة في ظل نظام الوصاية، ولكن هذه المستعمرات استمرت في الكفاح في سبيل استقلالها:

أ- فحصلت **تنجانيقا** على استقلالها في آخرعام ١٩٦١، وزنجبار في آخر عام ١٩٦٣، وانضمتا في دولة موحدة باسم جمهورية تنزانيا الموحدة عام ١٩٦٤ وعاصمتها دار السلام.

ب- انضمت **توجو البريطانية** إلى غانا بعد استقلالها عام ١٩٥٧. أما **توجو الفرنسية** فقد أصبحت جمهورية مستقلة عام ١٩٦٠ وعاصمتها لومي.

ج- استقلت **الكمرون الفرنسية** عـــام ١٩٦٠ وانضـــم إليها الجزء

الجنوبي من الكمرون عام ١٩٦١، وقامت جمهورية الكمرون الاتحادية وعاصمتها ياوندى.

د- سيطرت جنوب أفريقيا على **إقليم جنوب غرب أفريقيا**، وطبقت فـيه نظـام التفرقة العنصرية أسوة ما هو مطبق في جنوب أفريقـيا ذاتهـا، وفي عام ١٩٦٦ قررت الأمم المتحدة إنهاء إدارة جنوب أفريقيا للإقليم، وأعلنت في عام ١٩٦٨ تسميته باسم "نامبيا" ولكن جنوب أفريقيا رفضت إنهاء إدارتها للإقليم، فشكل الوطنيون فـيه منظمة "سوابو" لقيادة الكفاح الوطني، وبعد مفاوضات طويلة انسـحبت جنوب أفريقيا من الإقليم، وأجريت انتخابات عام ١٩٨٩ فـاز فـيها حزب سوابو، وبذلك أصبحت ناميبيا جمهورية مستقلة عاصمتها وندهوك.

بعض المراجع لمزيد من الدراسة

١- د/ جمال حمدان: استراتيجية الاستعماري والتحرير ، ١٩٦٨.

٢- د/ رأفت الشيخ: أفريقيا في التاريخ الحديث والمعاصر، ١٩٨٢.

٣- رولاند أوليفر: موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة:د. دولت أحمد صادق.

٤- د/ زاهر رياض: استعمار أفريقيا واستقلالها، ١٩٦٦.

٥- د/ زاهر رياض: جنوب أفريقيا، ١٩٦١.

٦- د/ سليمان حزين: صفحات من تاريخ الاستعمار (د.ت).

٧- د/ شوقي الجمل، د/ عبد الله عبد الرازق: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ١٩٨٧.

٨- د/ عبد الملك عودة: السياسة والحكم في أفريقيا، ١٩٥٩.

٩- د/عبد الله عبد الرازق، د/ شوقي الجمل: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، ٢٠٠١.

١٠- د/ محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب السياسية.

١١- محمد عبد العزيز اسحاق: نهضة أفريقيا، ١٩٧١.

١٢- د/ محمد فؤاد شكري: الحكم المصري في السودان، ١٩٤٧.

١٣- د/ محمد فؤاد شكري : مصر والسودان وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ، ١٩٥٨.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

أفريقيا قبل الاستعمار الحديث

- لمحة جغرافية ٢
- الحالة الاجتماعية ١٢
- معرفة قدماء المصريين بأفريقيا ٢٩
- دور العربي في انتشار الإسلام بأفريقيا ٣١

الفصل الثاني

الاستعمار الأوربي لأفريقيا

- الاستعمار ومراحله ٤٣
- تأخر كشف القارة ٤٤
- الدوافع الأوربية لاستعمار أفريقيا ٤٧
- الكشف الجغرافي لأنهار أفريقيا ٦٢

الفصل الثالث

البرتغاليون في أفريقيا

- دوافع اتجاه البرتغال ٨٤
- مراحل استعمار البرتغال لأفريقيا ٨٨
- موقف الأفارقة من الاستعمار البرتغالي ٩٦
- نهاية الاستعمار البرتغالي ٩٩

– نظم الحكم في المستعمرات البرتغالية ١٠٢

الفصل الرابع

الاستعمار الأسباني في أفريقيا

– المستعمرات الأسبانية في أفريقيا ١١٠
– المقاومة الوطنية للاستعمار الأسباني ١١٦

الفصل الخامس

الاستعمار الهولندي في أفريقيا

– تكوين مستعمرة رأس الرجاء ١٣٣
– هجرة البوير وأسبابها ١٣٦
– تكوين دولة أورانج والترنسفال ١٤٠
– الحروب بين الإنجليز والبوير ونهاية الاستعمار الهولندي ١٤٤
– نظام الحكم الهولندي ١٥١

✓ الفصل السادس

البلجيك في الكونغو

– نشاط الملك ليوبولد المتعلق بأفريقيا (مؤتمر بروكسل ١٧٨٦م) ١٥٧
– مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ ١٦٠
أ ـــ الأوضاع الدولية في الفترة السابقة على المؤتمر ١٦٣
ب ـــ المؤتمر وما دار في جلساته ١٦٥

○ التطورات في الكونغو بعد مؤتمر برلين

الفصل السابع

الفرنسيون في أفريقيا

- شمال أفريقيا ١٧٧
- غرب أفريقيا ١٩١
- وسط أفريقيا ١٩٧
- شرق أفريقيا ٢٠٠
- نظم الحكم في المستعمرات الفرنسية ٢٠٢

الفصل الثامن

الإنجليز في أفريقيا

- في غرب أفريقيا ٢١٦
- في جنوب أفريقيا ٢٢١
- في وسط أفريقيا (روديسيا) ٢٢٢
- في شمال أفريقيا ٢٢٦
- في شرق أفريقيا ٢٣٤